وجع الوفاء في زمن الجفاء

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى

ردمك (ISBN): 978-9931-883-47-0

الايداع القانوني: السداسي الأول 2023

عنوان الكتاب: وجع الوفاء في زمن الجفاء

الجزء الأول: الضحيّة

اسم المؤلف: ليلى دلول

التدقيق اللغوي: ليلى دلول

تصميم الغلاف: زكرياء رقاب

الإخراج الفني: الحسناوي مشاط

عدد الصفحات: 453

لوزات للنشر والتوزيع والترجمة

رقم الهاتف: 0658681986

الأيمايل: edutionlouzat@gmail.com

العنوان: عزابة سكيكدة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي لوزات للنشر والتوزيع والترجمة

ليـلى دلول Lounita

أنا لا أريد سوى ترميم أحرف اجتاحها الغدر والجفاء

ولمن يعيب جرعة زادت بين هؤلاء ..

عن التضحية والإخلاص بين الأخلاء

***

دعوني أخبركم أنّ...

'المثاليّة هي أصل الـوفـاء'

من عبير تلك النجمة

أحبّــتي

أحرف الرواية ومعانيها

أسماء الشخصيات بتفاصيلها

وصف الأماكن وما وجد فيها

أو حتى المؤسسات جميعها

إن تشابهت

***

فاعلموا أن خيالي... من نسج حذافيرها

ملاحظة

جميع الشخصيات الأنثوية ضمن الأحداث **ترتدي الحجاب**.

إهــداء

إلى حبّ صاغته المواقف

إلى صبر لم تضعفه السنوات

إلى سند حماني عند العواصف

إلى أمل أيقضني عند السبات

إلى بلد غرس في الروح والذات

نصرة قضية فلسطين بلا مغالاة

***

إليك يا جزائر

♥

~ نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة ◄

الجزء الأوّل

الضحيّـة

أحداث هذه السلسلة الروائية حدثت سنة 2002

الفصل الأول: البداءة - زهرات الربيع المتلاصقة.

في منتصف فصل الشتاء – 02 كانون الثاني 2002 -

ها قد حل فصل الشتاء بليله الطويل ويومه القصير، لون السماء الباهت يزيد الجو بردا، على مدّ البصر تزينها تلك الغيوم بأشكال هندسية متعددة تعدد الأحداث بين هذه الصفحات، فما أجمل الثلج والحلة البيضاء تتربع على قمم الجبال الشامخة بالجزائر العاصمة.

أشرقت الشمس لتزيد من لمعان تلك الطبقات الثلجية المتراكمة هنا وهناك، شمس تطلّ بنورها ودفئها على مقام الشهيد وهو يلف العاصمة بل يلفّ كل الجزائر بالأمان، حيث منبع تدفق قسمات الحرية، ها هو العلم الوطني يرفرف من فوق كل سارية وينبض في قلوب كل الجزائريين ليؤكد بألوانه تلك الاستقلالية، فتمر خيوطها لتكسر النسمات الباردة وتصبّح على أهلها، عند أحياء عتيقة سماها التاريخ "القصبة" حيث كان البياض والبساطة يخيمان على تصاميمها التاريخية العظيمة وقد انعكست على تعامل سكانها الأحرار الذين كانوا لها حماة عبر كل الأقطار.

كانت الساعة حينها السابعة وخمسة وخمسون دقيقة وقد بدأ التلاميذ والطلاب من الصفوف التحضيرية وحتى الجامعة

يلتفون حول بعضهم من أجل يوم دراسي جديد منتظرين النغمة التي ستعلن القسم وهو يتردد كل صباح ليسلم على شهداء ضحوا بالأرواح حتى ننعم اليوم بالاستقلال والاستقرار، فحب الوطن يولد بمولد أي إنسان، ولكن صقله وإحياءه في كل يوم يبرهن لنا ويثبت دوامه عبر الأجيال، فإذا كان لا بد للتوبة من التجدد في قلب كل مؤمن حقّ، فإنه علينا أيضا أن نجدد حبنا لأوطاننا في كل ثانية لتكون التضحية في سبيلها – إن دعت الضرورة – أمرا هينا يثبت للأعداء العشق والغرام الحقيقي لذرات ترابنا – تراب الجزائر الغالية-.

وجهتنا هي ثانوية هواري بومدين، وهاهم التلاميذ ينسحبون إلى الداخل رويدا رويدا كما في كل مجمع علم، لم يبق إلا خمس دقائق وتغلق الثانوية أبوابها، لقد كان بناء مقام الشهيد يعلو روابيها ويطلّ على ساحتها بكل مودة ليحييها، وهناك حيث كثرت حركة الطلاب والأساتذة وقفت شابتان نظرت الأولى إلى ساعتها في توتر.

- لم يبق الكثير من الوقت... أخشى أن يغلقوا البوابة... فقد تأخرت كثيرا.

بينما نظرت فتاة أخرى بحزن مطأطأة رأسها لترد في استياء.

- أعتقد أن انتظارنا لها خير من صمتها غير المعتاد في الآونة الأخيرة... لا أدري ولكنني أشعر أنها أضحت تتحجج بأتفه الأسباب لتغلق أبواب الفرج التي كانت مفتاحها يوما ما.

ابتسمت رفيقتها مع عينين كئيبتين كأنها تسترجع كل مصائب الكون في تلك اللحظة وقالت.

- معك حق... من منا كان يتوقع عودة الضحكة على شفتيها بعد الذي حدث في ذلك اليوم... يجب أن نمنحها المزيد من الوقت لتنسى.

ثم أكملت في صمت متنهدة.

- ونمنح أنفسنا الوقت أيضا... فالجميع يتناسى ولكن الأمر أصعب مما توقعنا.

استوقفت الثانية أفكارها متجاهلة دموعها بصعوبة وهمست.

- لقد وصلت دنيا... أغلقي هذا الموضوع.

التفتت أمل بسرعة ومسحت عينيها ثم عادت بالأنظار باسمة حيث تتقدم فتاة بان التعب والأرق على قسمات وجهها البريء، كانت تضغط بإبهام وسبابة يدها اليمنى على إبهام يدها اليسرى وبمجرد رؤيتها لهما حتى تغيرت تلك الملامح وزادت سرعة خطواتها، ثم انحنت معتذرة منهما وقبل إنهاء كلماتها قاطعتها الفتاة الأولى وهي أمل سراي ساخرة.

- نعلم أنك كنت تبحثين عن دبوس من أجل خمارك أيتها الفوضوية.

لتكمل الثانية واسمها رهف عمران ممسكة خديْها بأطراف أناملها ثم وجهت أنظارها لأمل مازحة بذات النبرة.

- لا أعتقد ذلك يا أمل... أراهن أنها كانت تبحث عن مئزرها.

علت ضحكتهما محاولتين إبعاد التوتر الذي لازم صديقتهما مؤخرا فيما رفعت الثالثة أنفها مبعدة نظرها عنهما بعد أن استفزتها تلك الضحكة بحكم طبعها العصبي، وهذه الفتاة هي بطلة هذه الأحداث دنيا بن زيان، لذا تقدمت أمل باسمة الوجه وردت بلطف.

- هذه عادتك يا دنيا... أنت تتأخرين ونحن ننتظرك... وقد اعتدنا الأمر.. دعونا ندخل فقد تأخرنا.

لم يحتج ذلك الموقف كلمات من دنيا، اكتفت بذات البسمة الصادقة مدركة أن ما تخفيه عن صديقتيها لن يبتعد كثيرا عن المشاعر التي تحاولان بدورهما إخفاءها عنها، بينما هن يحاولن الدخول زعزع ذلك الهدوء صوت ملامسة كعب عالي للأرض تلته نبرة ناشزة تـُبعت بجلبة مسموعة لضرب خفيف بعصا أنسنها على الكف فالتفتن بريبة، وإذ بها امرأة في الثلاثينات من عمرها محجبة وقد عقدت حاجبيها سائلة .

- ما الذي تفعلنه هنا ثانية؟ لقد تعبت منكنّ ومن العقاب الذي سأسلطه عليكن، ماذا ستدرسن في هذه الساعة؟

ردت رهف مرتعشة مخفية نفسها خلف أمل.

- رياضة يا أستاذة... وها نحن ذاهبات صوب الملعب... نعتذر عن التأخر مجددا.

اقتربت دنيا من رهف وهمست في أذنها متذمرة.

- ألم نجد وجها آخر نبدأ به يومنا غير وجه الأستاذة سليمة؟
- إذا علينا أن نستعد لاستقبال فاجعة من نوع خاص يا دنيا.

بسبب رد رهف الطريف ضحكت دنيا خفية، لكن الأستاذة رأتها فصرخت غاضبة.

- لماذا تضحكين يا بن زيان؟ هيا انقلعن من أمامي قبل أن أغير طريقكن إلى الإدارة حيث ستمارسن رياضة من نوع آخر.

مباشرة... التفتت رهف وأمل إلى الملعب انصياعا لأوامر المراقبة، بينما وقفت دنيا تنظر إلى الأفق البعيد حيث رأت طيف فتاة ترتكز على عكازة، نظرت كأنها تراها حقيقة... تناست أنها مجرد سراب رغم تيقنها بأنه كذلك، عكازة تسبق خطواتها المتذمرة، قد تعدّ دعما وصديقا مقربا لكل مشلول، هكذا نراها نحن ويراها كل شخص سليم، لكن لطالما رأتها تلك الفتاة - بل وكل شخص شاركها هذا الحرمان - نقمة لا نعمة، هي عدو متطفل التصق بأعضائهم دون إذن مسبق، دخيل جارت به الأيام عليهم... اجتمعت الآلام بين عكازة سحيقة وأذن متفتحة لانتقادات وسخريات...

حروب داخلية بدأها القدر وانتهت عند البشر... أو ربما لم تنته بعد، لأننا في كل يوم نستمع إليها... هل نلوم طفلا غدر به عقله الصغير فراح يطارد مجنونا أو يقلد مشية معاق؟ أم نصفع أمّا علمت ابنها الكلام ولكنها لم تعلمه أي كلمة يقول... علمته

المشي ونسيت أن تمر به على آلام غيره وتوقفه عندها أولا... ليعرف كيف يمشي وأين يمضي؟... أجل، أن توضح له نقائصه كي لا يتتبع نقائص غيره، ويعرف بأنه لا أحد كامل وإن اكتملت فيك صفة فإنها نقصت في موضع آخر... فتش عن عيوبك وستستوي عندك الطبخة، وتزيد قناعتك ويزيد إيمانك، أحست دنيا حينها بعلاقة رنا السيئة مع العكازة فخلصتها منها، على الأقل حين تكون قريبة منها وتحولت ذراعها اليسرى لمسند ترتكز عليه رنا، بعدما كانت قد وظفت اليمنى لفقع أعين كل من ينظر إلى صديقتها بنظرات الإشفاق أو الاستهزاء، وأمام البوابة غرقت في سؤال ذلك السراب بحزن متعب.

- ليتك معي يا رنا ...ليتك تتركين العناد جانبا وتتجاوزي غلطتي... سئمت الحديث مع طيفك وأنت تختفين في مكان ما ...

فُتحت بوابة الذكريات أول مرة على دنيا مع تلك الفتاة المسماة (رنا مقران)، كانت ترتكز على ذراعها وهما تمشيان ببطء.

- **آسفة يا دنيا... في كل مرة أضعك في مواقف محرجة أمام الأستاذة سليمة بسبب إعاقتي.**

نظرت دنيا وردت عليها في حزم.

- **توقفي عن هذا الكلام... تعلمين جيدا أن الأستاذة سليمة لن تزعجني بكلامها وعقابها الدائم... لأنك والشلة كل ما يهمني... لومك لنفسك أكثر ما يقهرني...**

ابتسمت مازحة وأكملت.

- **ثم إن التأخر طبع لصيق بي ولست السبب فيه.. صدقيني يا رنوش.**

في تلك الأثناء مشت رنا في صمت يحسب أن رفيقتها أخفت المشاعر الحقيقية عنها، لتعود الذكريات بدنيا جاثمة أمام الأستاذة سليمة في شرود منها وذهول من صديقتيها بعد أن عادتا بسرعة لأخذها قبل غضب الأستاذة من ناحية ولقطع أفكارها التي عرفتا محورها المؤلم من ناحية أخرى، وقبل وصولهما أكملت دنيا كلماتها الدفينة والدمعة بدأت تتكاثر في الجفنين مجددا.

- الآن ستدركين حقا أن التأخر كان من عاداتي يا رنوش، ولم تكوني سببا فيها.

في هذه اللحظة أمسكتها رهف فيما كادت الأستاذة تكسر العصا التي بين يديها بسبب تجاهل دنيا لها، وهنا وصلت أمل وسحبت ذراعها الآخر معلنة نهاية ذلك اللوم الفظيع.

ركضت الشابات بسرعة إلى غرفة تبديل الملابس، كان بقلب كل منهن همّ تتوه فيه كما يتوه الأعمى لو وضعته وسط طريق لم يعتد تضاريسه واختلاف مفترقاته، فبطلات هذه الرواية شابات لاقاهن القدر لتكنّ أخوات لا صديقات، فهل ستتجاوزن تحدياته وامتحاناته؟

أما عن الأستاذة فهي سليمة بن مولود، مراقبة في ثانوية هواري بومدين، صارمة وعبوسة معظم الأوقات والجميع في

الثانوية يخاف من فاجعة غضبها، تحب تطبيق النظام ولكنها تكره الفتيات اللواتي يمتزن بجرأة في الحديث؛ لأنها ترى فيهنّ المعنى الأمثل للتسيب، أو التطرف الحنون... لا تستغربوا ولكن الحنان الذي بقلب هذه السيدة خفي تحت وشاح نسج بخيوط العدل المبالغ فيه ولوّن بالصراخ ليصنع امرأة أخطأت في اختيار المكان الذي تقف فيه، فمالت الكفة حيث سقطت تصرفات دنيا ضمن دائرة العصيان المعتدل فكانت من اللاتي يلاقين عقوبات في كل مرة.

في قلب الملعب بدأ التلاميذ تمارينهم وبينما هم كذلك إذ انتشرت أعين غامضة في أكثر من إتجاه، استهدفت كل عين شخصا معينا، وبين تلك الحركات نصل إلى بناء مستقل وقفت رهف عند بابه متثائبة، فيما شرعت دنيا تطرقه دون فاصل زمني منادية أمل التي كانت ترتدي بدلتها الرياضية في الغرفة.

- تتحدثين عن تأخري وها نحن ننتظرك ريثما تنتهين من تغيير ملابسك.

أضافت رهف متأففة.

- أما نحن فنلبس بدلاتنا في البيت... ماذا كان سيحدث لو أنك تجهزت في البيت مثلنا؟

من خلفهما ظهر خيال رجل فالتفتتا إليه وإذ به شاب قوي البنية، واقف باعتدال مرتديا بدلته الرياضية، لم يكن مجرد شاب عابر في المكان ولا مجرد رجل أرسلته الأقدار ليشاطرهن جزءا مهما من حياتهن، فعلى الرغم من أنه في أول الأمر كابر كثيرا

وتهرب خوفا من مصيره المجهول فإنه وجد نفسه وسط آلامهن، ذلك الشاب هو أستاذ الرياضة المشرف على أقسام الباكالوريا في ذات الثانوية – منير غزالي- الذي ابتسم وسألهما.

- متأخرات كالعادة... أين هي ثالثتكما ؟

كانت شخصية منير غامضة جدا ولا يفهم بياضها من سوادها، من جهة ملامحه الجادة التي تفرض على الجميع احترامه، ومن جهة أخرى صوته الهادئ الذي يقرب كل من يقابله منه أكثر، فيبوحون له بأسرارهم حينا ويشكونه غدر الأيام في حين آخر، لكن بمجرد أن يمعن المحيطون به النظر إلى عينيه حتى يفضلون إبقاء مسافة الأمان بينهم وبين هذا الرجل.

أجل... عينان حاقدتان تلفهما رموش الشقاء وقد انكسرت أطرافها داخل الجفن فحافظت على رطوبة الصُلبة وأغرقتها بالدموع، لتفيض أحيانا ويراها الجميع فيما يجابهها غالبا كي لا تتجاوز الحدود وتكشف نجواه، هو لا يدرك أن بقاء تلك الدموع داخل المحيط سيشوّش عليه رؤية المشاعر الصادقة والبراءة التي يخالها وهمًا بينما هي تنبثق من الأعماق، ومن جانب آخر ستخفي تلك الدموع الجاثمة بمكانها منذ سنوات طيبته المسجونة خلف نظرات حاقدة تتطاير هنا وهناك.

كانت رهف ممن لا يرى في الأستاذ منير إلا ملامحه الصارمة وهذا ما جعلها تتأخر وترتبك في ردها على سؤاله، أما دنيا والتي لمست فيه الجانب الحنون والصوت الهادئ، وسكبتهما في

وعاء الاحترام والتقدير فكان سهلا عليها التواصل معه، لذا ردت بذات الابتسامة.

- مرحبا يا أستاذ إن كنت تقصد أمل فهي تجهز نفسها... لحظات ونكون في الملعب.
- وأنتما تنتظرانها هنا؟
- نعم فأمل تخاف الأماكن المغلقة، لذا سنحادثها من هنا ريثما تنتهي... طبعا إن سمحت لنا.

أحست رهف في تلك اللحظة أن دنيا أطالت الحديث أكثر من اللازم لذا قرصتها من ذراعها فأبدت الأخرى ألمها في مشهد مضحك رسم الضحكة على محيّا الأستاذ، خصوصا أن الأحداث الأخيرة زرعت الألم على وجه هذه الصداقة ليفقدها شيئا من عبيرها وحيويتها، لكنهن استطعن بإخلاصهن تحديها والخروج منها – أو على الأقل التظاهر بذلك -

بين دروب تاريخ القصبة العريق تتصاعد أصوات شجار ملأت الحي، فكان كل من يعبره يرمي ببصره إلى أبواب منزل مستفسرين عن سبب هذا الصخب العارم، ليتعالى صوت رجل خشن مهددا.

- أغلقي فمك يا امرأة... فهذا خير لكِ.

ردت امرأة بصوت بحّ من البكاء والبث.

- لن أسكت أيها الخائن... في كل مرة تتلاعب ببنات في عمر ابنتِك ثم تعود لتشاجرني... خسئت يا حميد.

- لو لم تكن بنتيْنا في حياتنا لما كنتِ قد زدْتِ يوما واحدا في هذا المنزل يا وجه الشؤم.

كانت كلمات حميد الأخيرة محط سخرية بعثت في امرأته وهي السيدة سامية ضحكة استهزاء تعالت رغم ألمها وأردفت.

- كأن بنتيك كل همك ومحل اهتمامك... أنسيت أن أهلي من يرسل إلينا تكاليف الملابس وثمن ما نصرفه؟ أما عنك فماذا تفعل بكل أموالك؟... هاه... قل... قل بأنك تجمعها وتبذرها فيما حرم الله من خمر دون اكتراث بنا.

رد السيدة سامية جعل زوجها يسترجع أفكاره لذا فضل الخروج بعدما ضرب الباب بقوة، لم يتحكم في أعصابه عندما انتبه إلى المارة يسترقون السمع ويستهدفون منزله بأنظارهم، فصرخ فيهم بكل الشتائم كأنه قد هرب من تلك السموم التي نعتته بها زوجته ففقد السيطرة على كلماته وتصرفاته، لكن مع الأسف تلك هي طبيعته الفظة التي عرف بها، في تلك الأثناء كانت السيدة سامية تبكي وتندب حظها... لكن سرعان ما مسحت دمعها عندما رأت خيال ابنتها الصغيرة ينظر إليها بحزن خلف الباب فنادتها باسمة متجاهلة أن أمينة صاحبة التسع سنوات كانت تشهد الشجار من أوله حتى آخره، وقد اعتادت رغم صغر سنها مثل تلك المشاجرات بل وأكثر.

ومع هذه المناوشة ظهرت عائلة أمل سراي.

في مكان ليس ببعيد وهو منزل بطلتنا دنيا بن زيان البسيط في تصاميمه وتصرفات أهله، تحمل امرأة صورة دنيا مع

صديقاتها الثلاثة رنا، أمل ورهف عندما كنّ في السادسة من العمر، وقربهما كعكة عيد ميلاد وخاطبت روحها في حزن غريب.

- مع كل سنة يزداد خوفي أكثر من قبل... لكن هذه المرة تضاعفت هذه الأحاسيس الشيطانية... ذكرى مجيئك إلى هذا العالم التي من المفترض أن تسعدني يا قرة عيني أضحت تبعث في الفؤاد إحساسا مغايرا لم أستطع وصفه رغم أنه يتكرر في ذات اليوم من كل عام.

دخل رجل الغرفة مستوقفا أفكارها بنداءه فتظاهرت بمسح الغبار مخفية الصورة.

- يا امرأة... أين هي دنيا، ألمْ تصل بعد؟
- لا لم تصل بعد، جميلتي سهرت البارحة تدرس، أظن أنها ستمتحن اليوم يا سي أحمد.
- إذا عندما تصل أخبريها كي تتصل بي، أريد التحدث معها في أمر مهم يا فاطمة.

ردت فاطمة بارتياع مقتربة من زوجها.

- خيرا إن شاء الله... أحدث شيء ما؟
- ليست هنالك أي مشكلة ..... أحتاجها كي تختار معي بعضا من الأثاث... سأشتريها غدا من أجل غرفتها بإذن الله... لكن لا تفصحي لها عن الأمر... لأنها هدية عيد ميلادها.

ابتسم سي أحمد وأكمل.

- ستسعدها هذه المفاجأة كثيرا... ثم استهدي بالله يا امرأة ما سبب خوفك الزائد عليها.
- بصراحة بعدما كبرت، زاد خوفي من فقدها أكثر من قبل... فالمسكينة تلقت ما يفوق قدرة صبرها... وبالكاد استطعنا إخراجها من حزنها.

تململ سي أحمد لحظة وقال.

- كم مرة يجب أن أكرر لك نفس الكلام... لا تقلقي... لن يحدث شيء... ولا تفتحي موضوع أحاسيسك المهمومة في وجهي كلما اقترب عيد ميلاد الفتاة.

مع سماع صوت فتح الباب ارتبك الزوجان بصورة مريبة ليتنهد كل منهما بارتياح، بعد تمييز صوت فتاة باح بكلمات متثاقلة ثم اقتربت تداعب عينها في تثاؤب.

- أبي أريد القدوم معكما... لو سمحت.
- لا يا أسماء اِذهبي وأكملي دراستكِ... يمكنك مساعدة أمكِ في التحضير لعيد ميلاد أختك... وهكذا ستساهمين في رسم البسمة على فيها قريبا.
- ولكن لا أملك مالا كافيا لشراء هدية... فهلاّ أعطيتني المال؟

دسّ سي أحمد يده بجيبه وسحب مبلغا من المال مازحا.

- خذي... ولكن انتظري هيثم لتذهبي بصحبته... كما يمكنك البقاء عنده هذه الليلة.

- وكأنني لا... أعرف الطريق... سأفكر... في موضوع البقاء... هناك.

بعثت شقاوة أسماء وهي تنظر إلى المال بين يديها باسمةً الضحكة على وجه سي أحمد، أما فاطمة فقد ابتسمت في حالة من الإعجاب الممزوج بالحزن الدفين.

هذه هي عائلة دنيا بن زيان، شخصيات تحمل في طياتها العديد من المفاجآت، فمن سيستهدفها؟ آمال ستتحطم وأحلام ستغدو كوابيس وتهجم على الجميع في اليقظة قبل النوم، عائلة ضحت بالثمين ستغد وضحية القدر المشؤوم.

في أحضان شوارع القصبة تسير الفتيات بعد يوم دراسي شاق، لقد أرهقتهن التمارين الرياضية كثيرا، فتنهدت دنيا شكاية إلى زميلتيها.

- لقد تعبتُ اليوم كثيرا... أعتقد أن الرياضة كانت عقابا لنا.

وقفت أمل حاملة حقيبتها تفرك رأسها بطرف إبهامها.

- لو اقتادتنا الأستاذة سليمة... لكان أهون علينا.

وهنا صرخت الصديقتان بينما انفجرت أمل ضحكا، فوضعت دنيا يدها على جبينها ووجهت نظرات فزع إلى أمل.

- لاااا... الرياضة أحسن وأرحم بكثير... على الأقل نشاهد وجها بشوشا كوجه الأستاذ منير.

- أجل يا دنيا يكفينا ما تلقيناه إلى اليوم من تلك التي لا ترحم.

أنزلت أمل رأسها تفكر فشعرت فجأة بدوار غريب ارتعشت بعده وقفتها، لذا أمسكت ذراع رهف خشية السقوط لتسألها الأخيرة بقلق.

- ما الذي يحدث؟ هل أنت بخير؟

سارعت دنيا تسحب قارورة ماء من حقيبتها وجعلت تقدمها إلى أمل بتوتر، بعدما جعلتها تقعد على عتبة أحد المنازل.

- اِنتبهي إلى نفسك يا أمل... واشربي قليلا من الماء.
- ما كل هذا الخوف يا دنيا؟ أنا بخير... أنظري... أنا على أحسن ما يرام... يبدو أن الرياضة آتعبتنا اليوم، كان من المفترض أن ندرس على العاشرة بعد تغيب أستاذة الفلسفة لو لم يعوض الأستاذ منير الفراغ بحصة الرياضة... ليكمل دوامه الصباحي مبكرا.. ولكن على حسابنا.

بينما هنّ يتبادلن الحديث إذ مرت شابتان رمت إحداهما نظرة احتقار إلى دنيا وهمست بصوت مسموع.

- انتهت من الأولى وها قد بدأت بالثانية يا سمر ...

لما سمعت دنيا تلك المعاني التهبت نظراتها حقدا بصورة جنونية، انتبهت إلى الشماتة البادية في ضحكة الفتاة فابتلعت ريقها متذكرة فوضى عارمة في أروقة الثانوية وخطوات الأستاذ منير السريعة تقترب وهو يكرر.

- **ما الذي فعلته يا بن زيان؟... أبعدوها من هنا.**

دون سابق إنذار رمت دنيا الفتاة بقارورة الماء أمام توتر صديقتيها، أخذت تجول بناظريها في الجوار باحثة عن شيء آخر ترميها به، وإذ بها تحمل حجرا بحجم الكفّ وقد امتلأت عيناها دمعا، صرخت أمل وأمسكت ذراعها بسرعة.

- ما الذي تفعلينه؟... اتركي الحجر... أتركيه.
- هذه الحقيرة لا تتعلم دروسها... دعيني أحطم رأسها...

توقفت تلك الفتاة وتكلمت بارتياح لما غدت رهف بينهما.

- بهدوء على أعصابك يا بن زيان... أسفي على حقد زرعته في قلبك... خذيها يا رهف فمزاجي ليس جيدا اليوم.
- ابتعدي من هنا يا نور... أقسم أنني من سيقطع لسانك هذه المرة... انقلعي في طريقك.

بينما هنّ كذلك، كان شخص يراقبهن بحذر من داخل سيارة بيضاء، أما دنيا فقد باغتتهن وألقت الحجر على الفتاة دون اكتراث لأحد لو لم تتمكن رفيقتها من سحبها في آخر لحظة، ثم صرخت فيها.

- أيها العقرب البشري... تعرفين جنوني جيدا... ستكون نهايتك على يدي طالما أنت مصرة على الوقوف أمامي... ابتعدي عن طريقي وإلا أحرقت روحك...

حملت دنيا حقيبتها من الأرض واتجهت مع رهف وأمل إلى مفترق طرق آخر، وعندما مررن إلى جانب السيارة أخفى من كان داخلها نفسه، بقي يلاحقهن بأنظاره من خلال المرآة إلى أن اختفين خلف جدار شارع فرعي وهو يضغط بكفه على المقود،

قرر بعدها بثواني تشغيل المحرك واللحاق بهن، في الطريق لم تنطق رهف وأمل بأي كلمة بينما كانت دنيا تصارع ذكريات مؤلمة هجمت عليها دفعة واحدة...

أطبقت دنيا على قلبها علـّه ينسى ...
زوته في ركن مظلم دون بصيص هدى...
منعت عليه سماع أي نوع من أنواع البشرى...
ربما
هو الذي كان من الفرحة يخشى...
أحسّ أن مالِكته
لم تعد تلك الأنثى الأقوى...
في السابق كانت تأمره
أن يحنّ لأي شكوى...
أن يرفّ وينزف
لأي دمعة أمامه تتهاوى...
لا تبحث عن السبب
والصدق في ما ترى...
واليوم ...
حاصرته في زاوية
لم يسطع منها الرجعى...
جعلته بذلك الوهم
يتلهى... وهمٌ أسمته رنا...
وهم عن تركها حرة يأبى...

بل عن حاضرها ومستقبلها لا يتنحى ...
فمتى ستنير درب قلبها؟...
أو ربما هو من يجب أن يسعى...
ليختار اسما ينتشلها من تلك الظلمة...
بل من ركام الفوضى ...
اسم
سيكون الأعرف بروح عن الجميع تتخفى...
روح بن زيان دنيا.

عندما انتبهت بطلتنا إلى الأحزان المتجلية على وجهي صديقتيها توقفت محاولة تصفية صوتها، ثم تمالكت نفسها، أما هما فنظرتا مستغربتين بعدما سمعتا صوت طرطقة أصابعها مازحة.

- أظن أنني عندما أعود إلى المنزل لن أستيقظ من النوم... من الجيد أننا لن ندرس الفترة الصباحية غدا.

شدت أمل على فمها في استنفار.

- وأنا كالعادة سأعود وأحبس نفسي في غرفتي علـّني أستطيع التركيز في دراستي بدلا من صراخه أو بكاء أمي.

توقفت رهف وقابلتها في ابتسامة لتخفف عنها.

- لا عليك يا أمل... أما أنا فسأعود لأساعد الخالة قبل بدء الدراسة.

سخرت دنيا منها وقالت.

- أنت الوحيدة التي تفرح لهكذا أشغال.

شردت رهف ببصرها لحظة ثم ردت.

- لا أدري... لكنني أحب الأعمال المنزلية، كما أن العجاب يوجه إليكما... ابقيا هكذا... فلربما تتعلمان شيئا من النوم والجلوس... وكذلك الكسل...

لما وصلت أمل إلى منزلها وجدت والدها واقفا أمام الباب فتنهدت لتقول.

- اللهم استر... لا بد له من الوقوف في وجه كل شيء جميل.

وضعت دنيا يدها على كتف أمل وهي تنظر إلى حميد، بينما اكتفت أمل بالنظر إلى صديقتيها وهما تحاولان التخفيف عنها بالدور.

- دعك منه وحاولي التركيز في دراستك.
- أعتقد أن دنيا محقة يا أمل... اعتني بنفسك فأنت الأهم.

أكملت دنيا الطريق لتسترسل رهف في كلماتها همسا.

- ... نعم لا تنسي إكمال ما اتفقنا عليه... فهذا مهمّ أيضا يا أمل.

قالت رهف تلك الكلمات لتذكر أمل بالتجهيز لعيد ميلاد دنيا الذي بقيت ساعات قليلة على حلوله، فكرتا في مفاجأتها بحفلة لم يعرفا مصيرها بعد، أما أمل فدخلت منزلها منادية والدتها حيث كانت جالسة في ركن المطبخ تبكي، وسرعان ما مسحت دمعها وتظاهرت بكنس الأرضية لكن مع أول رد منها على نداء

ابنتها اكتشفت الأخيرة أن خطبا ما حل بها فردت ببرودة مزجت بالغضب الدفين.

- ماذا هناك؟ أتشاجرتما ثانية؟ ألم أوصيك بتجاهل كل ما يقوله... أبعده الله عنا في أقرب وقت... علّنا نرتاح... على كلٍّ لديّ دراسة سأذهب إلى غرفتي.

دخلت الأخت الصغيرة أمينة تحمل مشطا ومجموعة دبابيس وأربطة شعر ملونة ودنت من أمل التي كانت في مزاج سيء طالبة منها تسريح شعرها لكن أمل تجاهلتها رافضة، فغضبت أمينة وصرخت ردا على أختها التي تحججت بانشغالاتها كما في كل مرة.

- وما الذي ستفعلينه غير البقاء وحدك؟
- وما دخلك؟ ...لم يتبق متحكم في تصرفاتي غيرك.

بسبب كثرة المشكلات لم تكن أمل كثيرة الحديث في المنزل، كأنها شخص آخر غير التي كانت مع دنيا ورهف، وغالبا ما كانت تشرد، أمل فتاة اعتادت الوحدة رغم جهود أمها لتسحبها من دوامة الانفراد بنفسها في أغلب ساعات اليوم، لم تكن ممن يظهرون مشاعرهم... فهي تفضل أن يتجنبها الجميع كي لا تستأنسهم ويزل لسانها بهمومها، أو يضطرها القدر لفراقهم في يوم من الأيام، وبعد صمت طال قررت الاتصال برهف.

- مرحبا، أخبريني... أين وصلت في عملك؟
- لا تقلقي فأنا أغلف هديتي ...ماذا عنك ؟

- لم أبدأ بعد... أرجو منك تذكير بقية الزميلات ليحضّرن أنفسهن يا رهف.
- أجل... وأنت بدورك اتصلي بدنيا لترتبي معها مسألة القدوم... احذري أن يزل لسانك وتخبريها بالحفلة.
- لست بمجنونة...لأفعل ذلك... إلى اللقاء.

انهزّ بدن رهف بسبب صوت نداها، فأخفت الهدية وخرجت من غرفتها، بعد وفاة والدتها تزوج والدها بأخت زوجته أملا في رعاية ابنته الوحيدة، فالخالة كالأم الحنون لكن الخالة رؤيا وادي كانت استثناءً من تلك القاعدة، الواقع الذي تعيشه الفتاة جعلها أحيانا تلعن في صميمها من أطلق مثل هذه التشبيهات المزيفة التي كانت تسمعها من كل معارفها، ورغم كل ذلك أبت أن تخبر صديقتيْها بما تقاسيه، فما سر هذا الصمت؟ أو من الذي يجبرها على التظاهر بأن واضع تلك المعاني كان بليغ زمانه.

في منزل دنيا المليء بالحب والإحترام، رغم هندسته القديمة وصغر مساحته إلا أنه منزل عمّر بضجيجها وأسماء، أم حذرة تمسح دموعهما قبل ملامستها الخدود، أب يبذل جهده لتحقيق أحلام عائلته، أخ غيور على العائلة عصبي المزاج ولكنه ذو عقل رصين، كانت دنيا تشاطرهم كل همومهم وتتفهم كل التحولات والظروف التي تطرأ على أفراد عائلتها، وخير الختام كانت الشقية أسماء التي تصارع تلعثما طال لسانها لتعيش كأي طفل في هذه الحياة دون عوائق، قد يعتقد البعض منكم أن عائلة بن زيان هي

العائلة المثالية التي لا تتخللها هموم ولا يزل لها لسان، لكن الأحداث ستكشف لنا أن العيش دون هموم في عصرنا مجرد أوهام أو تعريفات نظرية لم تتجاوز الحدود الورقية، وبينما دنيا ماضية إلى الخارج باحثة عن أسماء علها تلعب بالجوار، إذ انتبهت بأن باب الغرفة المجاورة مغلق كغير العادة، فسألت عن السبب لذا ردت الأم.

- نسيت أين وضعت المفتاح يا ابنتي ...هل تحتاجين شيئا مهما؟
- لا... لكنني لا أرى أسماء أيضا.
- نعم لقد ذهبت لزيارة هيثم... وأعتقد أنها ستمكث الليلة هناك.

حينها رن الهاتف الثابت فركضت دنيا معتقدة أن المتصلة هي أسماء التي لم تتعود النوم دون سماع صوتها، لكن توقع الأم كان الأصح فقد كان المتصل زوجها سي أحمد وقد خمن هو الآخر أن فاطمة كثيرة النسيان وبخاصة عند اقتراب عيد ميلاد ابنتها، فما الذي حدث في ذات التاريخ؟ أما دنيا فحملت الهاتف وردت مرحبة بأبيها الذي سأل مباشرة وقد كان يركن سيارته وينظر إلى ضوء دكان صغير يقع قبالة بيته ملوحا لشيخ جالس على كرسي يحتسي الشاي بهدوء مخيف.

- أهلا يا دنيا... ألن تدرسي صبيحة الغد... كما هي العادة؟
- نعم لن أدرس... لكن ما الأمر؟ أتحتاج شيئا محددا؟

- جيد... إذا جهزي نفسك غدا على الساعة الثامنة... لأنك ستذهبين معي للتسوق.

مطت دنيا شفتيها متذمرة وقالت.

- حسنا... هل ستتأخر الليلة؟
- نعم... سأسهر مع سمير في دكانه... لذا لا داعي للقلق ولا تنتظراني على العشاء.
- إذا... بلغه سلامي.

أغلقت حينها الصغيرة الهاتف وأطلت من زجاج النافذة فرأت والدها متوجها إلى ذلك الشيخ، وماهي ثواني حتى دخلا إلى الدكان، أسدلت ستار النافذة ولحقت بأمها، قعدت مكانها تفكر في أسماء و قد غابت ضحكتها، ولما انتبهت الأم إلى شرودها خاطبتها.

- دنيا... أتفكرين في أسماء؟
- نعم... كأنها بعيدة عني منذ سنة أو أكثر... ففي ضخم هذه المشكلات لم أعد أهتم بها كما كنت سابقا.
- لا بد أنها تفكر فيك أيضا... ثم يا عزيزتي دعي عنك تلك الأيام... ألم تعديني بفتح صفحة جديدة؟

أنزلت دنيا رأسها محمرة الوجه تحرك الملعقة بين السبابة والوسطى لبرهة من زمن، وهنا رن هاتفها النقال فحملته بشوق علّها تكون أسماء هذه المرة، أو ربما كانت تنتظر ما تتهرب به عن إجابة أمها، لكنها قرأت اسم أمل على الهاتف، فسألت عن سبب الاتصال دون مقدمات، بينما ردت أمل مازحة.

- لقد اشتقت إليك كثيرا وأردت أن أسمع صوتك...
- منذ ساعات قليلة كنت أمام وجهك المشرق، ما الأمر؟

في هذه الأثناء اتصلت أسماء فوجدت الخط مشغولا لذا تذمرت واستعدت لتكرر المحاولة من جديد، أما أمل فأجابت على تساؤل صديقتها مبتسمة.

- غدا إن شاء الله سنلتقي لنراجع مع بقية الصديقات، هلّا قدمت على الساعة العاشرة.
- ما مشكلتكم؟ عندما قررت أن أتأخر في النوم أتتني مواعيد الاستيقاظ مهرْولة تتسابق باتجاهي.
- ماذا؟ أوَصلك طلب قبل طلبي؟ مِن من؟
- نعم، من أمير أحلامي... أكيد من الوالد ...هو يريدني غدا من أجل التسوق ولا أستطيع القدوم في الموعد.
- ليست مشكلتي... يجب أن تجدي حلّا فالفرض سيكون بعد أول الأسبوع القادم... ولن نجد فرصة أخرى للتدرب على كتابة المقالات الفلسفية.

بترت أمل الإتصال متظاهرة بالغضب، فيما أرسلت إليها دنيا رسالة تخبرها فيها بأنها ستبذل جهدها من أجل الحضور في الموعد، وعندما قررت الاتصال بأختها رن هاتفها برقم غير مسجل، لم تقبله إلا بعد محاولات عديدة ظنا منها أنها أسماء أو أمل مازحة، لكن المتصل لم يرد... إذ لم تظهر من ملامحه سوى عينيه وقد امتلأتا دموعا تطرح العديد من الأسئلة، تهاطلت على خديه بمجرد سماع صوتها، لتصرخ غاضبة عندما طال صمته.

- من معي؟... كفى مزاحا ولا تتصلوا مرة ثانية بهذا الرقم... أمّا إذا كان لديكم وقت فراغ فجدوا رقما آخر تلتهون به.

أنهت دنيا الإتصال في غضب واتصلت بأسماء، بيد أن ذلك الشخص أعاد الاتصال بإصرار، ولما طال انشغال الخط رمى الهاتف بقوة على الجدار فانفصلت أجزاءه، ثم أسقط قطرات من دمعه على أوراق تكرر رسمه لرمز النجمة عليها، أخذ يضغط على أصابعه بحنق ليطفئ النور معلنا نهاية الفصل الأول.

زهرات تلاصقت أحلامها، تناغمت كلماتها، ازدانت بتلاتها، ونمت فوق أرض اخضرت ساحاتها... لتعلن بداءة هذه القصة المتداخلة... قصة تاريخها مجهول... لكن حاضرها معلوم... فأيّ حاضر؟ وأيّ مستقبل؟ وأيّ مركبة سيركبون؟

لكل منهن حياتها ولكن القدر يرفض الفصل بينهن؛ لأن هذه الزهرات أعلنت أن الصداقة لا زالت موجودة بين قلوب كثيرين ولكن مهمة المحافظة عليها هي التي تفشل في كل مرة... فكثيرا ما نسمع عن أصدقاء افترقوا بسبب كذبة... وآخرون من أجل إحساس شيطاني ينم وليغرس سمومه في تلك القلوب البريئة تحت ما يسمى بالغيرة... وأحيانا نطلق عليه الحسد... أو حب المصلحة... ويتفنن البشر في تلقيب هذه المشاعر رغم أنها لا تنتج إلا أثرا واحدا وهو الفراق القاتل، فإذا مات صديقي ودعته بقلب محب يدرك أن السر في الاستمرار هي ذكرياته الجميلة التي تحْييني مع كل ثانية وتذكر قلبي بنمط النبض كلما تاه عن

الإيقاع، أما الفراق الذي تسببه تلك الأحاسيس فيمزق قلوبنا وسلَّمه الموسيقي عندما نحاول تذكر هذا الصديق الذي لا زال يشاطرنا هذه الحياة... لماذا؟ ما السبيل للفراق؟ ما الشعور الذي سيهاجم الشخص بعده؟ هل سيثق بالغير؟ هل سينسى ويتجاوزه ويصبر على البعد؟... هل ستكون بالنسبة إليه مجرد علاقة انتهت... فيمضي باحثا عن غيرها؟

لماذا لا تصير الأمور في منأى آخر شبيه بتلك المصطلحات؟ نريد صبرا؟ فلماذا لا نصبر على أخطاء بعضنا بدلا من الصبر على الفراق؟ نريد نسيانا؟ لماذا لا ننسى الأحقاد والغيرة المشتعلة لنعوضها بحب وصدق أخوة لا يفنى ولو كانت الزلات بحجم الجبال؟ بل نريد تجديدا في حياتنا؟ كيف سيكون التجديد بتغيير الأشخاص وباستطاعتنا تغيير الظروف والدوس بأقدامنا على كل من يريد النيل من ذلك الشخص الذي يحمل تاج صديق؟ ونضع اليد باليد فنتجاوز أحلك الطرق وأوعرها.

دنيا بن زيان، أمل سرّاي، رهف عمران ورنا مقران هن فتيات حاربن من أجل صداقتهن... فأين رنا ولم يظهر منها إلا الطيف؟ ما حكاية الحزن الدفين الذي يتملك قلوبهن عند ذكرها أو تذكرها؟ لقد مرّت بهن عوائق كثيرة وستمرّ، فأي مصير ينتظرهن؟

من تكون هذه الشخصية الغريبة؟ بل ما سبب هذه الدموع؟ قد تكون هذه البداءة مطمئنة نوعا ما مع بروز تلك البسمات

الهادئة... لكن طيف الفتاة التي تدعى رنا قد سكن كل ما تقع عليه عينا دنيا، فأين ذهبت؟ وهل لها عودة قريبة؟

الفصل الثاني: شمعة عيد الميلاد تنطفئ

قرأت أمل رسالة دنيا ونظرت إلى هديتها المغلفة مبتسمة الملامح ثم خاطبت نفسها.

- عرفت أنك ستأتين... غدا ستبدأ فرحتك من جديد بإذن الله... سأعوضك عن كل آلامك... فلا أحد ينفي أنني سبب بعد رنا عنك وعن شلتنا... لأنك لو لم تختاريني يومها... لكانت...

مسحت دمعة وحيدة نزلت قاطعة كلماتها وشردت حين سمعت صوت فتاة تكرر صارخة.

- لقد حرضت دنيا عليّ أيتها الأنانية... لماذا تصرين على ...؟

سدت أمل أذنيها ووقفت في تعجل هربا من ذلك الصوت الصارخ، غير أنها شعرت بذات الدوار يهجم عليها، فاتكأت على الجدار إلى أن استعادت تركيزها ثم انصرفت إلى حيث كانت والدتها تقعد، محاولة بذلك تناسي تلك الكلمات.

مع طلوع نور صباح شتاء جديد على بيوت العاصمة البهية خرجت دنيا وهي تلبس معطفها في عجلة متوجهة إلى السيارة، نظر سي أحمد باستغراب بعدما توقع تأخرها كما هي العادة،

ليجدها جاهزة قبل الموعد بنصف ساعة، ولما طلبت منه الاستعجال سأل مستغربا.

- لماذا أنت مستعجلة هكذا؟ ...لحظة يا فتاة.
- لدي مراجعة مع أمل ورهف، لذا عليَّ أن أصل في الموعد.

من زاوية أخرى كانت رهف ترتب الوسائد على الأريكة في غرفة المعيشة، بينما وقفت السيدة رؤيا متكئة على الباب، تتبع حركات الفتاة في ريبة، رمت الأخيرة نظرها إلى العتبة التي كانت تقف عندها زوجة والدها متذكرة طفلة صغيرة تمسك يد امرأة لم تستجب إلى نداءاتٍ باكية، قطعت الخالة تفكيرها وقد أمرتها بالتوجه إلى المطبخ لغسل أواني الفطور، فزعت رهف خوفا من التأخر على موعد الحفلة فخاطبتها.

- لكني سأتأخر يا خالة.
- لا دخل لي... تعلمين أنني أتعب عندما تذهبين للدراسة والتسكع في الشوارع دون نتيجة تذكر.

نبرة رؤيا المصممة على طلبها بعثت فيها اليأس، هي تعرف بأن المزيد من المحاولات سيزيد معها الإلحاح أكثر، لذا سارعت بمباشرة عملها في المطبخ دون الخوض في محاولاتها الخائبة.

في منزل أمل كانت صديقتنا تغلق أزرار معطفها نازلة من الدرج وبيدها كيسا يحتوي هدية دنيا، بينما وقفت أمينة تطل

عليها، لتتوقف أمل حين رأت حميد يجفف يديه بالمنشفة وينظر بغيظ مختنق، وقبل أن تبتعد متجاهلة أنظاره خاطبها.

- خيرا يا فتاة... إلى أين؟ على حد علمي لا يوجد عندك حصص دراسية صبيحة هذا اليوم.
- عندي مراجعة برفقة الفتيات وقد اتفقنا على اللقاء في الثانوية.

وضع حميد المنشفة جانبا واقترب منها قائلا.

- حقا !..... وأنا ماذا أفعل هنا؟ تعدين وتخرجين متى شئت؟ ومع مَن؟... تلك المجرمة وصديقتها...
- لكـن...

بتر حميد كلام أمل آمرا.

- عودي إلى مطرحك... ستذهبين في الوقت الذي اعتدت الذهاب فيه كل خميس... صحيح أنني قبلت مرافقتك لهما بعد الذي فعلت بنفسك... ولكن ليس إلى الدرجة التي تتوقعينها.

ارتعبت أمل ودنت منه متوسلة.

- لقد وعدتهما... أرجوك ...اليوم فقط.
- يكفي تحدثا عن هذا الموضوع ...ستذهبين في الفترة المسائية من أجل دروس الدعم... أعتقد أنك لو راجعت دروسك في غرفتك لكان أحسن لك من التسكع مع تلك المسماة دنْيـا.

وقوف حميد في وجه ابنته أفقدها تركيزها، لذا استدارت عائدة في حالة من الغضب والهيجان وبينما هي تصعد الدرج مسرعة إذ علق الكيس الذي به هدية دنيا في طرف السور الحديدي فتمزق، لما التفتت أمل ومدت يديها محاولة إمساك الهدية خيم الضباب على مجال رؤيتها فانهارت متدحرجة من درجات السلم والهدية بين أحضانها، لحظتها صرخت أمينة باسمها ففزعت الأم راكضة نحو مصدر الصوت لتجد ابنتها فاقدة للوعي، في السوق كانت دنيا تتجول مع والدها مستعجلة حين أحست برهبة فالتفتت بسرعة تبحث في كل مكان أمام استغراب سي أحمد الذي لم يعر تلك السيارة البيضاء اهتمامه، في حين سقطت الكأس من يد رهف فانكسرت ليتملّكها خوف غريب، ولما سمعت خطوات قدم خالتها تقترب انحنت تجمع الأجزاء فجرحت يدها عندما صرخت فيها فجأة.

- ألا يمكنك العمل بحذر؟... كل هذا الاستعجال من أجل الخروج... تعلمين أن هذه الكأس هي المفضلة عندي... لا بد أنك فعلتها متعمدة...

ردت رهف باضطراب.

- ماذا؟ لم أفعل ذلك متعمدة... اليوم يصادف عيد ميلاد دنيا ويجب أن أذهب...
- عودي لعملك ..... تذكرت... لا تخبري عمر ...

خطوات أقدام ثابتة اقتربت لتحكي معها صورة رجل تهابه الأنظار، يحسب له ألف حساب، مشيته تغني عن صوته، تشعر سامعها بإلزامية احترامه، ارتبكت رؤيا حين أطل سائلا.

- رؤيا ما هذه الأصوات؟ وما الذي يجب على رهف أن لا تخبرني به ؟

ارتعشت رؤيا لتقول متلعثمة الأحرف.

- لا شيء يا عمر سوى أن الكأس انكسرت وجرح كفها... فنبهتها بعدم إخبارك... كي لا تقلق.

ابتعدت لينتبه السيد عمر للدم يسيل من يد رهف، كانت تبكي كاتمة صوتها، فاقترب منها مضطربا وأمسك يدها في حنان مقبلا رأسها.

- يبدو أنها تؤلمك... يجب أن نوقف النزيف أولا...

ثم خاطب رؤيا بعدما ساعد ابنته لتقعد.

- أحضري حقيبة الاسعافات الأولية... أسرعي.

التهى عمر ينظف الجرح، في حين خاطبت رهف وحدتها محاولة الاحتماء به للمرة الأولى، لم تكن تريد تفويت هذه المناسبة التي تخطط من خلالها مع أمل لإعادة ضحكة دنيا.

- عليّ أن أتشجع اليوم... وأحضر عيد ميلاد دنيا... إذا أخبرته سيوافق... وبعدها ليحدث ما يحدث... فقد

عهدت تلك المعاملة... وليس لي أهمّ من حضور هذه المناسبة.

- ابنتي لماذا تبكين؟ أتؤلمك كل هذا الحدّ... ربما يحتاج الجرح إلى خياطة... دعينا نذهب إلى المستشفى...

نظرت رهف إلى رؤيا تضع حقيبة الإسعافات الأولية فوق الطاولة بحنق جلي، ثم سحبت نفسا عميقا كأنها تستعد من خلال تلك الشهقة لأكبر مواجهة بينها وبين الخالة، كيف لا؟ وقد كانت تعاقب دونما سبب، فماذا ستفعل وهي تستعد اليوم لمخالفة أوامرها، لكن رغم تلك الأحاسيس المخيفة التي تملكتها حول نوع العقاب الذي ستناله خاطبت والدها.

- أنا بخير يا أبي... لكن اليوم يصادف عيد ميلاد دنيا... وسنقيم لها حفلة في الثانوية... هلا انتظرتني وأوصلتني في طريقك... لقد تأخرت.

ابتسم عمر ورد مازحا.

- وهل اشتريت هدية من أجلها؟

ابتسمت رهف بدورها واحتضنته أمام استغرابه القائم.

- نعم فعلت... أرجو أن لا يحرمني الله من وجودك... أحبك يا أبي.

ضربت رؤيا كفها بالجدار خفية وأخذت تراقب عمر يساعد ابنته على لبس حذائها وارتداء معطفها ثم حمل عنها الهدية وانطلقا معا، بينما أطلت رؤيا من نافذة غرفة المعيشة وهي تتوعد رهف بالعقاب الحتمي.

أما عن الشخصيات التي مرت علينا الآن فهي عائلة الخجولة رهف عمران.

في سيارة حميد ركبت سامية من الخلف باذلة كل جهودها من أجل إيقاظ أمل، لم تجف دموع الأم طول الطريق، مع كل دقيقة تمر وابنتها غائبة عن الوعي يزداد خوفها بأن تتكرر مصيبة ظهرت خلف خيال جهنمي، بينما سامية وحميد يقصفان بعضهما بالتهم والتهديدات، كانت أمينة تمسك الهدية دامعة، فتحت أمل عينيها ببطء وقد سال الدم على وجهها الجميل، وبعدما لمحت هديتها عند أختها خاطبت أمها بألم.

- أمي... عيد ميلاد دنيا اليوم... خذي الهدية... وقدّميها... إليها... لا يجب أن تتأخري أكثر... أخبريها أن تسامحني.

عادت أمل إلى غيبوبتها والدمعة جفت على خدها فاختلطت ببعض الدم ليأخذ مسار الدموع التي ترك جفافها تشققات سارعت أمينة بمسحها مستخدمة طرف كمها.

في ثانوية هواري بومدين، اتجهت دنيا إلى القسم بسرعة وقد تجاوزت عقارب الساعة الموعد المتفق عليه، ظنت أن المراقبة سليمة حالت دون انتظار صديقتيها لها عند البوابة فأكملت طريقها،عندما وصلت إلى القسم فتحت الباب ليهزها صوت مفاجئ تكرر صداه في المكان بصوت واحد مرددا.

- عيد ميلاد سعيد يا دنيا.

تبعت تلك التهاني تصفيقات جميع الصديقات، كان هناك مشهد جميل من البالونات الملونة المعلقة، شموع عيد ميلاد مشتعلة، كعك وصحون السكاكر تزين زوايا الطاولة، ابتسمت دنيا في استحياء ونظرت إلى مكان شاغر قرب النافذة مبتلعة ريقها بصعوبة، كانت تنتظر صوتا آخر مع أصواتهن، صوتا اشتاقت إليه كثيرا، بينما أخذ القلق يستولي على قسمات رهف بعدما اتصلت بأمل ولم ترد عليها، وعندما بحثت دنيا بين الوجوه لم تجد أمل فدنت من صديقتها مستفسرة.

- رهف... أين أمل؟
- لا أدري لم تصل إلى الآن وهذا أمر غريب... لأنها لن تتجرأ على التخلف عن عيد ميلادك وكانت الفكرة فكرتها، أراهن أن والدها هو السبب... تعرفين طبعه.

تنهدت دنيا منزعجة، لتستدير على إثر تصفيق خفيف آت من الخلف... تلاه صوت حاد استفز هدوءها.

- عيد ميلاد سعيد يا دنيا.

لقد كانت صادرة من نفس الفتاة التي تشاجرت معها والمسماة نور، تتبّعت دنيا ترنحاتها حتى قعدت متعمدة في المكان الفارغ الذي تأملته صديقتنا عند دخولها، فأغمضت الأخيرة عينيها متمالكة غضبها الجامح وهي تقول آمرة...

- قفي من عندك... قلت لك قفي أيتها الحقيرة.

تدخلت رهف فأمسكت جسد دنيا مخاطبة نور بغضب.

- لا أدري من دعاك لكنك ضيف غير مرغوب به... أخرجي وكفاك تعجرفا يا عديمة الأخلاق...

تنهدت نور وأطبقت قدما على قدم ببرودة قائلة.

- عيب عليك قول هذا يا رهف... كيف لي أن أفوت عيد ميلاد دنيا... أنسيت أنني كنت واحدة من المجموعة لولا تدخل بعض الأنفس الحاقدة ...؟

فجأة، دفعت دنيا رهف بقوة وانطلقت كالمجنونة إلى نور ممسكة شالا لُفّ حول رقبتها محمرة العينين صارخة.

- أخرجي قبل أن أجعل من هذه الحفلة عزاءً تنوح فيه النساء فوق جثتك... انقلعي إلى الخارج.

الحقيقة أن غضب دنيا لم يؤثر في نبرة عدوتها وهي ترد.

- أنت الخاسرة... يبدو لي أن حقدك لن يتبخر... والآن أفلتيني أيتها المتوحشة.

رمت دنيا بنور عند الباب بعنف فخرجت بمجرد انفلاتها، بينما حملت الهاتف لتتصل بأمل بعدما ربتت على قبضة رهف معتذرة عن دفعها قبل لحظات، وبعد محاولات فُتح الخط، مكابرة الأم وجهودها لتمالك أعصابها خوفا من ردة فعل دنيا التي واجهت صدمة شبيهة من الماضي باءت بالفشل، لأن صديقتنا شعرت بنبرة غير طبيعية غالبت صوت سامية فخاطبتها بقلق وارتياب.

- خيرا ما الأمر يا خالة؟

وبعد تردد ردت السيدة سامية بخفوة انمحى عند آخر الكلمات.

- بصراحة يا ابنتي... لقد فقدت أمل وعيها واضطررنا لأخذها إلى المستشفى لكن لا تقلقي لا شيء يدعو للخوف... هذا ما أكده الأطباء.

نعم، لم تتمكن الأم من إخبارها بأن أمل سقطت من أعلى الدرج، وأن الإصابة قد استهدفت رأسها، بينما أسقطت دنيا الهاتف من يدها والدموع تنهمر من عينيها دون حراك، انطلقت في حالة من الانهيار راكضة لتلتقط رهف ذلك الهاتف وتلحق بها محاولة معرفة ما حدث، في تلك الأثناء كانت نور ترتب لفة شالها داخل أحد الأقسام عندما مرت الصديقتان عليها، بقيت تتبعهما بعينيها حتى نزلتا الدرج الذي لم تمر عليه الصديقات منذ أشهر، سرعة دنيا وهرولتها لم تمنعها من تذكر صورة فتاة ما مبرجة بالدماء أسفل ذات الدرج، ثم تلتها صرخة موجوعة تأرجح صداها داخل تلك المؤسسة بل داخل قلبها ثانية.

عندما أرجعت رهف الباب بسرعة انطفأت الشموع التي كانت فوق الكعكة، لحظات بعدها ظهر خيال نور مجددا ولم يرسم على ملامحها علامة تعجب أو تساؤل كما رسمت على الوجوه الحاضرة، بل تجلى مزيج بين الفتاة الحاقدة والغادرة، وبهدوء اتجهت إلى كعكة عيد الميلاد وحملت السكين لتقسم قطعة صغيرة قذفتها داخل فمها، وفجأة تذكرت صورتها وهي جالسة على ركبتيها مخفية جرحا عميقا تحت كفيها والدم يسيل منه

لتصرخ بعدما استيقظت وقد تأجج داخلها غضب جعلها تحول كعكة عيد الميلاد إلى قطع متفتتة، ثم ابتسمت مثيرة خوف الفتيات، ومسحت آثار الكعك المنتشر على يديها بكل برودة وقالت.

- والآن سنرى **من ستكون هدفك يا نور؟**

في المستشفى تتابع ركض دنيا ورهف في الرواق إلى الغرفة التي دلتهما عليها موظفة الاستقبال، وهنا لمحتا عائلة أمل فتوجهتا إليها بسرعة، أمسكت رهف دنيا محاولة تهدئة فزعها الجنوني، وخاطبتها دون أن تنزل عينيها عن دموع السيدة سامية.

- إهدئي يا دنيا... أظن أنه لا شيء يدعو لكل هذا القلق، أليس كذلك يا خالة؟
- لا زالت تخضع للفحص... الطبيب أكد لنا أنها ستكون بخير لأنها لم تسقط من مكان مرتفع ...

وضعت دنيا يدها على فمها في فزع مخاطبة نفسها بكُرْه والدموع تنهمر.

- يكفيني ما خسرته حتى الآن ...يا إلـهي ..... لن أتحمل المزيد.

حضنتها رهف كأنها أصغت إلى تلك الحروف المتألمة تصرخ مستنجدة وهي تسأل.

- ماذا تقصدين بسقطت؟

اقتربت سامية منهما واضعة يدها على كتف دنيا وردت.

- اسمعيني جيدا يا ابنتي... بصراحة زلت قدم أمل عندما كانت تصعد الدرج، لكن الأمر بكل تأكيد ليس خطرا.. كوني قوية من أجل صديقتك ...اتفقنا.

- لكن ...

شطرت الأم كلامها دامعة ووضعت الهدية بين يديها ثم قالت.

- خذي هذه يا دنيا... لقد استيقظت أمل قبيْل وصولنا إلى المستشفى بقليل... وطلبت مني أن أعطيك هديتك اليوم... طلبت ذلك بإلحاح لم يستدع تكرار الطلب...

بكت دنيا وأمسكت الهدية ثم مشت بخطوات متثاقلة وقعدت على أحد مقاعد المستشفى، لما فتحتها وجدت مزهرية على شكل ثلاثة طيور وزّ متلاصقة، نقشت أمل على كل طائر الحرف الأول من أسمائهن **D/A/R** باللغة الفرنسية، تلك الهدية جعلتها تبتسم مكرهة فأردفت رهف.

- هذه الطيور هي نحن يا دنيا.

لم تقل دنيا أي كلمة وهي تراقب رسالة مطوية داخل الغلاف، لذا خاطبتها رهف.

- سأتركك تقرئينها... أمينة تبكي ويجب أن أطمئنها.

فجأة أمسكت يد رهف مشيرة إليها برأسها أن اقعدي ، ثم أعطتها الرسالة لتقرأها بصوت مسموع أمام امتعاظ حميد وقد فضل الانسحاب إلى زاوية بعيدة كي لا يسمع ما اعتبره ترهات لا أساس لها من الصحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

- أريد أن أقول لك يا دنيا أنك ورهف أغلى إنسانتين في حياتي الآن... وكم أتمنى أن تبقى صداقتنا للأبد... لكن الحياة مفاجآت... وما أرجوه أن لا يكون فراقنا إحداها... لا أريد تذكيرك بالماضي في هذه المناسبة السعيدة، لكن رنا ستبقى عنوان وفائنا... ومن المستحيل أن تكون من الماضي... أو أن يلف الزمان وجع فراقها ...كل عام وأنت بألف خير وعقبال مئة سنة... أتمنى أن تعجبك هديتي وحاولي أن لا تكسريها يوما ما... كي نبقى معا على الدوام أيتها الغالية أختك التي تحبك ـــ أمل سرّاي.

في منزل دنيا لما كان سي أحمد يركّب أجزاء السرير الذي اشتراه دخل هيثم الأخ الأكبر لدنيا مع أسماء، وعندما رأى والده يعمل ركض ليساعده في حمل لوح خشبي مقبلا رأسه ثم خاطبه.

- دعني أساعدك... لماذا لم تتصل بي؟
- لا بأس يا هيثم ليس بالمتعب... ولكنه من أجل دنيا.
- هل هذا السرير هدية عيد ميلادها؟
- ليس هذا فحسب فقد اشتريت جميع المتطلبات من أجل غرفتها الخاصة لترتاح فيها.

نظر هيثم وخاطب فاطمة بصوت مسموع.

- ألم تتسرعا قليلا؟

تجاهلت فاطمة كلامه وعادت تنزع معطف أسماء، ليرد هيثم بنبرة مستفزة.

- لكن المنزل صغير... هاتف خاص وغرفة خاصة امنحها كل المنزل وسينتهي همك...

نظر سي أحمد بغضب إلى هيثم وتمالك نفسه سائلا.

- ماذا تقصد يا ولد؟
- أقصد أنك تدللها فوق اللازم وقد تتمرد عليك... وعندها لن تجد سبيلا لإعادتها للطريق الصحيحة.

في هذه اللحظة ابتسم سي أحمد ورمى السرير بقوة كادت أن تكسره فارتعب توازن هيثم بينما اقتربت فاطمة ورفعت أسماء بصرها إليهما.

- لا دخل لك يا ولد... وأنا أعرف الناس بمعدن دنيا وصفاء أخلاقها.

استقام هيثم وقال حين أحس بالإهانة.

- وكأنك تطردني من المنزل ...؟

وقف سي أحمد ثم حمل طرف السرير ثانية وجعل يقول.

- افهمها كما شئت يا هيثم ...

خرج هيثم من الغرفة بعد أن ضرب أصابعه في كف يده الأخرى غيظا، فأمسكته فاطمة مهدئة.

- لا تملأ رأسك بكلماته يا بني... ثم أخبرني... هل سحبت ثقتك من الفتاة التي تربت على يديك؟

- كلا... ما إلى هذا قصدت يا أماه... ولكنه أصبح يمنع عليّ تقديم أي ملاحظات لدنيا... كأنها حقا لـ...

رن هاتف سي أحمد موقفا حديث هيثم، وماهي لحظات حتى رد مرتعبا.

- ماذا؟... ما الذي تفعلينه في مستشفى؟

أدارت فاطمة عنقها، بينما رفع هيثم رأسه في حيرة، أما دنيا فأكملت موضحة بأن أمل هي التي أصيبت، كان سي أحمد يعرف تعلق ابنته بصديقتيها فزاد توتره، لذا أوقف عمله وانطلق إلى معطفه لتتجه إليه فاطمة على عجل.

- خيرا يا رجل ما قصة المستشفى؟!
- صديقتها أمل مريضة وستحكي لك بقية التفاصيل فيما بعد... صوتها كان متعبا، سأذهب لأحضرها وأنت لا تنسي إغلاق باب الغرفة يا امرأة.
- انتظر... سآتي معك.

وقف هيثم ممسكا ذراع والدته متذكرا يدا تدفع دنيا على الأرض أمام منزل أمل، وكلمها بلطف.

- لا يا أمي... لا داعي لمجيئك... أسماء ستصر أيضا... سأذهب معه بنفسي...

انطلق هيثم إلى السيارة طالبا من والده تولي القيادة، ولما تجاهل سي أحمد طلبه، توجه إلى الكرسي الجانبي بصمت، بينما كان العم سمير يراقب من دكانته كل تلك الاضطرابات.

تعود بنا الأحداث حيث كانت دنيا ورهف تحدثان السيدة سامية، وقف حميد عند الزاوية يحدجهما بنظرات كره غريب، وعندما مرّتا قريبا منه لانتظار سي أحمد عند بوابة المستشفى، قال بصوت خافت متأففا.

- كل ما يحصل بسببك... نذير شؤم.

كان كلامه موجها إلى دنيا... ولما توقفت عن المسير عنده عرفت سامية أن زوجها قد ثرثر بشيء سخيف كعادته فاقتربت منهم حين سألته دنيا ببرود واضح.

- ما الذي تقصده بكلامك؟

وقفت سامية بينهما محاولة تجنب الشجار.

- لا شيء يا ابنتي دعك منه... فهو يتعمد إيذاءك بكلامه.
- لماذا تخفين الأمر؟ دعيها تعرف أنها السبب في سقوط أمل.

مع رد حميد تذكرت دنيا أصواتا تكررت (دنيا هي السبب)... (دنيا هي السبب) فارتعشت أوصالها بينما صرخت سامية أملا في إسكات زوجها.

- حميد ...يكفي... هل جننت؟

أبعدت دنيا الأم ووقفت وجها لوجه أمام حميد ثم قالت.

- دعيه يتكلم يا خالة.
- أمل سقطت من الدرج بسببك... أرادت إمساك هدية عيد ميلادك... فعندما لم أسمح لها بالذهاب غضبت ولم تنتبه أمامها ثم حدث ما حدث... لطالما نبهتها ولم تستمع إلي وها قد نالت ما تستحق... لِتلحق بتلك الفتاة التي أنهيتِ حياتها...

نظرت رهف إلى دنيا التي تسمرت مكانها دون ردّ... فحاولت الصديقة بدورها إيقاف حميد.

- أغلق فمك يا هذا... من أين لك بكل هذه القسوة ...؟

حينها أمسكت أمينة يد دنيا لتوقظها من حلمها أو لنقل لتقذفها دون قصد إلى الكابوس الذي غرقت في ظلمته منذ أشهر، ثم سألتها بخوف.

- دنيا... هل ستشفى أمل؟ أم أنها ستموت مثل رنا؟

زاد انهيارها لما تأملت نظرات أمينة الدامعة، فانحنت ممسكة يديها وقد جمدهما نسيم الشتاء القاسي، ثم مسحت دمعتها وردت بحنان.

- رنا لم تمت يا أمينة... تعلمين أن أمل قوية وهذه مجرد إصابة خفيفة كما أخبرنا الطبيب وستشفى... اتفقنا؟

فارقت رنا صديقاتها تاركة خلفها جرحا عميقا يزيد تعفنا كلما هاجمتهن ذكرياتها، ظنت رهف وسامية أن دنيا تحاول بكلماتها التحايل على الطفلة أمينة وهما لا تعلمان حجم الوهم التي كانت غارقة داخله، بعدها وقفت المسكينة ووجهت نظرات حزينة ممزوجة بحدة في الكلام إلى رهف.

- هو على حق يا رهف... كلنا نعرف أن أمل عندما تغضب لا تنتبه إلى تصرفاتها...

ثم أشارت بسبابتها إلى حميد مسترسلة في الكلام.

- ... ونحن نعرف أنها لا تبالي لك كأب ولا لكلماتك التي تنقعها بالسم قبل تلفظها، لكنها بسبب حرصها على إسعادي أعطتك وجها لم تكن تستحقه...

نظر حميد بغضب وقد استفزته كلماتها، بينما وضعت رهف يدها على كتف صديقتها بخوف، لم تتزحزح دنيا من مكانها، وفجأة رن هاتفها ليقطع تلك المشاحنة المنتظرة، فالتهت توجه والدها إلى الغرفة بعدما أصر على القدوم لمواساة عائلة أمل، وبينما هي كذلك رن هاتف رهف فارتبكت عندما رأت رقم خالتها لذا ابتعدت خشية سماعها فتفضح معاناتها أمام دنيا وتكلمت بصوت منخفض، وما هما كلمتان حتى انفجرت خالتها صراخا.

- تقولين أهلا أيتها البلهاء؟ ما الذي تفعلينه حتى هذه الساعة في الخارج؟

قاطعت دنيا صديقتها لتقول بطيبة.

- إن كان العم عمر هو المتصل... فلا داعي لإتعابه يا رهف... سأوصلك في طريقي.
- ستوصلني دنيا في طريقها لا تتعبي أبي بالمجيء يا خالتي... إلى اللقاء.

قالت رهف تلك الكلمات ثم سارعت تغلق هاتفها، وهذا ما زاد غضب رؤيا فبدأت تصرخ كالمجنونة، أما في رواق المستشفى، و فجأة شعرت دنيا بإحساس انقبض له صدرها فالتفتت خلفها بسرعة لتسألها رهف.

- ما بك يا دنيا ؟
- لا شيء... شعرت أن هناك من يختلس النظر إلينا... خلف تلك الزاوية... سأنظر وأعود.

دنت دنيا من الزاوية التي أشارت إليها بحذر، وعندها خرج سي أحمد وهيثم من نفس المكان الذي كانت بصدد تفقده، فتوقفت بينما ظهر خيال شاب خلفهما وقد غلبت قسماته ضحكة ساخرة عندما حضن سي أحمد ابنته فيما وضع هيثم يده على رأسها مداعبا، أما رهف فابتسمت ووضعت يدها على رأس دنيا مازحة.

- يبدو أنها أعين العم أحمد وهيثم.

ابتسمت دنيا غير أنها لم تطمئن في قرارة نفسها من ذلك الشعور الغريب، فيما ذهب سي أحمد للتكلم مع حميد بصفته

والد أمل، لكن الأخير تجاهل يده التي مدها لمصافحته، وإذ بهيثم يخاطب أخته ملقيا نظرات احتقار إلى حميد.

- هيا بنا يا دنيا ستعودين غدا، وأنت يا أبي تفضل معنا إذ يبدو أنه غير مرغوب بنا هنا.

شعرت سامية بالخجل، وقد أدركت أن هيثم يقصد زوجها بكلامه لذا حاولت تهدئة نظراته الحاقدة.

- سامحك الله يا بني... فحضوركم يزيدنا قوة... أليس كذلك يا دنيا؟
- أعلم ذلك جيدا يا خالة... لكن الوقت تأخر... وسنعود غدا بحول الله.

في هذه اللحظة خرج الطبيب فتوقفت دنيا لتسمع ما قد يخبرهم به عن وضع أمل، التف الجميع حوله ليقول مصارحا قلقهم.

- لا داعي للقلق فالإصابة مضت على خير... لكنها تحتاج لعملية في أقرب فرصة.

أجابت دنيا الطبيب فزعة.

- عملية!؟
- لا أدري بماذا أخبركم؟ لكن تبين لنا من خلال الفحص الأولي أن هناك ورم على مستوى الرأس... ويجب أن يستأصل في أقرب وقت.

سأله سي أحمد متناسيا بسرعة تصرف حميد اللامبالي معه.

- وإلى أي مدى قد تكون العملية خطيرة عليها؟
- مع الأسف لا نستطيع معرفة هذا بالضبط... ولكنها بوجه عام تعدّ خطيرة... وتحتاج الكثير من التركيز... أي خطأ قد تفقد لأجله سراي القدرة على الرؤية... لأن موقع الورم في منطقة قريبة جدا من منطقة الرؤية في الدماغ... وربما كانت العملية ستكون أسهل لو أننا اكتشفناه في أول بروزه... ألم تنتبهوا لها ؟ فهذا الورم يصحبه كثير من الصداع والدوار.
- يا إلهي... كيف حدث هذا؟

كانت تلك صرخة من الأم سامية، ثم سقطت باكية فحضنتها أمينة ورهف، أما دنيا فدون شعور منها أسقطت المزهرية أرضا لتنفصل الوزة التي نقش عليها الحرف **D** عن الوزتين اللتين بهما حرفيْ **A/R**، لقد وهنت حواسها واكتسى وجهها لونا باهتا لتفقد وعيها ويركض هيثم وسي أحمد في خوف فيما صرخت رهف باسمها، أراد الشاب الغامض التوجه إليهم لكنه تراجع في آخر لحظة، ضمّ أصابعه بغضب ثم ضرب الجدار بقوة ليترك دمه أثرا عليه.

انتهى هذا الفصل بدم هذا الشخص بعدما انتهى الأول بدمعته، ما مصير بقية الفصول فهل سيكشف عن نفسه في القادم أم أنه بحاجة إلى وقت أطول؟

خُطِطَ للحفلة وزيّنت القاعة وعدت العدة من أجل السعادة، من أجل رسم البسمة على وجه دنيا بعدما أصبحت باردة المشاعر، كأنها تنتظر فسحة من أجل الصراخ والبكاء، من أجل النواح والكذب، قد يحتار البعض من كلمة الكذب، لكن... نعم، هذا ما شعر به كل معارفها... ضحكتها غدت كذبة واضحة وكلامها المتذبذب يبعث الألم في قلوبهم، كيف لا؟ وقد عُرفت ببشاشتها وضحكتها الدائمة، لطالما انزْعَج كثيرون من تنوّع مقالبها المستمرة وتهورها، من مزاحها الذي لا يتوقف، لن يكون لكلمة تخطيط مكان في الساحة إذا ما تدخل القدر، إذ بحركة واحدة وفي غفلة تبعثرت الحروف وضاع المخطط، عادت الدّمعة بغزارة، بل انطفأت شمعة عيد الميلاد معلنة ألما جديدا سيتمنى الجميع من خلاله،

لو أنه ينتهي على خير ما يرام...

لو أنه يتزحزح ذلك الكم من الركام...

ليعيد جمال تلك الأيام ...

وتخرج القلوب التي تحت ثقله سالمة ...

وتترنح بعدها بشاشة الأوجه الباسمة ...

لو أن هذا الألم يكون الخاتمة...

لو أنه تتحقق هذه الأماني الحالمة...

الفصل الثالث: بين الغموض والألم، أين المفرّ؟

في إحدى غرف المستشفى وقف هيثم وسي أحمد قرب دنيا يحاولان إيقاظها بعدما اضطرت الطبيبة لإعطائها مهدئا، قعدا ونظرات القلق تنتقل بينهما دون توقف، لما فتحت الشابة عينيها اتجهت نظراتهما إليها وإذ بها تردد في خفوة اسم رنا، اسم جعل هيثم يقترب ممسكا يدها وقد انتبه إليها تائهة بين عالم الأحلام واليقظة، تماما حيث تلك النقطة السوداء التي لا يريد أحد منهما أن تكون دنيا واقفة عندها.

خلال هذه الثواني كان خيال ذات الشاب ينظر إليهم من النافذة التي تطل على الممر في خفية، كان الغضب جليّا على وجهه، بينما مسح هيثم دموعها المنهمرة في تتابع وخاطبها بهدوء.

- اهدئي يا عزيزتي... فلم يحدث شيء... أفيقي يا ...

انقطع حديث هيثم بتحطم زجاج النافذة التي كان الشاب واقفا عندها، وقد رميت قصاصة ورق صغيرة اتسخ طرفها بالدماء عند سرير دنيا، فزع سي أحمد مع ابنه إلى الخارج وقد أحكمت يدها على صدرها تنظر إلى الورقة المطوية بفضولها المعتاد، بعد تردد التقطتها لتقرأ بريبة ما كتب عليها، أما سي أحمد وهيثم فلم يجدا سوى قطرات دم تـُلطِخ أسفل النافذة

والزجاج المنكسر متناثر حولها، وبينما هما يبحثان مع الممرضين عن الفاعل ابتعد الشاب ممسكا جرح يده متذكرا لحظة تحطيم الزجاج بقبضته وظلال الغضب تسيطر على ملامحه، أو ربما هو إحساس آخر ينتظر جرأة أكبر من تحطيم ذلك الزجاج... أكبر من قطرات الدم التي سالت من يده، خطوة أكثر شجاعة من رميه تلك الورقة، سحب الشاب ألمه واختبأ خلف أشجار الحديقة حيث استقرت عيناه عند النافذة المطلة على الشارع، ظن الجميع أن ما حدث كان من أحد المتسكعين، فعاد سي أحمد وهيثم لطمأنة دنيا التي ردت عليهما محتارة.

- **A .** و **N .** "بينهما شكل نجمة"...

نظر سي أحمد إلى هيثم مستغربا وهو يقول.

- ما الذي تقولينه يا ابنتي؟...
- هذا ما كتب على الورقة يا أبي؟ شكل نجمة يتوسط حرفيْ **A** و**N** بالفرنسية.

بمجرد أن وضحت ما قالته حتى تجمدت نظرات سي أحمد والتمعت عينه بنور خاطف مخيف كأن أنفاسه توقفت فيما اقترب هيثم ليقرأ الورقة مجددا، وفي كل مرة يقرأها كان يحول نظره إلى والده ثم إلى دنيا التي لم تفهم شيئا بعد، ولما طال صمتهما سألتهما مرتابة.

- ما الذي يعنيه هذا يا أبي؟ أخبرني يا هيثم... هل تعني لكما هذه الرموز شيئا ما؟

لم يقل حينها سي أحمد أي كلمة فيما تجاهل هيثم الموضوع، ورد باسما بعدما رمى الورقة بعيدا.

- لا... وما الذي يمكن أن تعنيه يا حلوتي؟ لا بد أن هذا المتسكع قد شرب شيئا ما قبل أن يرمي بهذه الدعابة المقرفة إلى هنا.

في محاولة لتغيير الموضوع أخبرها باستيقاظ أمل فقررت الذهاب لزيارتها، كان مرورها على سي أحمد وصوت خطواتها تبتعد عنه كالقذيفة التي استهدفت قلبه، وفجأة خاطب هيثم بحدة وهو ينظر إلى الورقة التي استقرت عند ركن الغرفة مرتعبا.

- هيثم لا تتركها وحدها... سأنتظركما هنا.

كانت كل جهود دنيا منصبة على التحكم في دموعها متذكرة كلمات الطبيب حين أخبرهم بمرض أمل، لم تملك الوقت للتفكير في تلك الورقة، اعتادت صديقتنا شنّ حرب ضد الحزن الممزوج بالذنب بغية إعدام الأثر العميق المرسوم خلف جرح لصيق رفض تركها؟ ربما هي من يتشبث به بقوة لتعاقب فؤادها على إثم اعتقدت أنها اقترفته، فتسبب في رحيل رنا، فهل حقا هي من كانت وراء ذلك البعد؟ لم يظهر جسدها حتى فوجئت بأمل عند باب غرفتها تقول باسمة.

- لقد قدمتِ للاطمئنان عليّ، ولكنني جئت لأسبقك وأطمئن عليك، سجليها نقطة لمصلحتي هذه المرة.

ضحكت رهف مشيرة بعينيها من الخلف، أن أمل لا تعرف علّتها، ففهمتها دنيا وتجاهلت الموضوع تماما، لتردف أمل متأسفة.

- ليست هناك مشكلة... كل عام وأنتِ بألف خير، كنت أتمنى الحضور... لكن المهم أنني لن أفترق عنكما... وها قد استطعت أن أقولها اليوم قبل منتصف الليل.

زيّن وجه أمل ابتسامة صادقة، فحضنتهما دنيا مع دمعة خفية تكاد تفضحها، لحظتها انعكس بريق الفتاة رنا أمام عينيها، غير أنه سرعان ما تلاشى لتعود إلى واقعها المرّ، فسحبت أنفاسها الخانقة ثم خاطبت أمل بحنان.

- لقد خفنا عليك كثيرا ...لا تكرريها... أم أنك تنوين مخالفة وعدك؟
- لا تقلقي فأنا بخير لكن يبدو أن الطبيب يبالغ قليلا... لم أفهم لماذا أبقاني هنا أسبوعا إضافيا؟

نظرت دنيا إلى رهف محتارة أيّ كلمة تختار وقد هجمت عليها كل الأفكار دفعة واحدة، لقد كانت حاملة المشعل عند الخروج من كل المشكلات بردودها المفاجئة، لكنها لم تعلم لماذا تلعثمت حينها؟ لطالما لجأت لردود بعثت في قلوبهنّ الضحكات وبخاصة عند الإفلات من عقوبات المراقبة سليمة، بعد تلك النظرة التي وجهتها إلى رهف تصرفت الأخيرة بأسرع مما اعتادت.

- لقد أخبرتك أنك مصابة بفقر دم شبه حاد، هذه السنة تتطلَّب منك كل النشاط، أنسيت أننا مقبلات على الباكالوريا؟

جمعت دنيا قواها عند كلمات لا تكاد تسمع.

- نعم يا أمل... رهف محقة... ولا تقلقي... سنتكفل بمساعدتك على إكمال دروسك...
- تتحدثين كأن هذه الدروس عشقي الأول، الوحيدة التي سأحنّ إليها في تلك الثانوية هي الأستاذة سليمة.

وسرعان ما بُترت ضحكتهنّ لما قدم عامل النظافة لجمع قطع الزجاج المتناثرة، فسألت رهف متأملة الحطام بريبة.

- صحيح... ما الذي حدث هنا قبل وصولنا؟

استغل سي أحمد انشغالهن والتقط تلك الورقة ودسها في جيبه بسرعة ليرد في حزم.

- أحد المتسكعين كسر الزجاج وهرب... هذا كل ما في الأمر والآن لنذهب لأن صديقتكما تحتاج الراحة... غدا يمكنكما زيارتها مجددا.

ما قاله سي أحمد جعل دنيا تعود بأنظارها إلى الدماء التي تركها الفاعل تحت النافذة وتتفحص بإمعان غريب ما علق منه على أصبعها عندما فتحت الورقة المطوية، وعندما لاحظت أمل تصرفاتها سألتها.

- ما الأمر يا دنيا؟ آاااه... يبدو أنك جرحت ...
- لا هي ليست دمائي لقد علقت في يدي عندما ...

ساور القلق قلب سي أحمد واختلجت عيناه فبتر كلامهما ثانية ووضع يده على كتف ابنته مخاطبا أمل بلطف.

- لقد تأخر الوقت يا ابنتي... شفاك الله... اعتني بنفسك وتصبحين على خير.
- شكرا لك يا عم أحمد... تصبحون على خير.

نظرت الصديقات باسمات، قسمات صادقة اختلجتها أصوات أنين وحزن مكنون حاصرته سيوف قلق مختلفة، تدفقت مشاعرهن ألما متواصلا وأطلقت زفيرا ملتهبا، لكن لم تُسمع تلك الأصوات عندما رسمت الإبتسامة ولحنت بدلا عن الحزن أصواتهنّ الضاحكة، حتى أمل لم تسلم من الألم الصامت، كأنها تعلم حكاية الورم الذي برأسها.

بعدما تجاوزت دنيا ومن معها بوابة المستشفى باتجاه سيارة سي أحمد كان ذات الشاب يراقبها من داخل سيارته، ولما رن هاتفه تكلم بلهجة مشرقية بعد لحظات صمت.

- بدنا شوية وقت... لإنو لسا ما قدرتش افتح الموضوع معاهم، بس ما رح خلي إشي يوقف قدامي، ولو اضطريت أحرق كل العالم... بوعدك آغا.

أنهى الشاب الإتصال ليتضاعف تصميمه لبلوغ هدفه، فما هو هذا الهدف؟ مجهول يستهدف دنيا وربما عائلة بن زيان

بأمتها، هل ستتحمل الصغيرة ما هو قادم؟ وكيف سيكون لقاءها الأول بهذا الشخص الذي عرفنا من خلال لهجته أنه ليس جزائريا؟ ثم شغل محرك سيارته لينطلق مخاطبا نفسه.

- الظاهر إني تسرعت... كان لازم إتحكم بأعصابي أكتر... رح يشكّـو.

بعد صمت وتفكير خيما على من كان في سيارة سي أحمد، انتبهت دنيا للضمادة التي تلف كفّ رهف فأمسكتها وسألت مرتبكة، لكن رهف فزعت وسحبت يدها بسرعة، ثم التفتت إلى النافذة متهربة من النظر في عيني صديقتها لتقول.

- لا شيء... لقد جرحت عندما كنت أغسل الآنية صباحا، إنه جرح بسيط فلا تقلقي.
- متى تكفين عن هذه الأعمال؟ اهتمي بدراستك حاليا وسيبقى لنا وقت لنتعلم كل هذه الأمور.
- حسنا... أيتها الكسول.

ابتسمت رهف بزيف ونظرت من نافذة السيارة بحزن ثم خاطبت نفسها متحسرة.

- كأن القيام بهذه الأعمال همّي الأول يا صديقتي.

بينما هي منغمسة في مسامرة نفسها بمقت قاطعتها دنيا لتخبرها بأنها وصلت إلى البيت، نظرت المسكينة بحرقة ثم استسلمت إلى مصيرها وقبّلت صديقتها لتنزل شاكرة سي أحمد

وهيثم، لو كانت هناك فرصة واحدة -- واحدة فقط -- تمكنها من النوم في الشارع لفعلت ذلك، لأنها تعلم ما ينتظرها من مشاق وطريقة الاستقبال التي ستحظى بها، ابتعدت سيارة سي أحمد فالتفتت إلى باب منزلها، وبمجرد أن فتحته وجدت رؤيا واقفة في استقبالها صارخة.

- وأخيرا وصلت يا ابنة الشوارع، دعيني أعْلمك بأن عمر ليس هنا لتستندي عليه كما فعلت هذا الصباح.

هجمت رؤيا على رهف ضربا، رغم قسوة تلك اللفحات الحارقة التي كانت تمطر على جسدها من كل مكان، لم تقاوم الصغيرة ولم يُسمع صوتها... فقط الدموع... لا شيء آخر تجرأت على فعله، فهل كثرة الآلام التي تلقتها جعلتها تستسلم؟ أم أن هناك سببا أقوى جعلها ترضخ وتحشر عزتها عند الزاوية.

بنَت رهف لنفسها جدرانا قاسية من الصمت ...

رغم أن الآلام التي داخلها صرخت فيها حتى بحّت ...

صراخ كتمته بأسقف من الكذب الميت ...

ربما لم تجد مَن لوجعها ينصت ...

كلا ...

يوجد أب يدمع قلبه إن عينها دمعت...

يوجد من يرى أنها أكثر من أخت ...

فلماذا الصمت؟

ربما هي بحاجة إلى مزيد من الوقت ...

بلى ...

جعلت المسكينة ...

مما حدث في الماضي بيتا... دخلته ثم أبوابه أغلقت ...

والأدهى أن المفتاح من يدها رمت ..

قذفته عند يد جهلت ..

ما فيها من وجع .. وبزيفها الظاهر اِلتهت ...

لحظة ...

المفتاح لم يسقط ...

هناك يد تنتظر إشارة لتلتقطه بجرأة تجاوزت ...

السكون الذي قادته سنوات توالت ...

إشارة واحدة ستجعلها تتدخل دون تردد ...

سواء أرادت رهف ذلك أم لم ترد ...

لما وصل سي أحمد إلى المنزل سحب منديلا وبلّله بقليل من الماء، ثم خاطب دنيا قبل نزولها من السيارة بتوتر ظهر على نبرته.

- أزيلي بقعة الدم التي بقيت على إصبعك يا ابنتي... ولا تخبري والدتك، تعلمين قلقها الزائد حتى لو كان الأمر تافها.
- معك حق... لقد نسيت أمرها يا أبي.

مسحت دنيا بقعة الدم التي جفت على إصبعها دون أن تشك في أن هناك سرّا ما خلف ما حدث، ثم نزلت من السيارة لتطلّ على هيثم سائلة.

- ألن تدخل معنا؟
- لقد تأخر الوقت غاليتي، سيوصلني أبي إلى البيت ثم يعود، لا تشغلي تفكيرك ونامي جيدا فكل شيء سيكون على ما يرام... لا تنسي إغلاق الباب بإحكام...
- حسنا... تصبح على خير وشكرا على كل شيء يا أخي.

انطلق سي أحمد بصمت طال أمده، أما هيثم فردد ناظريه بين وجه والده مباشرة وبين انعكاس ملامحه على مرآة السيارة كأنه في عراك مستمر مع لسانه الذي تشجع في النهاية وسأل بصوت منخفض دون أن يرفع بصره إلى والده.

- هل يمكن أن يكون صاحب تلك الورقة واحدا من أولئك الرجال؟ هذا ما يشغل تفكيرك الآن يا أبي... أليس كذلك؟

أمعن سي أحمد في حركات ابنه ثم ردّ محاولا طمأنته لمّا أحسّ بالقلق الذي ساد صدره.

- أغلق الموضوع يا هيثم... لا شيء يستحق أن أشغل تفكيري به؟ ولا حتى أن تقلق أنت من أجله.
- كما توقعت... تحاول أن تخرجني من الأحداث كما فعلت قبل خمس عشرة سنة، حينها كنت صغيرا ولكنني الآن موجود ولن أسمح لأحد بأن يقترب من عائلتي.
- لا يمكننا فعل شيء قبل التأكد من صاحب تلك الرسالة، والمهم عندي الآن أن لا تعرف فاطمة بأمرها، إن تمكنا من خداع دنيا فلن نتمكن من تهدئة والدتك إن وصلها الخبر.
- رمز النجمة يؤكد بأن هناك صلة من نوع ما مع أولئك الرجال... أيا كان هدف صاحب هذه الرسالة فنحن من سيخسر يا أبي.
- الرسالة بأمتها تؤكد أن شيئا من الماضي يستعد للانقضاض عليها... بل علينا جميعا... وإلى أن أتحدث مع عمك سمير لا يجب لأحد أن يفتح سيرتها .. هل فهمت يا هيثم؟

أومأ هيثم برأسه منزعجا ثم فتح باب السيارة ليعود إلى والده ويقول معتذرا.

- آسف عما بدر مني هذا المساء... وأرجو أن لا تشكك كلماتي تلك في محبتي لدنيا في نظرك يا أبي.

ابتسم سي أحمد محتضنا أنامل ولده وهو يردد.

- أعلم قيمة دنيا عندك يا هيثم... أعلم ...

رويدا رويدا من نافذة إحدى غرف منزل سي أحمد التي تطل على الشارع، حيث كانت دنيا ماكثة عند فراشها تحاول إلصاق المزهرية المنكسرة ونظراتها التائهة متصلبة عند صندوق بحجم الكف مزيّن قربها، حملته لتخطفها الذكريات مجددا وتحديدا في صباح عيد ميلادها الأخير أي قبل سنة كاملة.

..... انبلج الصباح وقد **كانت دنيا جالسة تساعد أختها على دراستها، عندما طرق الباب رمت أسماء القلم وخاطبت أختها باسمة.**

- **أنا سأفتح يا دنيا... انتظريني...**

ردت عليها دنيا بحزم.

- **لا تحاولي المماطلة... أدرسي... وسأفتح الباب بنفسي.**

عادت أسماء إلى مكانها متذمرة بينما توجهت دنيا إلى الباب، وما إن فتحته حتى فوجئت بالفتاة التي تدعى رنا متكئة

على عكازتها وبيدها هدية مغلفة، فابتسمت دنيا لما خاطبتها الفتاة مباشرة.

- كل عام وأنت بألف خير يا حبيبتي...
- أهذه أنت؟... لم يصح ديك الصباح بعد.

ضحكت دنيا وحضنتها مبتهجة فيما ردت رنا.

- ألم تعجبك المفاجأة؟.. لقد أحضرت هدية عيد ميلادك قبل الجميع هذه المرة... حتى لا يتجرأ أحد على إبعادك عني مهما كانت حجته.

كانت رنا في أوج غضبها على شخص ما، شخص لم تعرفه دنيا أو لنقل لم تكن لتتوقع قربه منها، لقد انعكس حقدها على كلماتها، و على الرغم من أن دنيا لم تشأ الضغط عليها أكثر وحاولت منحها الوقت علها ترتب أفكارها دون تدخل منها، فإن هذا لم يمنعها من السؤال.

- شكرا لك عزيزتي... لكن كثرت مناوشات عينيك هذه الأيام... من يمكن له أن يبعدك عني؟
- لا تهتمي والآن ساعديني في صعود عتبة منزلكم العالية.

مدّت دنيا يدها لمساعدة رنا وراحت تقول.

- بهدوء يا عزيزتي... ألم تعتادي هذه العتبة بعد؟
- وكيف سأعتادها مع هذه القدم الغبية؟

انتبهت دنيا إلى نبرة رنا التي زادت قسوتها عن المعتاد، ولكنها تجاهلتها حتى لا تدخل معها في جدال يُغرق رنا في دوّامة النقص التي تتجنب صديقتنا الخوض في تفاصيلها، فقد أصبحت تدرك في قرارة نفسها أنها كلما حاولت إقناع رنا بأن عجزها غير مرئي بالنسبة إلى كل من يحبها تشبثت الأخيرة بالعكس، اعتقدت أنهم يساعدونها من باب الشفقة لا أكثر، لذا لم تشأ يومها أن تعكر مزاج رنا وهي على عتبة منزلها.

دخلتا غرفة نوم الأختين، وقرب أسماء اختارتا الجلوس، بدأت دنيا تفتح الهدية، وماهي لحظات حتى صرخت مبتهجة.

- **رائع هو هذا الصندوق... شكرا يا رنوش.**

حضنت دنيا رنا بقوة، أما الأخيرة فخاطبتها بابتسامة حملت في طيّاتها احتراما عميقا.

- **هذا كي لا تنسي مكان دبابيسك وأغراضك الصغيرة... لأنك ستجمعينها هنا، وهكذا سنحل بعضا من التأخر الذي لطالما أوقعتك به.**

مع تلك الكلمات التي كانت دنيا تسعى لاقتلاعها من أفكار رنا اختفى سراب الذكريات بدخول فاطمة حاملة صينية توسطها صحن حساء إلى جانب حبة تفاح وكأس عصير، لاحظت دنيا نظرات والدتها الحزينة تتقدم منها بخطوات مرتجفة، فوضعت هدية أمل جانبا وحاولت إخفاء دموعها، هي تعلم بأن حدود

قدرتها التي تستعملها في كل مرة لإخفاء ألمها عن الجميع ستفشل في مجاراة مشاعر والدتها التي تخترق نبضات قلبها مذ كانت صغيرة، قعدت الأم وقالت برجاء.

- اشربي قليلا من الحساء يا ابنتي... فأنت شبه صائمة هذا اليوم.
- أنا لست جائعة يا أمي.

بمجرد أن أنزلت دنيا رأسها ملتهية بجمع الأغراض التي كانت متناثرة بالقرب منها، حتى بدأت فاطمة تستشعر الآلام والفوضى المنطوية تحت تلك النظرات الهادئة، فليست من عادة ابنتها تنظيم المكان إلا إذا أرادت التهرب من الحديث مع من هو أمامها، ولأن فاطمة تعرف طبع ابنتها جيدا أمسكت ذراعها بحنان وجعلتها تقعد ثم وضعت كفها على خدّها وقد ضج قلبها بأصوات الآلام واستطردت.

- ابك يا دنيا... هيا ولا تحبسيها رغما عنك... هيا ابكِ وسترتاح صغيرتي...

لم تنه فاطمة قولها حتى انفجرت دنيا بكاء، ملقية بخدها على صدر والدتها الحنون؛ إذ لم تجد حضنا أآمن لها منه في تلك اللحظة، فيما كانت أسماء تنظر بحزن إلى أمها تتحسس خدّ أختها المستسلمة وهي تبثّ كل ما كان يراودها من مخاوف.

- أمي أنا خائفة جدا... أخشى أن أفقد أمل ...

- تفاءلي يا حبيبتي... ينبغي أن تقفي إلى جانبها... ضعفك وأنت الأقوى بينهنّ سيربك جمعكنّ.
- استنفد رحيلها كل قواي يا أمي... لن أستطيع العيش إذا حدث لأمل ورهف أي شيء... فهما سندي الوحيد بعدها.

في تساؤل دامع اختصرت أسماء كل ما تشعر به اتجاه دنيا وقالت.

- ماذا عني؟ فأنا أختك... وسندك الذي... لن يبتعد عنك أبدا.

فاجأت ردة فعل أسماء البريئة ألم دنيا، عرفت بأن اسما لا ينقص معزّة قد اختفى من حديثها، لم تقل أسماء ذلك مباشرة، وقطعا لم تقصد لوما ولا عتابا في قولها، وإنما كان مجرد كلام عبّرت فيه رغم صعوبة نطقها على قدرتها الخارقة في الوقوف إلى جانب أختها ضد كل من يتسبب في ألمها، سؤال سريع لكنه اخترق ضمير دنيا فمدّت يدها ومسحت دموعها محمرّة الوجه، أما فاطمة فاستطردت بلطف.

- صدقي يا دنيا بأن أسماء رفضت أكل أي شيء قبل موافقتك على الأكل.
- سآكل مع دنيا... اذهبي يا أمي... ودعينا ...وحدنا.

أدارت أسماء وجهها متذمرة متكئة على ركبة دنيا، وأغمضت عينيها متجاهلة جوعها، حينها بسطت دنيا صفحة وجهها مرغمة وخاطبت والدتها.

- نعم يا أمي... اذهبي وأحضري لنا المزيد من الحساء، لأنني سأجعل أسماء تأكل حتى التخمة.
- حقا ستأكلين... من أجلي؟

هزت دنيا رأسها بالموافقة، فقفزت أسماء على الفراش صارخة بسعادة.

هي تدرك في صميمها اهتمام الجميع بها واشتياقهم إلى ضحكتها، غير أن جهودها تخذلها في كل مرة، هي تحاول... تحاول إخفاء ألمها... تحاول على الأقل، هكذا تطمئن وجدانها المضطرب بين محاربة ذكريات الماضي التي غدت تقْطع عليها ضحكات الحاضر ونسماته البديعة وبين أسر أحبابها في دوامتها المظلمة.

دخل سي أحمد على صرخات أسماء وزوجته غارقة في إعجابها اللامتناهي بكبر قلب دنيا، وضع يده على كتف زوجته متأملا ذلك المنظر الجميل وابتسم متجاهلا غصة الرموز التي تركتها الرسالة المجهولة، وفي ساعة متأخرة من الليل جلست رهف في ركن مظلم من غرفتها دامعة العينين، متذكرة لحظة استعانتها بأبيها ضد خالتها، ليرنّ هاتفها باتصال من دنيا رغم تأخر الوقت، فهل شعرت بآلام صديقتها؟ لم يتمكن أحد من

ترجمة تلك المشاعر، هي أشبه بمنافسة مصيرية بينهما، فأيّ واحدة ستنجح في تصفية صوتها الوامق أولا، نعم... كل واحدة منهما تنتظر الأخرى لبدء الحديث... وبعد ثواني تكلمت دنيا بصوت منخفض جعل رهف تسأل كأن كل بهجة العالم متمركزة حيث هي جالسة.

- لماذا تتحدثين بصوت خافت؟ بالكاد أستطيع سماعك.
- وأنا بالكاد استطعت التظاهر بالنوم أمام أسماء، فقد رفضت النوم ...إلا بعدي، كما أن صوتك لا يدلّ على أنك بخير، آسفة إن كنت قد أيقظتك من النوم.
- وأنا لم أنم أيضا يا دنيا... ذهني مشوش.
- كل شيء سيكون على ما يرام، دعينا نكون مصدر قوة لها، وغدا بإذن الله سنذهب لزيارتها... ابعثي لها رسالة حتى نجنبها الشعور بالوحدة.
- لقد أرسلت وانتهى الأمر.
- أيتها المخادعة... وأنا سأرسل إليها رسالتي ثم أنام... لا تقلقي... وخذي قسطا من النوم يا عزيزتي...

ابتسمت دنيا متأملة براءة أسماء وأغمضت عينيها علها تنام، فيما كان الشاب المجهول يضمد جرح يده وقد استقرت نظراته عند هاتفه، بل كان يسترق النظر أين نقش شكل نجمة على الغلاف، جثمت أنفاسه حتى احمرّ وجهه كأن عاصفة من الأفكار والشخبطات الجائعة تستعد للنيل منه، كانت تتناوب عليه وتقذفه بين جدران الجحيم حيث الجنون، كان واضحا أنه لم

يتحمل المزيد منها فحصر رأسه بين قبضتيه يعتصره عله يصل إلى نقطة تهدئ روعه، ظل يبتلع ريقه بصعوبة ودموعه كالغيث المطير فوق خديه، فأي جرح يعتريه وكم من جرعة ستسكن آلامه؟

بدأ يوم جديد بارد وها هو الشيخ سمير مهداوي صاحب سي أحمد وجاره المقرب يحمل فنجانا من الشاي الساخن حين خرجت دنيا من المنزل واهنة الخطى، ذابلة العينين، لقد أضناهما قلق امتزج مع ساعات الليل الطويل، لم يستغرق الوقت إلا ثواني حتى لاحظ الشيخ هذا التغير في تصرفاتها، لعله الوحيد القادر على سحب ما تحت لسان الجميع طوعا أو كراهية، فيترجم ما تخفيه نظراتهم ولكن لا أحد منهم يستطيع فهم كلماته إلا عندما يريد هو ذلك، وبالقدر الذي يريده، رغم كل شيء احتاجت دنيا لأحرفه الحكيمة وابتسامته الهادئة، لذا توجهت إليه حين خاطبها مبتسما.

- صباح الخير يا بنتي الفحلة.
- صباح النور يا عم سمير... هل أنت بخير؟
- دعكِ مني... ما بال عينيك الجميلتين ليستا معي اليوم؟
- لا شيء... فقد سهرت أدرس الليلة الفارطة...
- وفقك الله وأبعد عنك كل شرّ يا صغيرتي.
- لا أعلم... أحيانا أشعر أن كل الشرور تستهدفني وحدي، كأن لا أحد غيري في هذا العالم.

تأمل العم سمير برفق شرودها عند باب صديقتها الغائبة رنا، وأنزل رأسه هنيهة قبل أن يردّ مواسيا.

- كل شيء من الله هو جميل يا ابنتي... ربما لن نتمكن نحن البشر الجحودين من إصابة موضع الجمال ولكنه موجود، سيأتيك يوم تدركين فيه الجمال بين كل هذه الشرور التي تتحدثين عنها، وأرجو من الله أن يبارك لك فيه يا صغيرتي، لكن هل من جديد أحزنك؟
- لا شيء يا عم... على الأقل انجُ بنفسك من هذه الأحزان... ولنقل رحمها الله، أليس هذا ما تريدون مني قوله دائما؟

ابتسمت دنيا ساخرة لتستدير إلى رهف القادمة على استعجال، فتحدثت مع صديقتها مباشرة دون الالتفات إلى العم الواقف بجوارها وسحبتها، وماهي لحظات حتى انتبهت إلى هفوتها فاستدارت إليه وقد وقف في حيرة يدرس كل تلك الحركات ويحللها داخل عقله دون أن يشعر من هم حوله، لكنه رد بذات البسمة على اعتذارها.

- صباح النور يا ابنتي... لست ملامة... فالدراسة تأخذ كل تفكيركما.

نظر العم سمير إلى دنيا ليخبرها بعينيه أنه اكتشف بأنها تخفي عنه أمرا ما دون أن يلمح لها بأنه عرف مدى خطورته ومن تضرّر بالضبط؟ وكي يخبرها بتلك النظرة أن الكذب لا يليق بها وقد بان

واضحا على ملامحها، ارتبكت دنيا فأمسكت ذراع صديقتها وسحبتها مبتعدة.

في الطريق شغل العم سمير تفكير رهف ففتحت سيرته ظنا منها أن رفيقتها على علم بشيء مما يخفيه، وسألتها محتارة.

- دنيا... ألم تعرفي لماذا لم يتزوج العم سمير حتى اليوم؟
- وما أدراني؟ ما يهمني أنه شخص طيب ورائع... لطالما كان ممدّي بالشجاعة بكلماته الحكيمة... ومثالا للثقة... كما أنني أستمد معاني الصداقة في علاقته مع أبي.
- لا أدري لماذا؟ لكنني أشعر أنه غريب الأطوار... ويخفي في طياته الكثير من الأسرار.
- لا أستغرب هذا... فأنا مثلك رغم كل التقدير الذي أكنه له إلا أنني أشعر بالخوف كلما تعمقت في المعاني التي يرسلها خلف كلماتٍ قد تبدو عادية بالنسبة إلينا.

ابتسمت دنيا غير مبالية وأردفت على عجل.

- كما أنّ أسراره تخصه ولا دخل لنا بها... لذا علينا أن نسرع قبل أن يفوتنا الفرض... آخر ما أريده الآن هو اشتباك صباحي مع الأستاذة سليمة.

أمسكت دنيا ذراع رهف بقوة فصرخت أملا في تركها لألم أصابها جراء ضربات خالتها... ففعلت ذلك دون تردد وفي ظنها أن جرح يدها الذي لاحظته ليلة الأمس كان السبب، لكنّ رهف فندت ذلك وردت بارتباك.

- لقد نمت البارحة باعوجاج على ذراعي، ولازمني ألم عند مرفقي صباحا... هذا كل ما في الأمر.
- عليك أن تعتني بنفسك، لا أريد أن أخسركما كما سبق وضيعتها من بين يدي.

توقفت رهف وأمسكت كتفي دنيا وخاطبتها بحدّة.

- لقد كان مجرد حادث فكفاك لوما لنفسك، لأننا نعلم جيدا أن تلك العقرب البشري هي السبب يا صديقتي.
- إن كانت السبب أو لا... فإنني من خسر في النهاية... لا أريد الآن إلا إبعادها عن طريقنا... وبأي ثمن.
- وهل تتجرأ على لمسنا الآن؟... كل ما يمكنها فعله هو مجاكرتك... لذا كوني أقوى منها ولا تتبعي قذارتها.

أحنت دنيا رأسها على صدرها بضيق وفي منزل رهف دخل السيد عمر ليجد رؤيا تبكي متظاهرة بالمذلة عند ركن من أركان غرفة ابنته الممتلئة فوضى بطريقة عجيبة، ملابس منثورة هنا وهناك، كتب وأقلام على الأرضية، أواني متسخة وقد انسكب بعض ما كان فيها على الفراش، فوجئ عمر وهو يمعن النظر في المكان ثم سألها بغضب مكنون.

- خيرا يا امرأة، ما الذي حدث هنا؟
- لا شيء يا عمر... ودعني بهمّي.
- لن تتغيري... وأنا لن أتوسل حتى تتفضلي بشرح ما حدث ...

استدار عمر راحلا لكنها استوقفته صارخة بحرقة.

- بالطبع... فأنت ليس لك في هذا العالم سوى رهف التي تستغل دلالك لتذلني كلما غبت عن المنزل.
- ليس من طباع ابنتي أن تقلل الأدب، فكفاك تمثيلا وأعيدي الغرفة كما كانت.
- أنظمها؟ أنظر كيف تركتها، دائما أنا التي تنظفها... لكنني اكتفيت من تصرفاتها.

أنزلت رأسها مضيفة بحزن مصطنع.

- لو كانت عندي ابنة لتغير الوضع... عمر لا يمكنني الافتراء عليها لأن والدتها أختي فكيف لي أن أكذب... ألا تسير دمائي بدمائها؟ لماذا لا تصدقني يا رجل؟

صمت عمر برهة من الزمن محمرّ الوجه، أما رؤيا فوقفت بغضب تطوي الملابس كأنها الملاك الذي يتغاضى عن الأخطاء والطرف المظلوم في العائلة، فيما سحب عمر نفسه وجعل يقول بصوت مسموع.

- عندما أراها تفعل ذلك... سأصدق، فقط عندما أراها تفعل ذلك يا رؤيا.

خرج عمر غاضبا فازدادت رؤيا غيظا ورمت ما كان بيدها، هي لا تعلم أنها قد أوصلت الشك في قلب زوجها ضد ابنته ولو كان بحجم ذرة أو أقل بكثير، إلا أنه أخفى مشاعره كي لا تتجبّر على

رهف، عمر من الرجال الذين يزيدون حجم التوافه دون تفكير، لذا لم يكن صعبا على رؤيا التحكم به بحركة بسيطة كتلك، مستغلة قرابتها من ابنته لتؤكد صدقها وتبرر دموعها الكاذبة أمامه.

بعد انتهاء الفرض وقفت دنيا تحدث رهف في الساحة... وفجأة انقطع نفسيهما بسبب نداء من الفتاة التي حشرت نفسها بين مدعوات عيد الميلاد ببراءة مبتسمة الملامح، فتاة خطيرة لا تتأثر بالمشاعر التي تنتاب دنيا كلما رأتها، ولا بتلك المناوشات التي سبق وجمعتهما، لذا وخوفا من مناوشة جديدة بادرت رهف بالرد ممسكة ذراع دنيا بقوة.

- ما الذي تريدينه منا؟ ابتعدي عن الطريق.

أرادت رهف الابتعاد عن المكان، فيما انتظرت نور الرد من دنيا التي تجنبت حتى النظر إلى وجهها، وبحركة استفزازية دنت منها وخاطبتها بنبرة هادئة.

- ألازلت غاضبة مني يا دنيا؟... صدقيني لقد تبت ولم أقصد ما حدث في الماضي؟

رفعت نور يدها محاولة وضعها على كتف دنيا، لكن الأخيرة عادت خطوة إلى الخلف، فأعادت نور يدها إلى ذقنها قبل أن تكمل كلامها متجاهلة حنق دنيا المكتوم في صدرها.

- ألم تنسي الماضي بعد؟

أغمضت دنيا عينيها هنيهة وأشارت إليها بسبابتها محذرة ثم جعلت تقول بنبرة أكثر هدوء.

- لا لم أنس... ولن أفعل حتى أراك تتمرغين أرضا...

ثم صرخت مردفة بعدما غافلت رهف وأمسكت نور من خناقها ودفعتها أرضا.

- إياك والاقتراب منا مجددا.

وقفت رهف بين الفتاتين محاولة غلق الموضوع.

- يكفي يا دنيا ستراك الأستاذة سليمة ...
- لتفعل... ومنذ متى أكترث لأحد عند مواجهة العقارب؟

تنهدت رهف وسألت نور.

- أخبرينا ما الذي تريدينه؟
- بنية صافية سأقولها وأتجاهل ما حدث الآن... إن كنتما ذاهبتان لزيارة أمل فأنا وسمر نريد الذهاب معكما .. علمنا أنها في المستشفى ...

ردت رهف مباشرة.

- لا... لا يمكنك ذلك... انقلعي من هنا.

بحركة غير متوقعة ردت دنيا تاركة الذهول يرتسم على وجه رهف.

- حسنا... دعيها يا رهف نحن نعرف أنها إن أرادت الذهاب ستفعل... ولذا سننتظرها مساءً على الساعة الثالثة، على الأقل أكون موجودة لدحر سمومها.

صحيح أن قرار دنيا بعث الذهول على ملامح رهف، لكنه في الحقيقة أرعب نور، لأنها موقنة أشدّ اليقين أنها تخطط لأمر ما، كما أنها على علم بأن الفتاة التي تكلمت لن ترتاح إلا إذا نفذت ما يخطر في بالها ومهما كانت صعوبته، رغم هدوء نظرات نور التي تؤكد لنا معرفتها الجانب السيء في دنيا إلا أنها سحبت نفَسها كأنها تستعد لحرب أو مكيدة توقعت فشلها فيها مذ تلك اللحظة، واستقامت مبتسمة ثم ردت غير آبهة.

- جيد... سنكون في الموعد عند بوابة الثانوية.

حدجت نور دنيا بنظرة خفية ملأها الغدر قبل أن تغادر، أما بطلتنا فابتلعت ريقها والصمت يلف عينيها الدامعتين ولما طال سكونها خاطبتها رهف.

- ما بك يا دنيا؟ لماذا سمحت لها بالقدوم؟ ما الذي تخططين له؟
- فتنة الماضي التي غرستها بيننا تستحق مني تخطيطا جهنميا يا رهف.

مع الابتسامة الماكرة التي اعتلت وجه دنيا اضطربت رهف فردت.

- كفاك جنونا... سأذهب وألغي اتفاقنا... لن ننتظرها ولن ترافقنا.

استدارت رهف حيث قعدت نور مع سمر لكن دنيا أمسكتها.

- توقفي يا رهف... لماذا كل هذا الخوف؟... هي فقط لدغة صغيرة مني ولن أتجرأ على أكثر من ذلك فلا تقلقي.
- كلماتك ونظراتك وابتسامتك عندما تتحدثين مع نور تخيفني... وكأنني أقف أمام فتاة لم أعرفها يوما، وأنا لا أريد أن يتكرر ما حدث في الماضي.

أمسكت دنيا كتفي رهف وجعلت نور خلفها حتى لا ترى دموعها وراحت تقول.

- لن يتكرر... لن يتكرر يا رهف، لقد لعبت فينا ما شاء لها الهوى قبل أشهر لكنكم لا تعلمون أنني عَلـّمْت على وجهها الحقيقي الغادر بين جميع الأوجه التي تتصنعها، ولن توقعني في شباكها ثانية، كل ما في الأمر أنها تخطط لإقلاق سكوني من خلال هذا الطلب، وأنا وافقت لأريها العكس... سأثبت لها أننا بخير وأنها لن تنجح في إحزاننا وفصلنا عن بعضنا... فكوني مطمئنة.

في المستشفى كانت أمل متسطحة على السرير تنتقل بين الملل والألم الذي يهاجمها بين فينة وأخرى، لقد اعتادت رؤية ضحكات دنيا ونظرة رهف الحنونة كل صباح، وفي ركن تلك

الغرفة تكوّمت كل التساؤلات هنا وهناك في ذهنها، كثرت تنهداتها كأن تلك التنهدات أجوبة تلقيها على نفسها المحتارة، وفي الرواق قعدت سامية مع أمينة علها تتجنب سماع تلك التساؤلات منها فتفشل في إخفاء الحقيقة، ويكون موقفها صعبا إن هي كذبت عليها.

أمل فتاة حادة وصعبة المزاج، حتى أقرب الناس إليها يحاولون التعامل معها بتحايل تحاشيا لانفعالاتها وعصبيتها المفرطة، وهم نفسهم من يدرك كميات الطيبة المطمورة تحت كتل الجنون تلك، لم تكد الأم تدير نظرها حتى ابتلعت ريقها ووقفت تتفحص وجه نور مع دنيا ورهف، خطواتهنّ كانت تقترب في طريق واحد وهذا ما لم يكن في حسبانها وقد كانت شاهدة على ماضيهنّ، ارتسمت على وجهها بسمة ممزوجة بالريبة، ثم فتحت لهن الباب دون أن تنطق بكلمة واحدة واستدارت تتأمل وجه العقرب لتطل دنيا من الباب.

- أهلا أمل... ألم تشتاقي إلينا؟
- دنيا ورهف... جيد أنكما جئتما... لقد كنت أشعر بالملل وحـ ...

ابتلعت أمل بقية كلماتها مستغربة بعدما أطلت نور ضاحكة غير آبهة بجميع تلك النظرات، نظرات الاستغراب بين أمل ووالدتها، نظرات الخوف التي تملكت قسمات رهف ونظرات

الاحتقار التي تطايرت من عيني دنيا، رمتها جميعها خلفها واقتربت سائلة.

- أهلا أمل، لماذا لم يسمح لك الطبيب بمغادرة المستشفى؟ أتمنى أن الأمر ليس خطيرا.

اعتدلت أمل بمكانها والتفتت إلى والدتها مخاطبة.

- هلا أحضرت لنا عصيرا يا أمي ...؟

بارتباك خرجت سامية ممسكة يد أمينة، في حين اقتربت دنيا من النافذة بصمت تراقب الطريق السيار وقد ركنت السيارة البيضاء التي كانت تلاحقهنّ طول الوقت عند باب المستشفى، لم تعر دنيا الأمر انتباهها وظلت تصغي إلى نور تعيد سؤالها على مسامعهنّ، لكن أمل ردت ساخرة.

- عقدت وإياه اتفاقا خاصا... كما أنه لم يكن هناك داع لقدومك ...

ابتسمت دنيا مركزة على ملامح نور من خلال زجاج النافذة، وببرودة أعصاب مخيفة ابتسمت الضيفة، وقبل أن تقترب أي خطوة من سرير أمل صرخت فيها دنيا دون أن تلتفت إليها.

- مكانك... أحذرك والاقتراب منها... أقطع قدمك وأرسلك إلى منزلك بين أحضان مساعدتك.

عادت نور مكانها وخاطبتها بغيظ.

- فهمت يا دنيا... وتوقعت بعضا من عنفك المعتاد... لكنني هنا للاطمئنان على أمل وسأحاول مسايرتك هذه المرة.

اقتربت دنيا بخطوات مبتسمة وهادئة هدوءًا لا يعكس الغضب الذي كان يتطاير من عينيها حتى أصبحت كالحاجز بين نور وأمل في حين دنت رهف من الخلف كأنها تحسست أجيج النيران التي يخفيها ذلك الهدوء في جوف صديقتها حين قالت بنبرة كلها احتقار.

- قديمة... ونحن نقدر لك هذا القلق فأريحي نفسك... وأنا أيضا يمكنني مسايرتك قدر المستطاع، إلا إن كنت قد اعتدت إغلاق كل لقاءاتنا بتذكر جراح الخدود ...

ابتسمت رهف من الخلف متفحصة أثر جرح قديم على خد نور الأيمن، فيما ردت الأخيرة وقد بدأت تفقد السيطرة على كلماتها.

- وأنا لا أعتقد أن لقاء اليوم سيكون مختلفا يا دنيا... وبالحديث عن جراح الخدود... ومع الأسف سنتذكرها معا... ولستُ الوحيدة المعنية بها.

ضبطت دنيا حنقها بصدرها وأكملت منزلة رأسها.

- أنظرن يا فتيات... لا زلت أحاول مسايرتها... انصحاها عني وأخبراها بأن الباب خلفها مباشرة.

عدلت نور من وقفتها ووضعت يدها في جيبها.

- حسنا سأذهب... مسايرة مني لا أكثر... سألتفت خلفي حيث الباب ...

بكل وقاحة ودون خوف أردفت ساخرة.

- فإن كان الباب خلفي مباشرة يا دنيا... فخلفك الآن يوجد إنسانتين هما الأقرب لك بعد...

ابتسمت مشفقة وأكملت بينما حملقت دنيا في وجهها كأن بركانا اشتعل داخلها.

- لنقل رحمها الله... والأيام ستحزر معنا من ستكون هدفا لي بينهما... لأن رنا كانت بداءة ألمك وليس ...

لم تكمل كلمتها حتى تلقت صفعة قوية من دنيا وقد أحكمت قبضتها على عنقها لتفزع رهف، أمل وسمر لإبعادها، في تلك اللحظة وصل الشاب الغامض على صراخ رهف محاولة إيقاف دنيا ليتفاجأ بنور تكاد تفقد حياتها، لحسن حظها أن الطبيب وصل مبعدا دنيا وقد جعلت تقول مرهقة بينما أخفى الشاب نفسه خلف الجدار يسمع بصمت.

- حقيرة مثلك لن تتعلم دروسها... أنصتي إلي جيدا إن حدث شيء لأمل أو رهف ولو كانت لدغة بعوضة ستكونين أول من يدفع الثمن... رنا كانت بداءة ألمي ولكنها أيضا كانت بداءة عذابك والجرح الذي بخدك لن يكون أبشع ما يمكنني فعله بك... انقلعي من هنا ...

وقفت نور منقطعة الأنفاس وغادرت مع سمر مرورا بالشاب الذي حفظ ملامحها الغاضبة جيدا، وما إن خرجتا حتى انهارت دنيا بين أحضان صديقتيها وقد شاركتاها دموعها بحرقة، أما الشاب فشرد لحظات يتأمل منظرها اليائس ثم أخذ دربه راكضا خلف نور وسمر، تمالكت دنيا ألمها حينما تذكرت مرض أمل، ومسحت دموعها ثم اعتذرت من الطبيب، وما إن خرج الأخير من الغرفة حتى تنهدت ممسكة خدي رهف وأمل بارتياح قائلة.

- خرج الطبيب... خرجت العقرب البشري ومساعدتها... يمكننا إكمال حديثنا... لقد أصبحنا في أمان.

ابتسمت رهف فيما سألت أمل.

- لماذا وافقت على حضورها يا دنيا؟ كنت تعلمين أن هذا سيحدث.
- أردت أن أذلها وأفهمها أن حيلها لم تعد تنفعها يا أمل... ولكنها تجاوزت حدودها فلقت الجواب.

وقفت دنيا تعدل هندامها حين دخلت سامية رفقة أمينة تحملان علب العصير، ولم تجدا سوى دنيا ورهف مع ابنتها ومباشرة سألت الأم وهي لا تعلم أي حرب نشبت خلال غيابها.

- أين هما؟
- لقد غادرتا يا خالة.

كان ذلك رد دنيا بشماتة واضحة، لذا اقتربت منها رهف وهمست ضاحكة.

- غادرتا أم أنك طردتهما؟

ابتسمت دنيا فيما تحسرت سامية وردت.

- خسارة... لقد أحضرت لكنّ العصير وغادرتا دون أن تشربا شيئا...

أكملت سامية مستفسرة بفضول.

- ولكن هل عادت تلك الفتاة لمجموعتكن؟ أخبرني...

بترت دنيا ظنّ السيدة سامية محتدّة.

- مستحيل... لن أقع في شباكها ثانية... وقد أحضرتـُها معنا كي أطردها وهكذا ستعرف قيمتها بيننا، لكن لا بأس يا خالة لا تتحسري... أعطني العلبتين الإضافيتين... أنا سأشرب الخاصة بالعقرب وأمينة ستشرب الخاصة بسمر.

قعدت رهف على الكرسي تفتح علبتها، وقالت مازحة.

- إياك أن تتسممي يا دنيا.
- لا تقلقي يا رهف فحتى السم لن يقتلني... لأن ألم جرحها جعلني لا أتأثر بغيره ألما.

تغيرت ملامح الصديقتين، أما دنيا **فتذكرت وجه فتاة تسقط من أعلى الدرج ثانية** ولم تكن أمل، خرجت من الغرفة ترتجف، ولما حاولت رهف اللحاق بها منعتها سامية قائلة.

- دعيها يا ابنتي... كبر قلبها جعلها تداري ألمها مرغمة بحضور من تحب .. فاتركيها تبوح ببعضه لوحدتها علها ترتاح...

في طريق العودة مشت نور في أشدّ غضبها بينما ظلت سمر تلحقها بخطوات سريعة وقد ركب ذلك الشاب سيارته ولحقهما بشيء من الإبطاء.

- تلك البلهاء دنيا، سأريها نتيجة أفعالها المتوحشة.

راحت نور تتحسس جرح خدها بأطراف أصابعها، أما سمر فردت بهدوء محاولة مساندة رفيقتها.

- دعك منها، فهذا ليس أول شجار بينكما... لكنك كنت أكثر صراحة اليوم.
- منذ موت رنا والصراحة أكثر ما يميز علاقتي بدنيا يا سمر.
- لكن ألاحظت كم كانت أمل متعبة؟ قدمنا إلى هنا ولم نعرف مرضها بعد...

أكملت سمر كلامها بصرخة ألم على إثر ضربة باغتتها بها نور ثم توقفت لترد بيقين غريب.

- هذا لا يعني أنني لن أعرف... خوف دنيا ورهف يؤكد أن الأمر خطير؟ حتى والدتها لا تكاد تتوقف عن البكاء...أنا أعرفهن جيدا ولا يمكنهن خداعي.

- إذا ما مرضها يا نور؟
- هذا الذي يجب أن أعرفه وأستغله لمصلحتي... علّه يزيد هموم تلك المتوحشة، وأنا بالتأكيد لن أتركهن يستمتعن بإهانتي.

نظرت سمر باستغراب وخاطبت نفسها.

- لم أر شخصا شكاكا كما رأيتك يا نور.. حسنا سننتظر المكيدة التي ستدبرينها هذه المرة؟

أطلقت نور نظرة مكر تبعتها ضحكة قـُطعت بصراخها وهي تسقط بعدما كادت تلك السيارة البيضاء أن تدهسها وتوقفت في آخر لحظة، وما إن رفعت عينيها حتى التقتا بعيني ذلك الشاب وقد ارتسمت على نظرته صرامة غريبة، لم تعرف نور لم ارتعد جسدها وهي تتفحص نظرته الثاقبة إليها، في حين صرخت سمر وهي تساعد صديقتها على الوقوف.

- كيف لم تنتبه... هل تحاول قتلنا بتهورك؟.. أنظر كيف أوقعت صديقتي على الأرض.

كانت نور تنظر بصمت غير معهود، أما الشاب فانطلق مكملا طريقه دون أن ينطق بكلمة واحدة، لم يكن رحيله دون تقديم الاعتذار أكثر ما أثار حيرة سمر بل أدهشها صمت نور كأنها ابتلعت لسانها فاستطردت .

- هل هو أصم أم ماذا؟... ذهب دون اعتذار... ثم ما الذي أصابك يا نور؟ كيف سمحت له بالرحيل دون دفع ثمن ما فعله... أنظري لقد جرحت يدك...

لمّا طال سكوتها جعلت سمر تهز كتفها وهي تقول.

- ما كل هذا الصمت؟ لو لم أكن أعرفك لقلت أن أي شخص يمكنه النيل منك... نور.

عندما كثر إلحاح سمر دفعتها نور بعنف صارخة.

- يكفي... نكدك آخر ما ينقصني الآن... اذهبي إلى منزلك ودعيني وشأني.

بقيت سمر واقفة مكانها بينما أكملت نور طريقها بمفردها والغضب يملأ محياها، وفي الطريق كان الشاب يتبعها خلسة مخاطبا نفسه بتوتر.

- لقد أصبتُ بالجنون... ما الذي كنت سأفعله؟... هذه فتاة تستحق أن أقف عندها قليلا... غير أنها أخذت نصيبها اليوم... الأفضل أن أعود إلى المستشفى علني أجدها وآخذ نصيبي أيضا... الواضح أن هدفي عنيد وقوي لدرجة يمكن له أن يعقد مهمتي أكثر.

ابتسم الشاب ساخرا ثم عاد مشيا حيث أخفى سيارته في مفترق طريق جانبي، وبعد ساعة هبطت دنيا ورهف من الحافلة لتجدا السيد عمر ينتظرهما بالقرب من المحطة على غير العادة،

وما إن رآهما حتى توجه إليهما بخطواته الرصينة وهيبته المعهودة، فابتسمت دنيا مرحبة.

- مرحبا يا عم عمر.
- أهلا بك يا ابنتي، كيف أصبحت؟
- بخير والحمد لله يا عم.

نظر عمر إلى رهف وخاطبها مشيرا إلى سيارته.

- ... هيا يا رهف اركبي... أحتاجك في أمر.
- حسنا... والآن إلى اللقاء يا دنيا.

ودعت دنيا صديقتها وقد أثار فضولها سكوتها الغريب، ثم أكملت طريقها مشيا كأنها كانت بحاجة إلى البقاء وحدها، وخلف عمود كهربائي ظهر ذات الشاب يبصر تحركاتها بحذر شديد وتكلم سائلا نفسه بذات اللهجة المشرقية.

- رح حاول احكي معها هلأ...

هز رأسه رفضا ثم استطرد متراجعا.

- لا ما فيني ساويها لحالي؟... رح احكي معو أول إشي... وهيك بيخبرها عني...

ثم ابتسم الشاب متوقفا على جانب الطريق.

- أصلا لازم شوفو... طوّلت عليه كتير هالمرة.

أكمل الشاب خطواته خلفها مبتهجا، فمن كان يقصد بكلامه؟

في الطريق المعاكس كانت رهف جالسة مع والدها كالغرباء تماما، حيث أنزلت رأسها شاردة فيما سيقوله، ليس من عادة والدها انتظارها في منتصف الطريق وإن انتظرها لا يترك صديقاتها ويأخذها بمفردها، عندها أدركت أن خالتها قد أخبرته شيئا ما، وبعدما طال صمتها قرر المبادرة بالحديث، فأوقف سيارته جانبا وسألها بهدوء.

- كيف كان يومك اليوم؟
- عادي... أكملنا فرضنا ثم ذهبنا لزيارة أمل في المستشفى.

أومأ برأسه هنيهة محاولا الدخول في الموضوع مباشرة، كان عمر رجلا يكره المقدمات بقدر حبه لابنته، ويحب الصدق بقدر كرهه لصمت ابنته، ذلك الصمت الذي لم يجد له دواء وأكمل كلماته بهدوء مرعب مستفسرا.

- لماذا تعاملين خالتك بتلك الطريقة؟

رفعت رأسها متفاجئة كأنها تطرح بالمقابل سؤالا آخر، فتنهد السيد عمر واستطرد بحدة أكبر.

- سأعيد سؤالي بطريقة أخرى، ما سبب الفوضى العارمة في غرفتك؟

استغربت رهف ليردف السيد عمر.

- ليس من طبعك الصخب ولا من طباعك الكذب... تلك المرأة هي خالتك ويجب أن تحترميها قبل أن تكون

زوجة أبيك... إفهميني يا بُنيتي أنا لم أتزوج غريبة خوفا عليك، ولم أختر خالتك إلا لأنها لن تكرهك وأن شعورها لن يقل حنانا عن حنان الأم، ذلك الماضي قد سكن قلبك ولفّ كل تصرفاتك بالجفاء... كما يلفّ العنكبوت ضحيته بخيوطه ليحتجزها...

قاطعته رهف محاولة شرح موقفها لكنه لم يسمح لها بإكمال كلامها وضرب مقود السيارة بطرف أصابعه مجتمعة حتى فزعت وعادت بجسدها إلى الخلف حين تكلم.

- بهذه التصرفات الذليلة تجعلين مني ذلك العنكبوت وأنت تلك الضحية التي تعاني بسبب زواجي الثاني، بل بسبب ما فعلتُه ذلك اليوم... لم أرد إلقاء الذنب عليك أمامها حتى لا تتجبر عليك... لكنّني أُعْلمك يا عزيزتي أننا عائلة واحدة وعليك أن تكسري حاجز النقص الذي اعتدت حبس نفسك داخله، صمتك هذا يقهرني ويحشو ذهني بآلاف الأسئلة... أكلّ هذا لأنني من حرمك.....

فجأة وضعت رهف يدها على فمه دامعة تهزّ رأسها رفضا لما كان سيقوله، ثم انتبهت لنفسها فأزاحت يدها واكتفت بدموع انهمرت بحرقة، أمّا عمر فتذكر لحظات وفاة زوجته من خلال زوايا غير واضحة، وضغط بيده على كتفها مبتلعا همّه غصبا.

وصلت دنيا إلى الحيّ الذي تسكن فيه، فوجدت العم سمير جالسا قرب دكانته يقرأ المصحف الشريف، وعندما لمحها مسح وجهه بيديه ووضع المصحف جانبا، فكلمته بطيبة.

- أعانك الله يا عمي... وتقبل منك تلاواتك.
- سلمت يا ابنتي، هلا اقتربت قليلا؟

اتجهت دنيا إليه بخطوات هادئة وقد بدا تعب خفيف على وجهها، وسألته.

- خيرا يا عم... هل تحتاج شيئا مهمّا؟
- الحمد لله ولكنّني أظن أنك من تحتاج أشياء وليس شيئا واحدا.

انخفض صوتها وهي تقول بيأس محتارة.

- لا أدري يا عم سمير... لقد صرت أتمنى لو أن حياتي تتغير لتبعدني عن هذه العقبات.
- لماذا كل هذا التشاؤم؟ اصبري فالصبر مفتاح الفرج... لكن أنصحك بتغيير أمنيتك لأنه لو تغيرت حياتك لتمنيت دقيقة واحدة من التي تعيشينها الآن، ولو امتازت ببعض من الآلام والمشكلات.

استغربت دنيا ودنت خطوة سائلة.

- ما الذي تقصده يا عم سمير؟

ابتسم العم سمير دون رد فأردفت دنيا بابتسامة شابهت ابتسامته إلى حدّ كبير.

- أحيانا أشعر أنك تعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

بقي العم سمير على صمته هنيهة، ثمّ أطرق رأسه ونزع نظارته ورد.

- لا علينا... ناديتك لأسألك عن سي أحمد... في العادة لا يذهب إلى العمل قبل شرب قهوتي، لكنه فعلها اليوم؟

فهمت دنيا أنه يريد تغيير الموضوع، فهذه عادة هذا العجوز، يجيبك عن سؤالك ليطرح جبلا من الأسئلة خلف ذلك الجواب، كأنه يقول لك لن أجيبك مجانا فلا بد من ثمن تدفعه، فتجاهلت بدورها تهرّبه وردت.

- حقا ؟... ربّما كان مستعجلا... سأبلغه سؤالك عنه... أما الآن فأتركك مع حماية المولى.

مشت خطوات قليلة وإذ بصدرها ينقبض فأمسكته مذعورة وعادت بأنظارها الخائفة إلى الوراء بسرعة، وفي صورة غريبة التفت معها العم سمير يبحث في كل مكان، ثم وقف مقتربا منها.

- خيرا يا ابنتي... ما الأمر؟
- لا أدري ولكن... لا تهتم فربما كان هذا بسبب التعب... مع السلامة يا عم سمير.

بقي العم سمير مرتابا من ردة فعلها، إلا أنه تناسى الأمر فحمل مصحفه، ولما أراد دخول دكانته رأى خيال شخص منعكس على الجدار لذا التفت باسما ظنا منه أنه زبون، وبمجرد أن ظهرت ملامح ذلك الغريب وانكشفت هويّته، حتى ارتعش العجوز خوفا ليكتم أنفاسه فورا، وفي نفس الوقت حوّل نظره برعب صوْب دنيا التي كانت تطرق الباب، لقد فهم شعورها بل أدرك سبب الخوف الذي ملأ محياها قبل لحظات، أما ذلك الشخص فابتسم ودخل بخطوات ثابتة حتى بلغ العم ووضع يده على كتفه وأخذ ينظر تارة إليه وأخرى إلى دنيا، بدا العم كأن كل جبال العالم ألقيت على كتفه دفعة واحدة، وظل ينصت إلى الشاب يخاطبه بتلك اللهجة المشرقية.

- حياك الله عم يوسف... وين رحت؟ من مدة ما وصلتنا أخبارك؟

في المستشفى كانت السيدة سامية تغطي أمل وقد بدأ النوم يداعب جفنيها، ثم خرجت بهدوء لاستنشاق بعض الهواء النقي بعدما ضاق نفسها من رائحة المستشفى، لتجد حميد واقفا باستهتار قرب غرفة أمل، تجاهلته وأكملت طريقها بينما خاطبها بخشونة وهو يعض على سيجارة بين مبسمه.

- ما الذي سنفعله من أجل عملية أمل؟ لقد تكلمت مع الطبيب وقد أخبرني أنها جد مكلفة.

استفزت كلماته سامية فصرخت فيه.

- أهذا كل ما يهمك؟ لو كنت أبًا حقيقيا لفكرت في ابنتك بدلا من التفكير في التكاليف.
- كفى عواطفا يا امرأة، هي ابنتي مثلما هي ابنتك ولقبها سيظل سرّاي مهما حاولت إبعادها عني بكلماتك... لكن فكري بمنطقية أكثر.

نظرت السيدة سامية باستهزاء وردت.

- صدقتك وسأبكي من شدة التأثر..(هه) سرّاي؟ ...هذا هو الشيء الوحيد الذي يربطهما بك ولو كان مالا لما تركتـه ولحاولت استغلاله لشراء السم الذي تشربه.

لوح حميد بيديه غير آبه ورد بتهكم.

- دعينا من ثرثرتك الآن... فالطبيب لن يجري العملية مجانا... أنت اخترت البقاء في مستشفى خاص وقبلت دون تردد وكل ليلة تقيم فيها أمل هنا أدفع من جيبي... ولكن علينا أيضا أن نجمع المال الكافي كي تدخل العملية ولا تصاب بالعمى وتتضاعف التكاليف أكثر، وقد جئت لأخبرك بأن تبيعي خاتمك وعقدك وسأتدين ما تبقى لنتدارك الأمر.

غضبت السيدة سامية من أنانيته فصرخت صرخة أيقظت أمل التي نادتها بصوت متعب فلم ترد عليها، وعندها توجهت إلى الباب لتسمعهما يتشاجران في الرواق، ولأن سامية لم تشعر بها خلفها أكملت صارخة.

- كم أنت أناني يا رجل... إذا لزم الأمر سأطلب آخر شخص تتوقعه ولن أمد إليك يدي... أنت فقط استرح واترك نقودك في جيبك... أما أنا فنجاح العملية التي ستجريها أمل هو أكثر ما يهمني... سأموت من قهري لو أنها تصاب بالعمى.

كان حميد قد رأى أمل تفتح الباب خلف سامية لكنّه تعمّد السكوت واستمع بشماتة إلى لوم زوجته، بينما تكلمت أمل بحروف مرتعشة رجّت روح سامية كأنما زلزالا قد سرى بين ضلوعها.

- أمي... مستحيل... الآن فهمت سبب بقائي هنا وفهمت معه سبب الألم الذي ينتاب رأسي طول الوقت، كيف تجرأتم على إخفاء حقيقة مرضي وأنتم تنظرون إليّ...؟
- دعيني أفهمك يا ابنتي ...لقد كنا ننوي إخبارك عندما يطمئن قلبك...

بترت أمل كلام والدتها بحدّة محدثة صخبا دوّى في كل أركان المستشفى.

- لا يا أمي أتعتقدين بأن وضعي سيتحسن إذا ما أخفيت الحقيقة عني؟

كانت أمل تتكلم والدموع تنهمر من عينيها، صراخ وتوتر حذر منه الطبيب، لم يطل حديثها حتى سقطت فاقدة وعيها،

فركضت سامية إليها بسرعة بينما رمى حميد السيجارة من يده وداس عليها بطرف حذائه وخاطبها شامتا.

- استمتعي الآن بعد أن أسمعتِها بصوتك العالي.
- يكفي.. ابتعد عنا... لا نريدك في حياتنا ...لا نريدك.

صرخة تكاد تحاكي بوجعها صراخ أهل سقر..

نيات حميد غدت تستهدف روح الأم بصخرات من الجمر..

تجاوزتها إلى من جعلتهما خطا أحمر ..

إنهما فلذتا كبدها...

بدأ المؤشر الذي اعتمدته لسنوات ينكسر...

لا...

لعل في جعبتها فرصة على مشارف القبر تحتضر ...

لا تزال هناك بقايا صفحة ما من أجله ...

إنها في دفتر رث قديم مشوّه الصور ..

لا تريد من عائلتها أن تتوقف عن السير ...

يجب أن تستمر ..طريقها صعبة...

لكن الوفاء الذي داخلها لا يغدر البشر ...

هو وفاء أصيل حر...

يحتمل الأمرّ.. ليبلغ النور المنتظر..

مؤمنة أن الأمور ستتيسر ..

... ليعود إليها ما ظنت أنه لروحها هجر.

انتهى فصلنا هذه المرة بألم أمل والدمع يغرق عينيها الجميلتين، فهل ستجري العملية أم أنها سترفض؟ وإن رفضت

من سيقنعها؟ يبدو أن المشكلات التي تحوم حول أمل سترهق دنيا ورهف أيضا، لأنهن كالجسد الواحد الذي لم ينفصل يوما في أوقات الحزن ولا أثناء الفرحة.

لم يكفنا غموض العم سمير ونظرات فاطمة القلقة، لتظهر شخصية جديدة كانت ابتسامتها ضربة سكين بالنسبة إلى العجوز، هل يخشى السيد مهداوي انكشاف تلك الأسرار التي يشعر بها كل من يحدثه؟ أم أنه يخشى انكشاف آلام وصرخات ترفض النوم في قبرها؟ تطرح تلك الصدمة الكثير من التساؤلات؟ وعلى الرغم من قسمات العم التي تؤكد معرفته الجيدة بذلك الشاب فإنه خطرت بباله تساؤلات من نوع خاص، شخصية كسرت أول الحقائق عندما نادته بيوسف، فمن يكون هذا الجار؟ وكيف ارتبط قدره بعائلة بن زيان يا ترى؟ بل ماذا يريد ذلك الشاب من دنيا؟ تصميمه على بلوغ هدفه سيكون جديرا بالمنافسة أمام عنادها الذي لم يعرف الخسارة يوما

الفصل الرابع: حقيقة خلف المرآة... نحن عيناك.

صباح جديد بدأ بنسمات اختلطت بها الأنفاس حتى النخاع، كان هناك شبكة من الاضطراب اختفت تحت ابتسامات لا يمكن أن نجزم بأن جميعها كاذبة، هناك ابتسامات لم تتحسس الاضطراب بعد وأخرى تحوكها لغيرها وبالمقاس المضبوط، بين كل الخطوات تهافتت الحركات باختلافها وجثمت أنفاس شخص واحد، استقرت نظراته عند باب سي أحمد حتى يخاله الناظر تمثالا حجريا لن يتحرك أبدا، خرجت الصديقتان من المنزل فتحركت عيناه بلهف وأمسك ركبتيه بارتباك منصتا لسؤال دنيا عن سكون صديقتها التي لم تخرج بعد من الدوامة التي اكتسحت حديثها مع والدها عندما كانا في السيارة.

- ما بالك صامتة اليوم يا رهف؟
- لا شيء لكنني لم أنم جيدا البارحة.

وجهت الفتاتان التحية إلى العم سمير المتوتر على غير العادة، ليرد بهدوء مصطنع.

- صباح الخير... كيف حالكما؟

التقت نظرات دنيا بنظرات الشاب دون أن تعرف أنه كان يتبعها طول الوقت، كان شابا في السابعة والعشرين من عمره، عريض المنكبين، طويل القامة، له وسامة العربي الأصيل، عيناه

عسليتان وشعره الكستنائي يصل حدّ الأذنين، يرتدي سترة صوف رماديّة، وسروالا من الجينز الأسود، قعد مطبقا قدما على قدم، كان يرمقها بنظرات أثارت استغرابها، ومباشرة مدّ يده لمصافحتها مخاطبا إياها بلهجة مشرقية.

- سلام ...إنت دنيا صح؟ بقدملك حالي أنا بكون رضا أبو غزالة من فلسطين.

رفضت دنيا مصافحته وابتعدت خطوة إلى الخلف فامتعض وجهه وأنزل يده، كانت هي الأخرى تنظر إليه بعمق كأنها تبحث عن شيء ما كانت تجهل ماهيته بالضبط، وردت بهدوء.

- تعرف اسمي إذا... هل أساعدك في أمر ما؟
- كل ما في الأمر أن العم سمير حدثني عن بعض جيرانه وكنت أنت من بينهم.
- هل لديك أقارب من فلسطين يا عم سمير؟ لم تخبرنا من قبل ...

كان ذلك سؤال رهف معبرة عن فرحتها لمقابلة شخص فلسطيني، وبمجرد أن نظرت دنيا إلى العم سمير حتى ارتبك محولا نظراته إلى رهف، ثم ردّ وقد أحس بنار ستهب على منزل سي أحمد.

- لا يا رهف... بل هو ابن صديق لي فقط.

لمّا طالت نظرات الشاب رضا استاءت دنيا فزمجرت عليه منزعجة.

- ما الأمر؟ أهناك قرنان فوق رأسي؟ لماذا تنظر إلي بهذه الطريقة؟

امتقع وجه رضا بينما تدخل العم محاولا الإنقاص من حدة الموقف.

- أعتذر يا ابنتي... هيا اذهبي لدراستك فقد تأخرتما ...أليس كذلك؟

بعد هنهية صمت سادت المكان اتخذت دنيا دربها إلى الثانوية مع رهف، وقبل ابتعادهما خرج السي أحمد مهرولا يحمل في يده مفتاحا أخذ يلوّح به باسما، ركضت أسماء نحو دنيا وأمسكت يدها لتستوقفها، فيما تنهد سي أحمد مرتاحا وقال.

- جيد أنني لحقت بك يا ابنتي.

لم يستغرق الوقت ثواني حتى عاينت دنيا حركات والدها وسألت.

- خيرا يا أبي، أليس هذا مفتاح الغرفة الذي أضاعته أمي؟

ابتسم سي أحمد وقال في حنوّ.

- بلى... إنه المفتاح ذاته.

قاطعته أسماء بحيويتها المعهودة...

- أنا من سيقول لها يا أبي.

رغم ثقل كلمات أسماء مع من يحدثها، إلا أنه كان لديها سرعة استيعاب ممتازة، لذا تقدّمت رهف منها وجعلت تقول بلطف.

- حسنا أطربينا يا أسماء.
- ليس قبل أن ترى دنيا هديتي لعيد ميلادها... خذي يا أختي، وكل عام وأنت بألف خير.

كان بين يديها المكنوزتين هدية مغلفة بغلاف أبيض برّاق وقد تدلّت منه شريطة حمراء أحيطت بإطار أخضر، أخذتها دنيا مبتهجة وهي تقول.

- شكرا لك يا حبيبتي، وماهي يا ترى؟
- افتحيها... وستعرفين.

فتحت دنيا الهدية، فوجدت بين الغلاف شيئا قدسته ولطالما افتخرت به وزيّنت به معصمها، مذكرة خضراء ألصق عليها صورة العلم الوطني الجزائري، تقدم رضا من الخلف يسترق النظر، فيما كانت رهف تطلّ على دنيا من الخلف مستندة على كتفيْها لما صرخت الأخيرة وهي تقلب صفحات المذكرة.

- رائعة يا أسومة لقد اخترت أجمل شيء عندي، سأضعها في عيني... وأكتب فيها أجمل ذكرياتنا.

حضنت دنيا أختها بمحبة تؤكد صدق العلاقة التي تربطها بمن هم حولها، كان واضحا أن الجميع يمتع ناظريه بهاتين الأختين إلاه،... إنه رضا، لقد احمرّ وجهه مغتاظا وشدّ على شفتيه بمقت، ليلتفت على إثر صوت رهف حين غمزت أسماء سائلة بفضول.

- لم أعد أصبر، والآن يا أسماء ما سر هذا المفتاح؟
- أنه مفتاح غرفة دنيا الجديدة... وهذه الهدية من أبي وأمي.

رفعت دنيا بصرها إلى والدها الواقف قرب العم سمير... ثم عادت بالأنظار لأسماء.

- غرفتي! كفاك تلاعبا يا مشاكسة...

هذه المرّة قاطعها سي أحمد مقتربا منها، وما إن بلغها حتى وضع كفّه على رأسها.

- كل عام وأنت بألف خير يا ابنتي، وهذا المفتاح هو لك من اليوم.

حضنت دنيا سي أحمد مقبلة جبينه ثم أمسكت المفتاح بشوق، مشهد أدمع عيني رضا فأسرع بلبس نظاراته الشمسيّة ليخفي بها عبراته الغريبة، فيما مسح سي أحمد دمعتها بيديه المتعبتين وخاطبها.

- لا أريد أن أرى دموعك ثانية... والآن ألا ترغبين في رؤية التعديلات التي طرأت عليها؟ هيا تفضلي معها يا رهف وأنت أيضا يا سمير لأن شاي السيدة بن زيان يكاد يكون جاهزا.

ركضت دنيا مع رهف وأسماء إلى الداخل بينما اكتفى رضا لحظتها بالصمت وفضل سماع كلمات سي أحمد.

- لا أدري يا سمير ولكن الضحكة على وجهها تنسيني كل الهموم، فهي حقا نعمة من المولى.

ازدرد سمير ريقه ونظر إلى رضا، ثم أكمل مبتسما.

- حماها الله ومنْ يراها ولا يحبها؟ ...حقا هي نبع الطيبة... كثيرون في حاجة إلى جرأتها يا أخي.
- بل هي نعمة على جميع من هُم في البيت، حتى أسماء غدت تقلدها في كل شيء... واكتسبت منها فطنة تنسينا غالبا تلعثمها، فقد لمست حب دنيا للجزائر واختارت لها ما تعدّه كنزا وهو علم البلاد.

ضمّ رضا أصابع كفيْه حتى يعتقد الناظر أنه سيكسرها في أي لحظة منصتا لقول سمير.

- يقال أن حب الوطن يستمد من فطرة الإنسان لكن حب دنيا للجزائر فاق هذه الغريزة حتى أنها لا تخرج إلا بعدما يزدان معصمها بسوار العلم الجزائري الذي وضعتَه عندما كنت في جبال غزة، فهنيئا لهذه الأرض بها.

أحسّ رضا بأن سمير يتعمد استفزازه فغضب ودخل الدكان ليسأل سي أحمد مرتابا.

- من يكون؟ لم هو ينتظر داخل دكانتك؟

ارتبك العم سمير وردّ متلعثما.

- الشاب؟ هو شاب يبحث عن عمل... وتدرك أنني أصبحت كهلا وأحتاج لمساعدة في تنظيم الدكان... وإحضار السلع... لذا وظفته عندي.
- من يسمع هذا الكلام يقول أن لديك مركزا تجاريا... وليس دكانة مساحتها أمتارا قليلة.
- الحمد لله يا صديقي... الحمد لله.

عندما دخلت الفتيات وجدن الغرفة أروع ما تكون، سرير نظّمت فاطمة فراشا زهريا جديدا عليه بطريقة راقية، خزانة صغيرة بها درجان عند رأسها وقد وضع فوقها منبّها ومصباحا ليليا شبيها بالفانوس، مكتب جديد عند زاوية الغرفة ومكتبة لم تمتلئ بالكتب بعد، خزانة خاصة بملابسها وزربية منسوجة بأنامل الأم تتربع على أرضية الغرفة، أخذت رهف تتحسس الأغراض وتقلبها قائلة.

- جميلة جدا يا دنيا...
- معك حق يا رهف...حقا فاجأتموني.

نظرت رهف إلى ساعة المنبه لتتذكر وجهتهما قبل دقائق فصرخت ساحبة دنيا من ذراعها.

- يا إلهي... علينا الذهاب فورا... لقد تأخرنا وسنواجه مشكلة كبيرة.
- إلى اللقاء يا غرفتي... أعدك... سأعود هذا المساء لأرتاح في حضنك إن شاء الله.

سعادة انتظرها الجميع رسمت على وجه دنيا أخيرا، لم يبعد رضا نظراته دقيقة واحدة عنها، راح يتتبع ضحكتها النابعة من القلب عند هرولتها مع رهف إلى الخارج، وعدت بطلتنا غرفتها بأنها سترتاح في حضنها هذا المساء فهل ستفي بوعدها؟ فرحة أهداها سي أحمد إليها في أحلك الأوقات كما اعتاد دوما، الأب المثالي الذي لا يبخل عليها بروحه إن طلبت يوما.

بعد خروج دنيا ورهف من المنزل، أدخل سي أحمد العم سمير إلى غرفة المعيشة، وطلب من فاطمة إحضار الشاي قبل أن يشرد واضعا يده في جيبه، وبعد تردد تجلى على قسماته سحب الورقة التي قذفت مع الحجر إلى غرفة دنيا في المستشفى، وفي هذه الأثناء وصلت فاطمة من أجل تسليم الشاي لكنها فضّلت استراق السمع خلف الباب، ليهمس سي أحمد.

- خذ هذه الورقة يا سمير... أنت الوحيد الذي يمكنه إرشادي ...
- ما هذه الورقة؟
- اقرأها وستعرف.

فتح سمير الورقة المطويّة لتنفجر الدهشة من عينيه بمجرّد أن وقعتا على تلك الرموز.

" حرف (A وN) بالفرنسية يتوسطهما شكل نجمة "

سكنت أنفاس سمير لحظات وقبل أن يقول أي كلمة كان هيثم قد فتح الباب ودخل ملقيا سلامه ففوجئ بفاطمة واقفة عند العتبة تحمل صينية الشاي، حدجها بنظرة مرتابة لكنها ردّت مباشرة.

- لقد انتهيت من إعداد الشاي وكنت سأنادي والدك... ولكن بما أنك وصلت احملها عني لعمك سمير.
- أمي جهزي نفسك... ستذهبين معي إلى السوق...

لم يولي هيثم الأمر اهتمامه وأخذ الصينية، ككل أهل الحيّ كانت فاطمة أكثر الناس ارتيابا من تصرفات وحركات سمير الهادئة فوق اللازم، كان ينتابها الخوف كلما رأته يهمس مع سي أحمد، كثيرة التنصت خلف الأبواب، وتعتقد أن خطرا ما سينفلت منه طالما ظل يحوم حول عائلتها، وعلى خلاف جميع من يحاول التقرب من هذا العجوز كانت فاطمة تحاول دائما الابتعاد عنه وإبعاد زوجها عن رفقته، لكن سي أحمد يتشبث بصحبته في كل مرّة، لم تطل فاطمة الحديث مع ابنها وتوجهت إلى غرفتها لتلبس حجابها بينما دخل هيثم وبدأ يسكب الشاي على عجل، أخفى سمير الورقة في جوف قبضته، والتقط سي أحمد أعصابه ليسأل ابنه.

- ما الأمر؟ أليس من المفترض أن تكون في عملك؟
- بلى... ولذلك تراني على عجل... خرجت دون إذن لأشتري هدية من أجل دنيا وأرجو أن تسمح لي باستعارة أمي.

ابتسم سي أحمد دون رد فرفع هيثم سبابته ووسطاه مازحا.

- ساعتان فقط...
- ذكرها أن تأخذ المفتاح... سأخرج بعد قليل...

لم يطل الأمر حتى خرج هيثم مع والدته، ليقول سي أحمد مرتاحا.

- بخروج فاطمة يمكننا أن نناقش الموضوع دون همس وتمتمة.

توجهت شكوك سمير مباشرة إلى رضا فغرق في تفكيره، ليهتزّ بدنه سائلا بمجرد أن وضع سي أحمد يده على كفّه.

- ماذا قلت؟
- أتكلم معك عن الورقة...

فتح سمير كفه ونظر بصمت ثم استعاد تركيزه وسأل سي أحمد.

- كيف وصلت هذه الورقة إليك؟
- بل وصلت إلى يد دنيا... هناك من قذفها إلى غرفة دنيا عندما كانت ترقد في المستشفى ...

- هل قرأتها؟
- نعم، ولكن لا تقلق استطعنا أن نقنعها بأنها ليست المعنية بها... وأعتقد أنها نست أمرها لأنها منشغلة الآن بصديقتها أمل... ولكن الأهم الآن أن نعرف من أرسل هذه الرسالة الواضحة... إنني أخشى ...

قاطع سمير صديقه وقد تيقن بأن رضا من فعل ذلك.

- لن يجدوا مكاننا بهذه السرعة... لا تخش شيئا وإن لزم الأمر سنتصرّف...
- انتظرناهم بعد سنة وبعد سنتين انتظرناهم بعد عشر سنوات... فكيف لا ننتظرهم وقد مرت خمس عشرة سنة منذ آخر لقاء لنا بهم... هل وصلك خبر ما... أو رسالة مشابهة؟

ارتبك سمير مجددا وسكت هنيهة ثم قال بغصّة في حلقه كادت أن تكشفه.

- لم يحدث بعد... ولكن لا ترتعب يا أحمد حتى لا ندخل الشك في قلبها... وأنت تعرف أنها إذا شكت انتهى كل شيء... بالنسبة إلينا وبالنسبة... إليها أيضا...

ثم أخذ ألمه وخرج نحو دكانته وللمرة الأولى تبدّى على ملامحه طلاسم غضب مخيفة.

بعد ركض طال كل الطريق وصلتا إلى الثانوية، حاولتا التسلل إلى الداخل بحرص لكنهما وجدتا المراقبة سليمة عند المدخل،

ضربت دنيا وجهها في تأسف مبتلعة ريقها، بينما خاطبتهما المراقبة بامتعاض شديد.

- صباح الخير أيتها العنيدة وصديقتها ...

ابتلعت رهف ريقها بصعوبة ثم قالت مرتعبة.

- أستاذة سليمة... صباح النور.

لم يكن غضب سليمة هذه المرة إلا بعد شحن من نور ردّا على تصرف دنيا معها في المستشفى، وبهدوء ظهرت من خلف المراقبة وكلمتهما مبتسمة بتعجرف، فيما تغيرت ملامح دنيا بمجرد رؤيتها.

- أجئتما متأخرتين كالعادة؟ وكأنكما لا تهتمان لكلام أستاذتنا الموقرة... إنها حقا قلة احترام منكما... خصوصا أنت يا دنيا، نفس الخطأ الذي تنبهك الأستاذة من تكراره تتعمدين فعله في كل مرة... وتسببين المشكلات لصديقتيك... أما آن لك أن تعتقي رقبتيهما يا ...

لم تكد نور تنهي كلماتها حتى أصيبت بحقيبة دنيا عند كتفها وقد توجهت إليها بغضب محاولة الدخول معها في شجار، أمسكت رهف صديقتها بصعوبة فيما سحبت سمر نور إلى الخلف، هي موقنة بأن دنيا لا تضع اعتبارا لأي أحد أمامها إذا ما اقتربت منها، ليس هذه المرة فحسب بل كثيرا ما دخلت معها في عراك بالأيدي في منتصف الحصص وأمام أساتذتها دون اكتراث لأي عقاب، فصرخت الأستاذة سليمة وقد استفزتها جرأة دنيا.

- كفاك يا بن زيان ...فالإدارة تنتظرك... بسرعة.

نظرت إلى رهف مكملة.

- وأنت معها يا رهف أما البقية فليتوجهوا إلى أقسامهم.

ذهبت دنيا لحمل حقيبتها وهي تتوعد نور بإصبعها بصمت، بينما أمرتهما الأستاذة بالركض عشر دورات حول ساحة المؤسسة كعقاب لتأخرهما المتواصل ولم يكن أمامهما خيار إلا الامتثال لأوامرها، كانت نور تطل من نافذة القسم في الطابق الثاني وتستفز دنيا بنظراتها، أما رهف فظلّت تحاول إبعاد مشاعر الغضب التي أهاجت صديقتها بتغيير محور الحديث منصتة لحنق الأخيرة وتوعّداتها.

- بيننا الدقائق أيتها العقرب وسنرى هديتك.
- تجاهليها يا دنيا... هاه أخبريني ما رأيك بذلك الفلسطيني الوسيم؟
- ستكون نهايتها على يدي... أما عن ذلك الغريب فلم أطمئن له أبدا.
- غريب أمرك... من يسمع قولك لا يصدق أنك تتغزلين بفلسطين كلما سمحت لك الفرصة.
- وما دخل قولي عن ذلك الأبله باحترامي لفلسطين، فالوجْد الذي بروحي لهذا البلد لا يجاريه سوى وجْد اعتقد أنه لصيق بحبيبتي الجزائر منفردة... إلا أنني

مازلت أراه متعجرفا... استفزتني نظراته كثيرا... لحظتها أردت ضربه لولا تدخل العم سمير.

ضحكت رهف فرأتها الأستاذة لذا جنّ جنونها عليهما وصرخت محذرة عن بعد أمتار.

- ألا تستحيان؟ كفى حديثا... بسرعة.
- لقد تعبت... أعتقد أنني سأساعدك يا دنيا... لو لم تشحنها لما عاقبتنا بهذه الطريقة.
- لا بأس لقد بقي أمامنا دورتان فقط.

سمعت دنيا رنة هاتفها معلنة وصول رسالة جديدة فهمست.

- لقد وصلتني رسالة يا رهف خبئيني كي أقرأها.
- حسنا لكن انتظري كي نبتعد قليلا عن مجال رؤية الأستاذة سليمة.

أظهرت دنيا الهاتف خفية، ثم تريثت حتى ابتعدت عن أنظار الأستاذة وراحت تقرأ بصوت مسموع.

- مرحبا يا دنيا أنا خالتك سامية، يجب عليكما الحضور في أقرب فرصة؛ لأن أمل عرفت بأمر الورم والعملية... إنها منهارة يا ابنتي.

توقفت دنيا عن الركض ممسكة ذراع رهف وأخذت تكرر كلمات الرسالة، تبادلتا نظرات الخوف ثم انطلقتا معا، حملتا حقيبتيهما وأكملتا نحو بوابة الثانوية، لم تهتما للتعب الذي سرى

بين عظامهما، أو حتى لصرخات الأستاذة سليمة التي ملأت كل الساحة.

- لم تنته الدورات العشر... هيا أكملا.

تجاهلهما لكلام الأستاذة جعلها تصرخ كالمجنونة.

- لحظة أيتها الوقحتان... ألم تسمعا كلامي؟ سأريكما ما ينجر عن عصيان أوامري وتجاهل ندائي.... دنيا...

كانت نور تتابع خروج دنيا ورهف من الثانوية فخاطبت نفسها.

- ماذا حلّ بهما؟ لا بد أنّه خبر ما يتعلق بأمل... ويمكنني أن أجزم أن المستشفى هي وجهتهما.

ثم تكلمت مع سمر التي كانت مركزة مع شرح الأستاذة.

- أصغي إلي... أنا سألحق بتلك المتوحشة وصديقتها وأنت غطي غيابي لهذا اليوم يا سمر.

لم تكد سمر تستوعب كل ما قالته حتى دهشت مع جميع من في القسم لصرخات الألم التي افتعلتها نور للخروج من الحصة، وبمجرد أن غابت عن رقابة الأستاذة حتى أرجعت سمر ثم تبعتهما متسللة من الجدار الخلفي، لم تكن نور الوحيدة التي تبعتهما خفية، بل سبقها في ذلك رضا الذي رأى هرولتهما نحو سيارة الأجرة فانطلق بسيارته خلفهما، متذكرا كلمات سمير عندما خرج من منزل سي أحمد **(قبل نصف ساعة).**

بعدما خرج العم سمير من منزل سي أحمد غضبا وجد رضا جالسا مكانه، فأسرع إليه وسحبه من ذراعه بقوة حتى صعدا إلى غرفة صغير فوق الدكان، وما إن دخلا حتى حرّر الشاب نفسه صارخا.

- ما الأمر؟ تتفوه بتلك الكلمات متجاهلا وجودي وتخرج لتسحبني بهذه الطريقة.

عندما علا صوت رضا أسرع العم سمير إلى النافذة وأغلقها ثم التفت إليه، وخاطبه ناقلا تلك الرموز باللغة الإنجليزية.

- A وN يتوسطهما شكل نجمة... أنت من أرسل هذه الرسالة إلى أحمد؟

سكت رضا لحظة ثم ارتمى على السرير وقال باستهتار واضح.

- لم أرسلها إليه بل أرسلتها إلى دنيا يا يوسف.
- هل جننت؟ لقد دخل الشك بين أفراد العائلة... وأخشى أن يصلها بعضه... عندها أسئلتها لن تتوقف.
- لحظتها ستحررني من مشقة رُميت على كاهلي مذ كان عمري عشر سنوات... لذا لا تقلق... سأجيب عن كل أسئلتها ومع كل التفاصيل ...

لمّا لمس سمير الاستهزاء والتهكم في نبرة رضا غضب واقترب منه.

- **لا تتلاعب بي يا رضا... بسببك اضطررت اليوم لأكذب في وجه أخي ...خذ أفكارك وعد من حيث أتيت... لأن ما تفكر به لن يحدث... لن أسمح لك بالاقتراب من دنيا... فلا تدخلها وسط اللهب مجددا ...**

وقف رضا بقفزة رشيقة وجعل يقول بنبرة أكثر جديّة.

- **سأعود... لكنني لن أعود بخفيْ حنيْن... رسّخ هذه الكلمات في ذهنك جيدا... وأنا لم أجتز كل هذه المسافة لأطلب إذنك أو حتى إذنها يا عم يوسف... أولستُ صاحب الاسم؟... سأستعيد اسما اعتقدتم لسنوات أنه لم يولد يوما ...**

لم ينتظر رضا أيّ ردّ من العم سمير وأخذ معطفه الجلدي الأسود القصير وانطلق إلى الخارج، لتعود به الذاكرة موقفا سيارته بعد نزول رهف ودنيا، رغم عجلتهما إلا أن دنيا رأته ينظر إليهما، أبعد أنظاره مباشرة باتجاه إشارة المرور التي كانت أمامه متظاهرا بالاستمرار، اعتقدت دنيا أن الأمر مجرد مصادفة وأكملت طريقها نحو المستشفى، فيما ركن رضا سيارته جانبا، لينزل خلفهما بخطى متسارعة، وما إن اختفى حتى وصلت سيارة أجرة نزلت منها نور ومضت بدورها خلفهم.

في المستشفى، وقفت السيدة سامية قرب الباب، بينما كانت أمينة متكئة على الجدار في صمت كئيب، أما حميد فكان جالسا

على أحد المقاعد قاذفا لومه على زوجته من خلال نظرات عينيه الباردتين، وماهي لحظات حتى وصلت رهف ودنيا التي سألت.

- كيف عرفت أمل بالمرض يا خالة؟ كيف أخبرتموها بهذه السرعة؟
- ظننت أنها نائمة... ثم تشاجرت مع حميد وبعدها سمعتْ وحدث ما حدث.

نظرت دنيا إلى حميد بامتعاض ثم قررت الدخول للحديث معها، لذا توجهت إلى الباب قائلة.

- سأحاول التكلم معها.
- لقد رفضت الحديث مع الجميع، تعلمين حدة طباعها.
- ليس معنا يا خالة، لندخل يا رهف.

وقف حميد بتعجرف وتقدم منهنّ، مستوقفا دنيا التي فتحت الباب قليلا.

- ما من داع لمقابلتك لها... فأنت نذير شؤم وستنتكس حالتها ثانية.

التفتن إليه وقد وجه كلامه إلى دنيا مشيرا بكفه، فاقتربت منه بجرأتها المعتادة.

- عندما أسمع ذلك منها أتراجع عن دخول الغرفة... وغيرها لا يهمني رأيه... فحتى إن كانت تحمل اسمك... لا يمكنك منعي من رؤيتها... أو حتى تشتيت ما

يجمعنا... وقد حاول عقرب فعل ذلك من قبل ولقي ما يستحق.

من مكان ليس ببعيد امتعضت أنفاس تراقب من الخلف خلسة، أدركت نور مباشرة أنها المقصودة، فراحت **تداعب أثر الجرح الذي بخدّها، متذكرة ما حدث قبل أشهر عندما كانت دنيا، رهف، أمل ورنا صديقات يضرب بهنّ المثل في الوفاء، ضحكتهن جمعت الجميع حولهنّ، التفاف التلاميذ وحتى الأساتذة المتكرر بهذه المجموعة كان يزعج فتاة عرفت بعجرفتها المتواصلة، لم تحتمل نفورهم منها وشعرت للحظة أن دنيا ومن معها هم السبب في بقاءها وحيدة متناسية تكبّرها وغطرستها مع الناس، لم تؤمن نور يوما بالصداقة، ولم تثق بأحد غير غرورها، الوحدة التي كانت تتملكها ملأت قلبها بشرّ لا محدود ضد من اعتبرتهم السبب، غيرة غير طبيعية دلقت من عينيها كلما رأت الصديقات يتبادلن الحديث مع البقيّة، كانت الخطة الجهنمية التي وضعتها قد انطلقت بعد مناوشة جمعتها بدنيا أثناء حصة اللغة العربية على إثر جواب أحد زميلاتها عن سؤال طرح حول الصداقة بين الماضي واليوم، يومها ضحكت ساخرة عندما قدمت الفتاة مثالا عن الصديقات الأربع، لوحت مستصغرة حديث زميلتها ومتجاهلة وجودهنّ أو حتى رؤية الأستاذة لها، لم تكن تلك المرة الأولى التي تتصرف فيها بمثل هذه التصرفات المتغطرسة، لحظتها تجاهلت دنيا تلك**

الحركة لكن الأستاذة ردت على السخرية التي طالت تلك الكلمات منزعجة.

- ألن تكفـّي عن تصرفاتك المتعجرفة مع زميلاتك، ما المضحك في كلامها؟ أنت لا تجيدين سوى إيذاء غيرك واحتقار من هم حولك.

في حركة استفزازيّة غريبة وقفت نور ساخرة وردت بحقد تناثر من عينيها.

- اندثرت... انقرضت... لم تعد موجودة... الصداقة لا تكون بين اثنين إلا وكان خلفها مصلحة من نوع ما.

من الخلف ردت أمل بحدّتها المعهودة.

- أنت لم تجربيها حتى تعرفي قيمتها يا نور... ومن لم يجرب هذه المشاعر لا يحقّ له التحدث عنها... حاولي مخالطتنا وسنعلمك بعضا منها... علّك تغيرين رأيك المتعجرف.

نظرت دنيا إلى أمل بحدة بعدما شعرت أن كلامها فيه ظلم من نوع ما فسكتت، فيما تطاير الشرر من نور ضد أمل وقد أصابتها حمى الغيظ، وقبل أن تقول نور شيئا ردت دنيا بهدوء ناصحة.

- ليس بين الجميع يا نور... أوافقك أن هناك ممن يفكر مثلك... وأنا لا أرى عيبا في أن أجد مصلحة في أمل أو

أن تجد رنا مصلحة في رهف... لكن العيب يكمن في التخلي عن أصدقائنا بمجرد انتهاء المصلحة التي تتحدثين عنها... العيب في اعتبار ما نفعله من أجل أصدقائنا خدمة وننتظر المقابل... عندها تكون صداقتي مع غيري متوقفة على تحقق ذلك المقابل... ما نفعله هو فقط تعاون... محبة... عِشرة... ألفة جمعتنا... ومهما استصعبتها لا يحقّ لك إنكارها... أم أنني مخطئة؟

في الحقيقة لم تتواجه نظرات دنيا ونور من قبل، رغم أنهما تدرسان في نفس القسم منذ انتقالهما إلى الثانوية، كانت نور تتجاهل وجودهنّ، تتهرب من الاحتكاك بهنّ طوال الأولى ثانوي وهاقد بدأت السنة الثانية وبقيت محافظة على مقتها لهنّ، لكن في ذلك اليوم التقت النظرات بينهما بحدة وهي تقول بذات الإبتسامة.

- هراء يا بن زيان... جميعنا يمكننا ابتداع مثل هذه الكلمات... حتى مجموعتك التي أصبحت عبرة يحتذى بسيرتها على لسان من في هذا القسم بل على لسان أهل الثانوية... تجتمع وتفترق بمجرد كلمة واحدة... مصلحة... لتبحث كل واحدة منكنّ عن مصلحتها عند الأخرى... صدقْنَني ستجدْنها... ولو أخفيتنّ ذلك... هي موجودة في أعماقكنّ... فسحقا لهذه الكلمة الواهية.

مع تلك الكلمات نظرت رنا مباشرة إلى قدمها المشلولة محمرة الوجه، غرست سؤال نور في ذهنها دون الأخريات، ولم يكن صعبا على فتاة داهية مثل نور اصطياد ردة الفعل تلك، أخذت تحللها وتصوبها كما تريد، رنّ الجرس معلنا عن نهاية الحصة وبداءة الخطة التي نسجتها نور وهي تراهن نفسها على صحة ما تقول، وقبل أي رد جمعت أدواتها وخرجت.

كانت ردة فعل رنا التلقائية هدفا ستسعى نور لاستغلالها، ستستغل عجزا أصاب قدم رنا اليمنى لمصلحتها، بل لنقل ستستغل إحساس رنا بالنقص،... فالمشكلة التي تحطم أمثالها ليس الإصابة بعجز ما، ولكن يحطمهم شعورهم بالاختلاف، هم يشعرون أن كل الأعين، الكلمات، المعاني، الإشارات... موجهة إلى هذا العجز الذي اعتبروه دائما جحيما، فأصبحوا - بمساعدتهم - محلا للاستغلال، بينما كان بإمكانهم أن يستغلوا ضعفهم ليثبتوا أنهم على قناعة تامة بأن الاختلاف لم يكن يوما بسبب إعاقة أو نقص.

تريثت نور أياما قبل الشروع في تنفيذ مخططاتها، ولما جاء اليوم الذي انتظرته كانت فريستها الأولى هي أمل، انطلقت إليها أين كانت تنتظر الفتيات قرب الباب بخطوات ثعلبيّة، لما دنت من أمل بادرت بإلقاء السلام أمام استغراب الأخرى لعلمها كما يعلم الجميع طباعها الانتهازية، رغم القشعريرة

التي سرت بدن أمل ردت ببرودة ولم يخطر ببالها الفتنة التي ستتبع ذلك السلام.

- **وعليكم السلام... خيرا... يا نور.**

طأطأت نور رأسها دامعة العينين في حزن مصطنع مجيدة دورها... فتفاعلت معها أمل وسألتها بلطف.

- **ما الأمر يا نور؟ هل يمكنني مساعدتك في أمر ما؟**
- **لا أدري كيف أبدأ كلامي يا أمل... قبح أفعال يجعل الجميع يشمئز مني ولا بدّ أنك ستكونين منهم... ولن ألومك لأنني ...**

بترت أمل كلام نور عندما دمعت عيناها وقالت.

- **تبكين؟... أقلقتني... أخبريني بوضوح أكثر.**
- **دموعي لا شيء أمام الأذية التي أوجهها لغيري، صرت وحيدة بسبب طباعي التي صرت أنا نفسي أمقتها بشدة... لم أعد أنم الليل وأنا أفكر في صيغة تجعلكن تقبلنني رغم هذه الطباع السيئة التي اشتهرت بها...**

وضعت أمل يدها على كتف نور بطيبة وجعلت تقول.

- **نحن من يتحكم في طباعنا... ولم أسمع يوما أن الطباع تسيطر على صاحبها إن لم يسمح لها هو بذلك، ويمكنك أن تتدارك أخطاءك مع غيرك متى أردت يا نور.**

- لا أعرف كيف أجذب شخصا ليصادقني... الفتيات يتهربن من النظر إلى وجهي، فكيف سأبادلهنّ أطراف الحديث؟.. لن يصدقنَ تغيّر تصرفاتي وسيعتقدن أنني أخطط لأمر ما... ولكنني حقا أريد أن أتغير يا أمل... إسمحْن لي بالبقاء إلى جانبكنْ ...

قبل أي رد من أمل وصلت دنيا، رهف وكذلك رنا فلاحظن ارتياب صديقتهن فيما تراجعت نور تنظر إلى دنيا منصتة إلى سؤالها.

- خيرا ماذا هناك يا أمل؟... لماذا تقفين مع نور؟

في حركة غريبة، بل في خطوة واحدة قفزت نور ممسكة يد دنيا متوسلة باكية تاركة انطباعا غريبا في أنفاسهنّ.

- أعرف أن الوقوف إلى جانبي عار على الجميع يا دنيا.. ولكن لا ذنب لأمل أنا من دنوت منها أولا... امنحيني فرصة لأكون إنسانة جيدة وصديقة يُفتخر بصحبتها... إقبلي أن أنضم إلى مجموعتك ...

لم تستوعب دنيا ما الذي يحدث قبل أن ترد أمل بطيبة ويدها على كتف نور.

- ببساطة نور تريد أن تكون واحدة منّا... تحاول أن تتغيّر... ولقد طلبت عوننا... وأنا موافقة على انضمامها يا فتيات... ما رأيكنّ؟

قالت رهف باسمة.

- وأنا لن أمانع... المهم أن نعرف أخطاءنا... والجميع يستحق هذه الفرصة.
- معك حق يا رهف... والآن سنكون خمسة في أعين الحساد، ونكون بصداقتنا أقوى من قبل.

ضحكت البنات من كلمات رنا، أما دنيا فبقيت مرتابة في قرارتها ولما طال صمتها قالت نور بنبرة يائسة.

- كما توقعت... هاهي دنيا لم توافق وأنا لا ألومها... أشكركنّ ولكنني أعلم أن القرار النهائي هو لقائدتكنّ التي لن تستبدلنها بواحدة مثلي.

ابتسمت دنيا وراحت تقول مازحة.

- أحسستني أنك تتحدثين مع عصبة من المافيا ينتظر فيها الأتباع موافقة زعيمهم... نحن صديقات هنا ...صديقات لا أكثر... والأيام ستثبت لك أن ما تظنين أنه قائم بيننا ليس له وجود... أرحب بك أيضا لأن الأغلبية موافقة على انضمامك... ولكن لتعلمي يا نور أن الثقة هي أهم شيء يمكن أن نهبه لبعضنا... الثقة قبل كل شيء.

وافقت الفتيات على انضمام نور للشلة تلبية لطلبها، علّها تبتعد عن انطوائها، علّهن يكنّ بحرا من مكارم الأخلاق مهما انتقت لن تنتقي إلا ما ينفعها ويزيد من استقرار علاقتها مع الجميع... وافقن يومها ولكن ليتهن لم يفعلن.

في المستشفى حيث رفع حميد يده مانعا دنيا من دخول غرفة أمل مهددا.

- احترمي نفسك يا فتاة قبل أن أخطئ في حقك وحق أهلك أكثر، لأن حبّ ابنتي التافه لن يمنعني من إيقافك عند حدّك.
- إياك وأن تذكر اسم أهلي على لسانك، وإلا ستلقى مني ما لا يعجبك أيها الجشع.

تدخلت رهف لتقول.

- دعك منه يا دنيا فأمل تراقبك، والتوتر لن يكون لمصلحتها.

توجهت دنيا إلى أمل الجالسة باكتئاب على سريرها، تبعتها رهف متجاهلة غضبها فيما وقفت سامية في وجه حميد بقوة وأغلقت الباب بعدما دخلت معهنّ، ولما اقتربت دنيا من أمل قالت.

- كيف أصبحت الغالية؟
- كما ترين... صديقتك واقفة أمام خيارين إما أن تعيش عمياء وإما أن تموت في أجَل قريب.
- ما الذي تهذين به؟ ثم ما كل هذا التشاؤم؟
- تشاؤم !؟... بل هو واقعي الذي أعيشه الآن.

وضعت دنيا يدها على فم صديقتها محاولة إسكاتها أمام ارتباك السيدة سامية ورهف.

- لا تقولي هذا مرة ثانية... لقد وضعت نفسك أمام بابيْن لا ثالث لهما، لكن اِعلمي أن باب الفرج مفتوح دائما... وأنت من يجب عليك البحث عن مفتاحه، وحدك من سيعثر عليه يا أمل.
- لا داعي لتشجيعي، فأنا أعلم أن كل غايتك هو إقناعي لإجراء العملية، لكنني قررت وانتهى الأمر، أخرجن... لو سمحتن.
- لكن يا أمل... مرضك ليس بهذه الخط ...
- لقد قلت أخرجن... من فضلك يا دنيا لست في مزاج جيد لأسمع كلماتك المثالية.

نبرة أمل جعلت دنيا تصرخ والدموع تنزل من عينيها بلا توقف، إنفلت لسانها لتفصح عن كل ما كانت تخفيه منذ مدة طويلة، لقد تخلّت عن سعادتها المصطنعة في لحظة غضب.

- مثالية؟ يكفي يا فتاة... لقد غـُدِر بي وفقدت رنا من قبل... لقد كانت توأمي وبالكاد خرجت من سجن ذكرياتها ...أتروْنني أضحك؟ لا ...فمقابل بسمة واحدة من شفاهي تقطعني ذكرياتها،... هي موجودة في مكان ما... ولكني لن أسمح بأن أفقدك حتى لو كنتِ من قرر ذلك... لقد حاولتِ ومنعتـُك من قبل وسأفعل ثانية وثالثة ولن أيأس كما فعلت يا حمقاء، لا تفكري بالأمر حتى التفكير... لأنك ستجدينني أول من يقف في وجهك.

حضنت رهف دنيا محاولة تهدئتها فيما طأطأت أمل رأسها متذكرة قبل سنة...

بعد انضمام نور إليهنّ استطاعت كسب ثقتهن خلال شهر، ثم انتقلت للمرحلة الثانية من خطتها، بدأت تزرع شولاتها في أفكار رنا... الهدف الأساس الذي تلهث خلفه، لم يكن من الصعب عليها بناء حاجز لطالما حاولت دنيا كسره، إنه حاجز النقص الذي تشعر به رنا اتجاه كل نظرة إليها، وربما هذا الذي ساعدها... في الحقيقة هي لم تخلق هذا الشعور بل وجدته متجذرا داخل رنا... كانت الأخيرة تداريه في مكان لا يمكن حتى لدنيا وهي الأقرب إليها الوصول إليه، لم يكن تغير تصرفات رنا ملحوظا، وهذا الذي منح نور القدرة على طمس آثار تحريضها وسمومها عنهن.

في ملعب الثانوية بدأت مباراة كرة اليد، وكاد الفريق المنافس يسجل لولا سرعة رهف في إمساك الكرة لتنادي أمل.

- **أمل خذي الكرة، وكونا أكثر حذرا.**

أمسكت أمل الكرة وصوبتها مباشرة لتلتقطها أنامل دنيا صارخة.

- **هيا يا دنيا، يمكنك التسديد من زاويتك.**
- **لا أحد يستطيع التسجيل أحسن مني.**

صفّر الأستاذ معلنا تسجيل هدف التعادل وقد كانت نور واقفة قرب رنا، فعندما ادّعت المرض سمح لها الأستاذ منير الذي انتقل حديثا إلى الثانوية بأخذ راحة، بينما كانت تستغل حصة الرياضة وهي الفرصة الوحيدة التي تكون فيها رنا بعيدة عن المجموعة بسبب إعفاءها، أسعدت رنا بذلك الهدف وضربت كفها بكف نور في طيبة وثقة تامة، لتقول نور بابتهاج مصطنع.

- إنهن يشكلن ثلاثيا رائعا، أنظري إلى أمل كيف ترمي إلى دنيا دون الأخريات.
- نعم، فالجميع يمدح أداء دنيا وأمل في الهجوم... والحركات المنسقة بينهما يا نور.
- نحن نشكل خماسيا، لكن تم الاستغناء عنا في الرياضة.

ابتسمت بمكر مردفة.

- ... فأنا لست بمهارتهن وأنت...

سكتت مرسلة نظرات الشفقة كالسهام المسمومة بكل رويّة إلى قلب رنا التي ردت.

- ما الذي تقصدينه؟ أكملي كلامك.
- آسفة ولكن أريد أن أخبرك شيئا بصراحةّ، فأنا لا غبار عليّ إن تم الاستغناء عني إذ لا زلت جديدة، أما أنت

فالإعاقة جعلت منك عنصرا حياديا مثلي قبل أن أتعرف عليكن، خصوصا في مجال الرياضة.

صمتت رنا مغتاظة الأنفاس فوضعت نور يدها على كتفها مكملة كلماتها بوقاحة دون اكتراث لمشاعرها التي بان أثر وجعها على ملامحها.

- ما إلى هذا قصدت يا حبيبتي... ولكني أريد أن أخبرك شيئا مهمّا... ربما قد عجزت دنيا عن إخبارك به كي لا تجرحك وقول الحقيقة لا يجرح بقدر إخفاءها بالنسبة إليّ... لقد سمعت أمل تخبرها أن التأخر أصبح يعيق دراستها... ولأن دنيا تبادلها ذات القلق... اعتبرتك سبب تأخرها... وهي لا تريد حقا ترك انطباع سيء حولها عندك... لذا أخبرَتها أنها ستجد طريقة للتخلص منك دون أن تظهر في صورة تجعل الجميع يلومها لأنها تخلت عنك... أردت أن أخبرك لتكوني مستعدة وتتقبلي الوضع إن واجهنك به.
- لا أصدق أن أمل قد تفعل ذلك... ثم ما مناسبة هذا الكلام... منذ مدة وأنت تحاولين تحريضي...

بترت نور كلام رنا.

- أي تحريض يا رنا؟.. لا أعني شيئا من هذا الظن القاسي ضدي... وأنا لم أكن أعلم أن الحقائق تعد تحريضا بالنسبة إليك... أنا مسؤولة عن كلامي ولكن أنصحك لآخر مرة وأتمنى أن لا تحسبيه تحريضا أيضا، إن

أخبرت دنيا عن الأمر ستجده سببا واضحا لتبعدك عن الشلة وأنا لا أريد أن تُفهم نيتي بالخطأ، فكل ما في الأمر هو أنني أريد مساعدتك... فلا أحد يحس بصعوبة الوحدة أكثر مني.

من خلف نور وصلت دنيا صارخة وبيدها الكرة لتشبع فضولها في لحظة سهو الأستاذ عنها.

- ما الذي تتكلمان عنه؟

ارتبكت نور ظنا أنها قد سمعت حديثهما وقد ردت رنا.

- لا شيء يا دنيا... مجرد كلام عابر.

ردّ رنا أثار استغراب نور... لكنه منحها طمأنينة واندفاعا للإستمرار في مخططها طالما أن رنا لم تخبر دنيا بما دار بينهما رغم وضوح نيتها فقالت.

- نعم كنت أحدث رنا عن مدى صعوبة الشعور بالوحدة.
- أنا لا أضع معنى للوحدة في قاموسي يا نور ما دام...

قاطعت أمل دنيا طالبة الكرة، فابتسمت مردفة.

- ... مادام عندي أمل.

عادت دنيا إلى أمل ضاحكة وهي لا تدري أن مزحتها ستكون مساعدا لبثّ الشك في قلب رنا، بينما ابتسمت نور في الخفاء كأن دنيا جاءت لتؤكد تلك الشكوك، كلمات أطفأت

بريق رنا... لسبب ما ضعفت مقاومتها لنور بعد الردّ المازح، فيما استدارت الأخيرة بتحنان كاذب إليها وقد احمرّ وجهها قائلة.

- **وها قد سمعت بأذنك...**
- **نور هلا ساعدتني... أريد الذهاب إلى الحمام... لو سمحت.**

حينها رأتهما دنيا منطلقتين خارج أسوار الملعب لكنها لم تعر الأمر انتباها لأنهما التفتتا إلى دورات المياه.

عادت اللحظات بدنيا في المستشفى مع خطاب أمل اليائس.

- لكنني لا أريد البقاء في الظلام... وحيدة عمياء... إفهميني يا دنيا... الموت أرحم.

مسحت دنيا دموعها بصمت، فيما وقفت رهف وكلمت أمل مشفقة.

- أصلا أنت عمياء منذ هذه اللحظة يا أمل.

رفعت أمل ودنيا الأبصار إلى صوت رهف الحنون، جذبتهما حروفها المتحشرجة وهي تقول.

- نحن أيضا نشعر بما تشعرين... نعلم جيدا أن موقفك صعب، لكن إن كان أحد ما قد ينتظرنا هو الاستمرار فعليك به، إذا لم توافقي على إجراء العملية فسيتأثر دماغك بالورم وعندها ستفقدين حياتك... أما إن

تشجعت وأجريت العملية ونجحت فستستمر حياتك وحياتنا للأحسن... في النهاية وحدك من سيقرر... ولكنني متأكدة أنك ستتشبثين بأقل احتمال يمكن له أن يبقيك معنا... ومع الخالة سامية... أمينة أيضا تستحق منك هذه الثقة يا أمل... أرجوك.

- وماذا لو لم تنجح؟ ماذا لو أصبت بالعمى، كيف لي أن أعيش في الظلام؟ لن أتحمل ذلك.

بمرارة قاتلة... بنفس لا يكاد ينطلق من الأعماق... بارتعاش سيطر على كل الأوصال... أمسكت دنيا يد صديقتها وقد التقت الدموع عند ذقنها وقطرت متحدة على تلك الأنامل... سحبت نفسها ثم تكلمت بصوت مرتعش.

- لقد كنت في ما مضى قدما ترتكز عليها رنا وعندما يقتضي الأمر فسأكون عينك اليمنى لتكون رهف اليسرى ولن نتخلى عنك... لن نتخلى عنك أبدا... ثقي بي.

استطردت رهف واضعة يدها على كتف أمل التي ابتسمت رغم ألمها.

- سيبقى الأمل يا أمل...مررنا حتى الساعة بتحديات أقسى... وقد لا يكون هذا التحدي هو آخر ما سنواجهه ولكننا لن نضعف ما دمنا معا...

ابتسمت دنيا بثقة، والأحداث تأخذها مجددا إلى صديقتها وجارتها التي جعل منها القدر جرحا وذنبا في قلبها لم تستطع تجاوزه، لتخطفها الذكريات ليوم المصيبة مجددا.

قبل عدد من الأشهر أحست دنيا بتغير تصرفات رنا اتجاههن، كثرت ألفاظها الغامضة، كلمات أضحت تستهدف أمل بصورة أوضح، أرادت دائما أن تسألها عن السبب ولكنها لم تتجرأ.. جرأة دنيا التي تدفعها للوقوف في وجه الجميع استحت أمام رنا... ليس لأنها سئمت من الجدال الذي التصق بروحها وعقلها والمتعلق بمرضها... بل لأن هذا الجدال يؤذيها كلما فتح، فتجنبت في تلك الأيام ذلك السؤال... موقفها السلبي حينها جعلها تلطم ماضيها لوما عند تذكره... لماذا لم تسألها؟... لماذا أمل بالتحديد؟... لماذا رأت رنا فيهنّ نظرة النقص التي كانت تراها في جميع البشر دونهنّ؟ رأت النقص في أعين لطالما بنت فيها الثقة والقوة والكمال اللامتناهي؟ لماذا ؟ لماذا؟ أسئلة كثيرة تمنت لو أنها واجهتها بها قبل ذلك اليوم.

فضلت دنيا منح رنا المزيد من الوقت لمراجعة نفسها غير أن أمل لم تكن تملك منه الكثير، طباعها الحادة سبقت عقارب ساعتها، إحراج رنا لها من دون سبب دفعها لاستلام مشعل خاطئ... وأي مشعل؟ إنها الجرأة... مشعل لم يكن لأحد القدرة على حمله غيرها هي... دنيا... فدنيا الوحيدة التي

كان يمكن لها أن تواجه رنا بتلك الأسئلة... هي الوحيدة التي كانت تستطيع سحب غضبها... ورسم الهدوء على أمواج المشاعر المتراكمة والمضطربة في قلبها، لم يعلم أحد أن هناك من يحرك خيوطها كالدمية عندما جاء ذلك اليوم، بل عندما حانت تلك اللحظة التي اكتفت فيها أمل من المعاني التي ترسلها الأخرى باستمرار.

حيث كان التلاميذ قرب القسم منتظرين وصول الأستاذة تقدمت أمل بهدوء من رنا.

- رنا... هل لي أن أتحدث معك على انفراد؟

لسبب ما نظرت رنا حينها إلى دنيا، كأن شيئا ما داخلها يريد من صديقتها أن توقف ما سيحدث، نظرة صرخت فيها أيْ تصرفي بأسرع ما يمكن وإلا تركتك، لم تطل تلك النظرة... ربما لم تتجاوز ثانيتين أو ثلاثا، وسرعان ما تحولت لغضب عارم، عقدت دنيا حاجبيها استجابة لعمق المشاعر التي انتشرت من عيني رنا... حاولت أن تستجيب لتلك النظرة الخاطفة... هي تدرك التغير الذي طرأ على علاقتهما، حاولت منعهما من الانفراد لتبقيا تحت ناظريها فخاطبت أمل هامسة.

- أمل، يمكنكما التحدث هنا .....

سحبت رنا ذراعها من ذراع دنيا وخاطبتها محاولة الاستناد على الجدار.

- لا بأس يا دنيا... لا سبب يدفعك للخوف... فنحن لسنا على عداوة لتخشي عليَّ منها.

قالت رنا ذلك وانطلقت إلى الرواق... ظلت تمشي بخطوات متلعثمة، بقيت دنيا تمشي وراءها بإبطاء وهي تقول.

- رنا... لماذا سأخشى عليك من أمل؟... ما الذي يحدث معك؟ كلنا صديقات... وجميعنا نشكل فريقا واحدا.

تمتمت رنا بصوت وصل صداه لأذن دنيا وأمل التي تبعتهما من الخلف.

- كاذبة... جميعكن تحاولن التخلص مني... كل ما في الأمر أنكن لم تجدن الفرصة المناسبة.

مع تلك التمتمة استوقفت أمل رنا ساحبة إياها من ذراعها عند حافة الدرج صارخة.

- يكفي... أخبريني الآن كيف استنتجت قولك؟... لماذا تتفوهين بما لم يكن يوما موجودا بيننا؟

صرخة أمل جعلت نور تتقدم بخطوات غير مسموعة، بينما هرولت خطوات رهف التي كانت قد التهت مع الكراس تكمل حل واجباتها وذلك كان معهودا منها، لأن رؤيا تستنفد طاقتها ووقتها من خلال الأوامر التي لا تتوقف عندما تعود إلى المنزل، أما دنيا فأكملت مخاطبة رنا.

- وكأنني أحاول التعرف عليك أول مرة يا رنا... كيف يمكنك أن تفكري بنا بهذه الطريقة...
- صمتك يا دنيا... رغم أنك لا تحدثينني بكل ما في قلبك إلا أنني أصبحت أدرك ثقلي عليك بل على كل حياتك... وأنا كالحمقاء ظننت طول الوقت أن القصة متعلقة بمراعاتك لمشاعري... ولكنني كنت مخطئة... والآن أمل تحاول إقناعك بأن وجودي مصيبة على جميعكن.

نظرت دنيا أولا إلى أمل التي أنكرت هزا برأسها، ثم أمسكت وجه رنا بأناملها المرتعشة وهي تقول.

- لا أحد يحاول أبعادي عنك ولا يمكن لأحد منا الاستمرار من دونك... لقد أصبحت جزءًا منا... مثلك مثل رهف، أمل ونور... نحن سنعيش من أجلنا نحن... لماذا تغيرت؟

أبعدت رنا أنامل دنيا عن وجهها وردت دامعة العينين.

- لم أتغير... أنا فقط أحاول إيجاد مكان بينكن... مكان اعتقدت لسنوات أنه موجود... لكن...

أحست دنيا أنها تحاول عبثا أن تقلل من شر تلك الفتنة لكنها بقيت تحاول حين قاطعت رنا مبتسمة...

- صرت الآن متيقنة أن التي أمامي ليست رنا... على الأقل ليست رنا التي أعرفها...

و هنا تغيرت نظرة دنيا أمام صمت رنا واحتدت وهي تقول متوعدة رافعة صوتها.

- كلا... هناك من يدس المكائد في رأسك،... لن يطول الأمر وسأعرفه... عندها... أقسم لك بل أقسم لكنّ جميعا أنني سأجعله يتذكرني طول حياته ومهما كلفني الأمر، أعدك بذلك... لكن كوني عاقلة وافهمي مني.

رغم مكابرة نور التي كانت شاهدة على ذلك العهد إلا أنها اهتزت خوفا عندما وصلت أحرفه لمسامعها... خوف جعل لسانها يتحرك في محاولة للدفاع رغم أن أسهم الشك لم تنطلق إليها بعد، فقالت مجيدة الدور.

- ومن قد يفعل ذلك يا دنيا، فصداقتنا أقوى من كل شيء... وستعرف رنا كل الحقيقة عاجلا أم آجلا.

مع تلك الحروف ردت أمل بحدة.

- عن أي حقيقة تتحدثين يا نور... لا توجد إلا حقيقة واحدة يعرفها الجميع... كلنا شخص واحد وهذا الذي تعاهدنا عليه... أليس كذلك يا رنا؟
- كان ذلك في الماضي... تقاسمنا كل مشاعرنا... أما الآن فخيانتك الشيء الوحيد الذي أربك عهدنا.

استفزت نظرة رنا أمل فصرخت الأخيرة فيها صرخة جعلت دنيا تدنو أكثر أمام تلعثم نبضات رهف التي اكتفت بمحاولة إسكاتهنّ رفقة نور.

- رنا تأدبي وزني كلماتك، ما الموقف الذي بدر مني وجعلك تعتقدين أنني خنت عهدنا؟.. إشرحي أكثر لأنني أعتقد أنه من حقي معرفة القصة التي تحاك من خلفي.

نزلت دموع رنا فرفعت صوتها بعناد.

- لقد خطفتِ مني صديقتي الأعزّ، لقد كانت دنيا سندي الذي أستند عليه قبل دخولك بيننا...

توقفت دنيا متأثرة بكلام رنا الملغم، وقد استرسلت في حديثها.

- ...ليس هذا فحسب... كانت سيفي الذي أقضي به على نظرات الناس وسخريتهم، فجئت اليوم لتحسسيها بأنني عبء عليها؟
- ومن قال لك هذا؟ أنا لم أكن يوما كما تظنين...تعقلي يا رنا.

إنكار أمل جعل رنا تعترف بمن كان وراءها، فتلفظت الاسم وكلها ثقة بأنها ستجعل صديقتها تعترف بعد ذلك.

- لقد سمِعَتكما نور أكثر من مرة... هي التي أخبرتني بكل شيء فلا داعي للكذب، فعلى الأقل كانت أشجع منك ومن دنيا.

مع ذلك الاعتراف التفتت دنيا إلى نور تراقب ضحكتها من الخلف، ضحكة لا تنسى رسمتها... الشماتة التي ملأت وجهها

كشفت لها أي وحش دخل بينهن، وقبل أن ترد عليها التهت مع رنا التي تجاوزت حدودها في محاولة للتعبير عن مقتها.. ربما حينها رأت أن لسانها لم يساعدها ولم يفرغ شحنة الغضب التي كانت تتملكها، فاستندت على يدها المتحررة لتهز جسد أمل بكل قوتها وهي تقول.

- ما الذي فعلته حتى أستحق كل هذا يا أمل؟... لقد حاولتُ مرارا دفع دنيا للاعتراف بحقيقة المشاعر التي بقلبها اتجاه فتاة معاقة لا تصلح لشيء، لكنها لم تفعل.

تراجعت نور بصمت، تراقب كيف كسبت رهانا رخيصا، أما رهف فقد نادتها الأستاذة التي وصلت محاولة الاستفسار منها عن الذي يحدث، ومع التفاتة سريعة من أمل إلى صوت الأستاذة ارتخى جسدها فانزلقت إلى الأسفل بسبب هزات رنا الغاضبة، لحظتها مدت دنيا يدها بسرعة، ولكن لمّا أرادت إمساك ذراع أمل ودون قصد منها اصطدم مرفقها بكتف رنا بقوة أفقدها توازنها وعجزت قدماها على إعانتها ومنحها بعض المقاومة، كان المشهد سريعا ولم تستطع تداركه ويديها متشبثتان بأمل، سقطت رنا من أعلى الدرج، سقطت تاركة أكبر صدمة في حياة صديقاتها، صدمة مدماة تلوث ماضيهنّ الجميل، لتصرخ دنيا باسمها صرخة لاذعة كأن ما تراه مجرد كذبة أو كابوس لا بد له أن ينجلي.....

نزلت دنيا وأمل بهلع حيث سقطت رنا، فوضعت دنيا رأس صديقتها المدمّى في حجرها وتكلمت مرتجفة.

- رنا حبيبتي لم أقصد فعل ذلك، إصبري قليلا ...أرجوك قولي شيئا ...

أما رهف فخانتها ركبتاها على حملها وقعدت في منتصف الدرج مخفية رأسها بين ذراعيها تكرر (أمي - أمي)، بينما أمسكت أمل يد رنا وخاطبتها.

- رنا ...صدقيني أنت أغلى ما نملك... حسنا... كما تريدين سأترك المجموعة، أعدك... لكن لا تتركينا... هو جرح صغير وسيشفى... حتى أنه سيشفى من دون خياطة... لذا لا تخافي... أخبريها يا دنيا... لماذا كل هذا الصمت؟

في ضخم ما حدث ركضت نور مستغلة الفرصة لتخبر الأستاذة سليمة، هي تريد توريطهنّ وإبعاد الشكوك عنها بأي طريقة، أي طريقة يمكن لها أن تحطمهنّ أكثر، وما إن رأت المراقبة سليمة حتى هرولت نحوها منقطعة الأنفاس.

- بسرعة أيتها المراقبة فقد دفعت دنيا بن زيان رنا مقران من أعلى الدرج.
- ماذا؟!

كان الأستاذ منير من بين الأساتذة الذين سمعوا الخبر ولم يتردد في اللحاق بهم ليتوجه الجميع إلى المكان الذي أصيبت

فيه الفتاة، وفي تلك الأثناء جمعت رنا قواها لتحدث صديقاتها مبتلعة ريقا بين الفينة والأخرى.

- دنيا... آسفة... لكن إن كنت عبئا عليك... فأنا سأحررك منه.
- لا تقولي هذا، لقد كانت نور تكذب عليك، لم نفكر يوما بما أخبرتك به، نحن كما كنا دائما ...لماذا لم تخبريني عنها؟

ابتسمت رنا دامعة وقالت بألم.

- لقد خفت أن أفقدك ...لا أتخيل حياتي من دونك يا دنيا... لو أخبرتك كنت ستجدين فرصة لمنعي من الحديث معك... سامحي سوء ظني بك... يبدو أنني من خان العهد... أنا الخائنة الحقيقية يا فتيات... سامحنني... أرجوكن ...
- لا تفكري في هذا... سيحل كل شيء... الإسعاف قادم يا رنا لا تتكلمي كثيرا... أريحي نفسك.
- معك حق يا أمل... وأنا أشعر أن وقت الراحة حان.
- إياك يا رنا، كيف لنا نحن أن نتخيل فكرة العيش من دونك...

خطفت رنا آخر نظراتها حيث رهف ثم أغمضت عينيها مودعة صديقاتها أمام أنظار جميع التلاميذ والأساتذة، ليتدخل الأستاذ منير منصتا إلى صوت أمل تكرر مرتجفة.

- **رنا... رنا ...**
- **رنا أجيبيني... أخبريني يا أمل... لماذا لا تتحرك؟**

أبعد الأستاذ منير دنيا على جنب وجسّ نبض رنا ففهم أنها قد تأثرت بسقطتها، لقد كان ارتطام رأسها بالأرض بتلك القسوة سببا كفيلا لنهايتها، فهم الأستاذ أن الموت كان أسبق لها من الدنيا، نظرت المسكينة إليه أملا في أن يكذب شكوكها، لكنه لم يفعل... صدمته منعته من التحايل على الصديقات... فضحته نظراته المتحسرة على موت تلك الفتاة الهادئة أمام أكثر الناس رفقة لساعاتها.

صمت منير والبقية جعل دنيا تدخل في دوامة من اللوم انحصرت في اللحظة التي دفعت فيها رنا بالخطأ، بقيت تلك الحركة القاتلة تتهافت عليها، لتصرخ بعدها صرخة أيقظت رهف من ذكرياتها وهزت كل المؤسسة بكاءً، لم ينجح أي شخص في كتم دموعه، محاولات إيقاظ رنا بقيت فاشلة، صوتها لم يسمع مجددا، ارتعاشة دنيا لتمسح ما بقي من دموع على خدي رنا ظلت مستمرة... كانت تمسحها دون توقف، تبتسم حينا لتهزّ رأسها رفضا في حين آخر، فجأة قبلت جبينها وأمسكت مرفقها بمقت لتقول مرتجفة.

- **ر... رنوش... ما يقولونه مجرد كذبة... أنت بخير... افتحي عينيك أرجوك .. ارأفي بحالي فلم يعد باستطاعتي تحمل المزيد... أخبريهم أنك لن تتركيني...**

رنوش .. لن تتدخل نور فينا ثانية .. أفيقي لنلقنها درسا .. لنخبرها بأننا لم نفترق .. بأننا سنكمل المشوار معا... أربعتنا... لن ترحلي... أكدي لها ذلك .. أرجو...رذ ...

سكون شفتيها الذي طال بعث في قلب دنيا موجة من الغضب على نور فوقفت بجنون وصل إلى ذروته باحثة عنها من قسم لقسم، ركضت متجاهلة كل النداءات التي توالت (دنيا توقفي) (توقفي)، ذلك الجنون جعلها تقتحم الأقسام كافة وتبحث بين الزوايا وخلف الأبواب، ظلام جعلها تتفحص أماكنا لا تسع حقيبتها.

لما أكد الأستاذ منير وفاة رنا عرفت نور أنها لن تسلم من صديقاتها، اختبأت في أحد الأقسام ففوجئت بدنيا تفتح الباب وهي في ثورتها العارمة ثم أقفلته من الداخل منفردة بنور التي ارتطم جسدها بالجدار، كانت دموع دنيا تئن بمرارة، هدوء كلماتها واضطراب نظراتها يدلان على ضعف ما فيها، ضعف منح نور القوة لتثرثر أكثر، ظلت تكابر مصغية إلى سؤال مرتعش كسير.

- لماذا؟ لماذا فعلت بنا هذا؟ فقط أجيبيني يا نور... لماذا؟
- أنا لم أفعل شيئا... هي فقط حقيقة الصداقة التي كنتنّ تفتخرن بها أمام الجميع.

- لا أصدق... إذا... فدخولك بيننا كان مجرد حيلة للنيل منا ...

استهانت نور بدنيا فردت دون استحياء.

- أنا نفسي لم أكن أتوقع أن زيف علاقتكن يمكن له أن يصل إلى هذا الحد... ما خططت له كان قلب علاقة رنا وأمل... ثم انتظار ردة فعلك في الحفاظ على ما تؤمنين بوجوده ...
- لماذا أمل ورنا ؟ ما الذي فعلناه لتفعلي بنا هذا؟
- أتذكرين حصة اللغة العربية لقد عرضت عليّ أمل حينها مخالطتكن لأتعلم بعضا من الصداقة التي تقدسونها؟ كل ما في الأمر أنني لبّيت دعوتها... لكن كان عندي أيضا ما أعلمها إياه... وأنا لم أبذل جهدا كبيرا... لأن إعاقة رنا كانت مفتاح الجنة الذي سيوصلني لمبتغاي.

استفزت كلماتها دنيا بشكل رهيب، فيما بدأت رهف والأستاذ منير والأستاذة سليمة يطرقون الباب بقوة، أما نور فتجاهلتهم وقالت بحقد متطاير.

- لقد راهنت نفسي بأن أثبت للجميع أن ما يجمعكنّ هراء... وها قد فزت بالرهان أخيرا ...

احتدت نظرات دنيا مستهدفة ما بعثر من أدوات فوق طاولة كانت قريبة منها وقالت.

- رهان ...؟ أي رهان شيطاني هو هذا؟ تتفاخرين بتحطيمنا؟
- بالتأكيد لم أكن أستهدف موت رنا ولكنني حقا حزينة لأجلها... لقد وضعتْ يدها بأيدي فتيات أرسلنها إلى حتفها ...

بعد تلك الكلمات انفجر غضب دنيا وهجمت على نور مستخدمة مدورا كان فوق تلك الطاولة صارخة وقد علت أصوات من كان في الخارج.

- لقد أنهيتني... قتلتني معها... أنت لست من البشر... أنت حثالة كان يجب أن تحترق منذ زمن بعيد... لكن لابأس... مثلما سجنتنا في هذه الجحيم التي لن تنسى... فإنني سأجعلك تتذكرين هذا اليوم طول حياتك... لأن من لا يملك ضميرا لا يستحق العيش... لا يستحق.

مع صرخة نور كان الأستاذ قد حطم قفل الباب ففوجئ بها تتلوى واضعة يدها على وجهها والمدور المدمى بين أنامل دنيا، أسرع منير مبعدا إياها، لقد علمت بالمدور على خدّ نور الأيمن جرحا بطول ستة سنتيمترات... جرح لن يزول أثره بسهولة، أما رهف فأمسكت صديقتها خائفة تنظر إلى الأستاذ يحاول إيقاف النزيف الذي انهمر من وجه نور صارخا.

- **ما هذا؟ هل جننت يا بن زيان؟ علينا أن نوقف نزيف الدماء؟ أبعدوها من هنا...**

شحب وجه دنيا وكلّمته منهارة.

- **ليست دماءً يا أستاذ، بل هو سمّ في شرايين تلك العقرب البشري.**

ثم التفتت إلى التواء نور وهوت على ركبتيها لتقول.

- **هو دواء للسهم الذي غرسْتِهِ بقلبي أيتها الحقيرة... وثقت بك ويا ليتني ما فعلت ...لقد وعدتُها... نعم وعدت رنا أنني سأجعل الشخص الذي وراء الستار يتذكرني طول حياته وفعلت ما كان علي فعله منذ زمن.**

ضعفت آخر كلماتها وساد الظلام أمامها فاقدة وعيها بين يدي رهف، فالصدمة التي تعرضت لها لن تشفى بسهولة، وهل ستشفى؟

كانت دنيا تتذكر تلك اللحظات العصيبة وأصابع أمل بين يديها، لم تشعر بأصابعها تخنق أنامل صديقتها، مع ذلك الألم الذي شعرت به أمل أدركت أي عالم تبحر فيه دنيا، فنزلت دمعتها ونظرت إلى دموع رهف، دموع يشعر من يراها أنها نابعة من الجفن ذاته، وهنا قاطعتهن السيدة سامية لتوقظهن من غيبوبتهن الأليمة مبتسمة بإعجاب.

- بوجودكما أصبح لدي أربع بنات، فنعم الصديقات أنتنّ.

- لقد قررت أن أجري العملية، مهما كانت نتيجتها... فإنني مؤمنة أشد الإيمان بأنكما لن تتخليا عنّي، أليس كذلك يا دنيا؟
- بلى، ستبقى صداقتنا أبديّة ومهما حدث لن نفترق يا صديقتي... لن أبتعد عنكما أبدا.

كانت أكثر نظرات حميد المغتاظة متجهة إلى دنيا، هو لا يطيق حتى اسمها، سحب نفسه من أمام غرفة ابنته، ظل يمشي بين الأروقة دون هدف واضح، ما الذي يمكن له أن يفعله ليفرقها عن ابنته؟ اختار القوة من قبل ولم ينجح، كان يريد طريقة تترك اللوم بينهما، يريد أن يكسر صورتها في عقل ابنته وكل عائلته، وهو في تلك الغمرة السوداء ضرب يده على الجدار غيظا وخاطب نفسه بصوت مسموع.

- لو أنني أجد طريقة لأكشف صورة تلك المجرمة أمام ابنتي؟ أقسم أنني أدفع عمري ثمنا لذلك... يكفي أن تبتعد عن حياتنا.
- يبدو أنني لست الوحيدة التي تعكر دنيا صفو حياتها.

التفت حميد ليجد نور واقفة خلفه بابتسامة تقطر سما فعدل وقفته ورد.

- ومن تكونين؟ لحظة ...ألم تكوني صديقة لابنتي قبل أشهر، ما كان اسمك؟
- قبل أن أذكرك باسمي ستؤكد لي أن ما بيننا سيبقى سرا.

نظر حميد نظرة خبث أضعاف التي تقطرت من وجه نور، وراح يقول بفضول غلب حقده.

- وأنا أعدك أن هذا الأمر سيبقى سرا... رغم أن ابنتي لا تحدثني خيرا عنك... إلا أنني سأبقي الأمر سرا..حتى أعرف المقابل الذي تريدينه؟
- لا ألوم أمل... لأن كل ما تتحدث به مصدره من تصفها بالمجرمة، وقد كنتُ في ما مضى ضحيتها... اسمي نور عاشور ...
- ضحية... ؟
- عندما أردت أن أفضح نفاقها وغدرها دفعت رنا عمدا، وحرضت أمل ورهف عني... وفي النهاية أصبحت أنا المنبوذة بينهنّ... لكنها لن تنفد بفعلتها... سأثبت للجميع حقيقتها المقرفة...

ضحكت نور وشرارة الحقد تلتهب داخل عينيها، ثم جعلت تتحسس الجرح الذي على خدها في حنق ظاهر متذكرة لحظة طعنها بالمدور، بينما رد حميد بسذاجة مصطنعة.

- بما أنك لحقتي بي فإنك تعرفين من أكون، لذا سأختصر حوارنا في التالي... كل معلومة عنها يمكن لها أن تساعدنا ...

غادر حميد بخطوات حذرة كأن شيئا من الاطمئنان انساح على ملامحه، لتردف نور.

- أصنع المعلومات إن أحببت يا سيد سراي ...

كان رضا قادما نحو نور من الخلف، فيما رن هاتفها فردت متذمرة.

- ماذا تريدين يا سمر؟
- أين أنت؟ لقد تأخرت كثيرا.
- لا يهمني انتظارك... فقد وجدت شخصا يساعدني على إنهاء دنيا ورهف وتلك اللئيمة أمل، سأراك فيما بعد... فأنا مشغولة الآن.

لم يكد رضا يضع قدمه على الأرض حتى توقف بمجرد سماع اسميْ دنيا ورهف، ولما التفت ورأى وجه نور المنعكس على أحد النوافذ تذكرها فورا، فقرر اللحاق بها، شخصية رضا المنغلقة والحزينة تكشف عن مشاعر عميقة اتجاه دنيا وكذا اهتمامه بكل ما يتعلق بها، فيما شردت نور تتذكر ذلك اليوم العصيب، فأين ستأخذنا بوابة ذكريات نور يا ترى؟..

دقائق قليلة بعد موت رنا، وصلت الشرطة بقيادة الضابط حمزة صديق والد رهف، لم يتردد ونشر رجاله في أرجاء الثانوية لبدء التحقيق فيما حدث، في تلك الأثناء كانت الطبيبة تحاول إيقاظ دنيا ودموع صديقتيها لا تتوقف، أما عن نور فقد رفضت المكوث في الثانوية ونقلت إلى مستشفى خاص.

كان القلق والحزن يخيمان على جميع الأساتذة وموظفي الإدارة، أما المراقبة سليمة فلم تتوقف خطواتها ذهابا وإيابا خوفا من أي إجراء قد يصدر في حق الثانوية، كان السيد عمر عمران أول من تلقى الخبر من صديقه حمزة ليتولى بدوره إخبار سي أحمد الذي ترك عمله متصلا بالعم سمير الأقرب من الثانوية ومن عائلة رنا، لكن والد نور السيد عبد الله عاشور كان الأسبق في دخول الثانوية، تسارعت خطواته التي كانت تتسابق مع بطنه الممتلئ في اتجاه الضابط.

- أيها الضابط...

استدار الضابط حمزة في حزم، ليردف والد نور بغضب.

- أريد أن أقدم شكواي بمعيتكم لتقبضوا على الفتاة التي تهجمت على ابنتي... اسمها دنيا بن زيان.
- يمكنك التوجه إلى الجهات المختصة وستجد من يساعدك، نحن نحقق هنا في حادث مهم.
- الفتاة التي تهجمت على ابنتي هي نفس الفتاة التي كان الجميع شاهدا على دفعها لصديقتها من أعلى الدرج، لتقدم بعد ذلك على تخريب وجه ابنتي المسكينة.

كان الضابط حمزة على معرفة قريبة بالسيد عمر الذي أكد له علاقة دنيا بن زيان الطيبة مع صديقاتها، بمن فيهن ابنته رهف، لكن لم يكن من حق حمزة الدفاع عنها، فعمله يجبره على الحياد، لذا خاطب السيد عاشور بكل احترام.

- رجالنا يبذلون جهدهم، وسنتأكد من الأمر ونتحرك على أساسه... شكرا لك.

دقائق أخرى تسارعت فيها خطوات سمير مهداوي مع والد رنا، ظهر على ملابسه شيء من الفقر والحاجة، قدما رغم ثقل الخبر وآلامه، ليتشبث السيد مقران بسترة الضابط دامعا.

- لا أيها السيد... أخبرني بالحقيقة... مستحيل... ليست ابنتي.
- أنت هو والد رنا مقران؟
- نعم... ناد ابنتي لو سمحت... هي بخير... هي بصحة جيدة... أخبرني... أليس كذلك؟

مع ذلك الموقف وصل عمر والد رهف فسكت الضابط حمزة برهة من الزمن قبل أن يضع يده على كتف السيد مقران ويرد.

- آسف ولكن... إنا لله وإنا إليه راجعون.
- مستحيل هي وحيدتنا... لا... لن أصدق حتى أراها، لماذا يسرقها الموت وهي في عمر الزهور؟

قبل أن ينهار أرضا كان سمير وعمر قد أمسكاه من ذراعيه في محاولة لمساعدته... مساعدة لن تتجاوز حد الكلمات التي تلفظ بها سمير دامعا.

- كن مؤمنا يا رجل... هي بين يدي رب هو الأرحم بها منّا.

أمر حمزة رجاله بإحضار رنا وقد نامت على حمالة مغطاة لا تتحرك، ثم تقدم لينزع عنها ذلك الغطاء البارد، كانت المفاجأة قوية والموت حقا هو الأسبق، وهنا التفتت الأنظار إلى بكاء أمل المرير فيما كانت دنيا تنظر إلى وجه رنا دون حراك... كأن الزمان توقف بها ثم جعلت تقول.

- لماذا يبكي الجميع؟... رنا مرهفة المشاعر ولن يرضيها هذا المنظر... ستنزل دموعها وأنا لا أريد ذلك.

ثم ضحكت بطريقة غريبة جعلت العم سمير يتوجه إليها مدركا صعوبة تحملها لما حدث، هو يعي أن كلماته التي اعتادت على تشجيعها سيضعف مفعولها في هذا الموقف، لكنه خاطبها متألما.

- ... يكفي يا ابنتي فهذه هي الحياة ونهايتنا الحتمية.
- ما الذي تقوله يا عم سمير؟ لقد وعدَتني هذا الصباح بأن نمرّ على محل المرطبات لتشتري لي نوعي المفضل... وهي لم تكذب يوما.

انتبه عمر لغياب ابنته فخرج من القاعة التي كانوا فيها باحثا عنها، وإذ به يجدها جالسة عند عتبة القاعة المجاورة، ابتلع ريقه بصعوبة واقترب منها من الخلف، وما إن وضع يده على كتفها حتى انهز بدنها وابتعدت صارخة (أمي)، فوجئ عمر وقد اختنقت كلماته وهوت دمعته، وما إن رأته حتى ارتمت بين أحضانه باكية ودموعه تسبق دموعها... حوّل

الضابط حمزة أبصاره من منظر صديقه وابنته المؤلم إلى وسط القاعة محاولا إيصال المعلومات التي وصلته إلى مسامعهم.

- عفوا.. إن لم تخني الذاكرة فأنت هي دنيا بن زيان؟

لم ترد دنيا فتكلم العم سمير متحسرا.

- نعم ...إنها دنيا بن زيان سيدي الضابط.

اقترب منها الضابط حمزة وقد دخل عمر وابنته القاعة، ثم قال.

- عفوا يا ابنتي ولكن هناك من اتهمك، وأكد أنك وراء ما حدث للضحية...

قاطعته رهف محمرة الوجنتين، لتقف مع أمل بين الضابط ودنيا.

- من الأحمق الذي يتفوه بهذه الترهات؟ ...أبي يعرف دنيا جيدا.. من المستحيل أن تفعل ذلك... سل أبي وسيخبرك يا عم حمزة.

أكملت أمل واضعة يدها بيد دنيا.

- من المؤكد أن تلك الحقيرة نور وراء هذه الإشاعة... تريد أن تبعد عنها الشكوك... دنيا أكثر المتضررين... فلا تصدق كل ما يقال أيها الضابط.

علا صوت أمل فتدخل عمر وأبعدهما مخاطبا.

- يكفي... إنه عمله وأنا أدرك جيدا براءتها ولكن الضابط يكمل ما يمليه عليه ضميره وواجبه... لن يقدم على ما يخالف قناعته ...

فوجئ الجميع بدنيا تتكلم ببرودة مرعبة.

- نعم أنا التي وثقت بالعقرب البشري يا عم عمر..... أفقدتها توازنها بمرفقي هذا... أنا فتاة ساذجة وحمقاء لا تفكر بعواقب أفعالها... لا أحد مسؤول عن الذي حدث غيري.

لطمت دنيا وجهها بعد تلك الكلمات الجامدة كأنها تحاول إرجاع الزمن ساعة واحدة، هي لم تدرك لحظتها أنها تحاول عبثا فعل ذلك، أما العم سمير فأمسك يديها بصعوبة وحواها بين أحضانه دامعا.

- يكفي يا صغيرتي فحرام عليك ما تفعلين... اهدئي ...

ثم التفت إلى الضابط حمزة وقال في رجاء.

- يا سيدي أنا بمقام والدها وستخبرك بأقوالها عن الحادث بعد أن ترتاح... أرجو أن تأجله قليلا.
- ليست هذه هي المشكلة الوحيدة ولكن هناك من وجه شكوى ضدها مدّعيا أنها جرحت ابنته متعمدة ودفعت الضحية ...صاحب هذه الشكوى يقف عند باب المؤسسة ...

- مستحيل أن يحدث ذلك فرنا أعز صديقات دنيا وأنا جارهما وأعي حسن صحبتهما وصفاءها من الخبث والدسائس.

دون وعي قاطعته وهي تنظر إلى أصابعها المرتجفة.

- نعم أيها الضابط أنا من جمدت ولم تمسكها...لقد حاولت إيقاف ما كان سيحدث، ويبدو أنني وصلت إلى النهاية... نهايتي... نهايتي وحدي.
- وماذا عن الفتاة التي خربتِ وجهها؟
- تلك ليست فتاة... إنها عقرب سيتذكرني كلما رأى وجهه في المرآة، أجل خربت وجهها لأنها خربت جمعتنا بأفكارها المسمومة... ليتها اختارتني بدلا من رنا... سحبتها من بين أيدينا ونحن ننظر ...كل ما في الأمر أننا وثقنا بها... أردتها أن ترى الجانب الإيجابي من الإنسانية... لكنها طعنتني في ظهري... لذلك علّمت على وجهها جرحا لن يزول... لن يزول أبدا ...

أسكت سمير دنيا مرتجفا خوفا من أن يأخذ الضابط كلماتها على محمل الجد ورد.

- هي تتكلم دون وعي منها... يكفي يا دنيا.

لف الضابط حمزة يديه خلف ظهره مع نبرة تأسف.

- أنا الآن أحقق في هذا الحادث لكن إذا ثبت حقا أنها جرحت الفتاة متعمدة فقد تصل المسألة لأبواب

المحكمة، لأن والدها لن يسكت بعد الذي رأيته منه قبل قليل.

سحب العم سمير دنيا حيث أمل فأمسكتها متألمة، ليتقدم عمر من الضابط حمزة قائلا.

- أعتقد أن هناك لبسا ما في الأمر... من المستحيل أن تقدم بن زيان على دفع رنا وأنا أعرفها جيدا.
- لكن إلى الآن كل الشكوك تدور حولها... وأنت أعلم بهذا الميدان وبالأوامر التي نتلقاها، لن يسأل القاضي عن انهيارها وقت إقدامها على جرح صديقتها... نحن نعمل اعتمادا على الأدلة... وأرجو أن تكون شهادة الحاضرين لمصلحتها... وإلا...
- أدرك هذا يا صديقي ...لكن ...

ليتأفف عمر مستسلما.

- ... حسنا أكمل عملك.

بأمر من الضابط خرج الجميع من القاعة التي كانت فيها جثة رنا، وبعد دقائق أمر بنقل جثمانها إلى المستشفى، بينما طلب من الصديقات، المراقبة سليمة والأستاذة التي كانت ستدرسهم تلك الساعة، بالإضافة إلى الأستاذ منير وعدد من التلاميذ ممن شهد ما حدث ونور التي كانت تتلقى العلاج بالتوجه إلى سيارات الشرطة لسماع أقوالهم، وبينما خرج الشرطيان يحملان جثمان رنا نحو سيارة الإسعاف، التفتت دنيا إلى خطواتهما تبتعد عن مسارها، ودون أن تشعر انطلقت

إليهما مباغتة من كان أمامها، لما حاول العم سمير إمساكها دفعته في ثورة ألمها ليسرع الأستاذ منير بالتقاطه، ما إن لامسته أصابع الشاب حتى انقطعت أنفاسه وهو ينظر إلى عينيه بشكل غريب، نظرة العم سمير إلى عيني الأستاذ أربكت الأخير لحظات، أما خطوات دنيا فلم تتوقف حتى ارتمت على الحمالة ممسكة جسد صديقتها بكل قوتها، لتلحقها رهف وأمل، وفي المقابل وصل سي أحمد وركض إليها مرتعبا وهي تصرخ.

- إلى أين تأخذونها؟ أنا من اعتادت رنا الاستناد عليها... ابتعدوا عنها... ابتعدوا جميعكم ...

حاول سي أحمد إبعادها وقد انهار الجميع لذلك المنظر، كان تأثر والد رنا بذلك المشهد يزيد ألمه وهو يراها تبعد من كان قربها متشبثة بذراع رنا المتيبس.

- يكفي يا دنيا... تقبلي الحقيقة فقد انتقلت رنا إلى رحمة الله وعلينا أن ندعو لها بالرحمة والغفران... فلا تساهمي في إحراقها بهذه الدموع.
- لا تقل هذا يا أبي... هيا يا رنا أخبريهم أنك لن تتركيني... اسمعيني... لقد اكتشفت الخائنة الحقيقية... لن تتجرأ على الدخول بيننا ثانية... لكن انطقي بكلمة واحدة...

اقتربت أمل محاولة إبعاد دنيا عن الجثة.

- **دعيها ترتاح يا دنيا... هيا لنودعها لمثواها الأخير... أرجوك ارحمي نفسك...**
- **لا... لن أودعها... لأنها لن تتركني... هيا يا صديقتي ابتسمي ولن أتركك وحدك ثانية... لم أقصد دفعك... أقسم أنني لم أقصد فعل ذلك... قولي شيئا يا رنوش... أرجوك سامحيني...**

بإشارة من الضابط حمزة اضطر الشرطيان لأخذ رنا عنوة، أفلتت دنيا نفسها من قبضة والدها محاولة اللحاق بها خارج أسوار الثانوية لتصطدم بنور عائدة من المستشفى متكئة على ذراع والدها، واللهيب ينطلق من نظرات كل واحدة منهما، اقترب الأستاذ منير مسرعا بينما وصل سي أحمد ومد يديه محاولا إيقاف ابنته التي لم تكن تسمع غير صوت نور وهي تعترف لها بخططها داخل القسم.

عادت الذكريات بنور تدندن بصوت مسموع في أحد أروقة المستشفى الفارغة كالمجنونة، ثم انفجرت ضحكا طال أمده، كانت تتصرف بهستيرية مخيفة، ليتبين ذلك الكره الدفين الذي لم تطلع الغير عنه... وعندها قاطعها صوت تصفيق استهزائي، التفتت إليه باستهتار ففوجئت حين رأت ذات الشاب الذي كاد أن يدعسها من قبل فعدلت وقفتها مرتابة.

- أنت ثانية... خيرا... ما الذي تريده؟

- كنت أبحث عن غرفة فتاة ما... ولما رأيتك قلت لأسألها... بما أننا التقينا من قبل... اسمها دنيا بن زيان.

ما إن تلفظ رضا اسم دنيا الكامل حتى احتدت نظرات نور دون رد فاستطرد سائلا.

- ما الأمر... ألم تعرفيها؟
- وما أدراني بمن يرقد هنا ...؟ اذهب وسل الاستعلامات؟

التفتت نور محاولة التهرب لتتوقف على صوت رضا يقول ببرودة.

- رغم أنك وجدت من يساعدك على إنهاء أمرها... لحظة... لم تكن وحدها... بل إنهاء أمرها مع صديقتيها.

عادت نور بالأنظار إليه مبتلعة ريقها، غير أنها أخفت توتر نبضات قلبها خلف صوتها المتملق.

- ما علاقتك بنا؟ اذهب وتسكع بعيدا عنا.

ضحكت نور ساخرة وفجأة هجم عليها رضا وأمسكها بذراعه وحاصرها مع الجدار حتى اختلفت ترائبها بصدرها، تذكرت نور دنيا التي سبق وأمسكتها بنفس الحركة... لترد محاولة تحرير نفسها.

- إذا فلقائي بك ومحاولتك لدعسي بالسيارة لم تكن مصادفة... هل أرسلتك تلك المجرمة؟

وهنا ارتعشت نظرة عينيها وهي تصغي إلى خطابه الحاد.

- أدعسك بأصابعي في المرة القادمة... لن أحتاج سيارتي... اسمعيني جيدا أيتها الفتاة ومهما كان اسمك، إذا اقتربت من دنيا أو حتى حاولت لمس ظلها... سأمسحك من على وجه الأرض، وها أنا أحذرك... أنت لا تعرفينني جيدا... أقتل كل من يقف في وجهي... أقتل بمعنى القتل... فلا تلعبي معي.

لم تتحرك نور قيد أنملة وهي تنظر إلى عينيه بخوف لم تشعر به إلا وهي تواجه دنيا، كأن عيني دنيا تلتهبان أمامها، أما رضا فاتخذ سبيله مبتعدا تاركا إياها تتخبط بين عشرات الأسئلة، فمن يكون؟ هي تعلم جيدا أن عدوّتها ليست من الفتيات اللاتي يعتمدن على غيرهن للرد على من يواجههن، فهل ستحاول الوصول إلى حقيقة هذا الشاب قبل الجميع أم أنها ستنسحب بصمت؟

مع هذه المشاعر المختلطة ينتهي هذا الفصل، لقد قررت أمل إجراء العملية بعد أن أحست بالآلام المتقدة بقلب صديقتها، بينما لم تخرج دنيا من سجن قاسي وضعتها فيه نور، بين نسائم الماضي نتساءل عن الذي سيصيبها ووالدها بعد رحيل رنا... للسيد عبد الله عاشور نفوذه وماله، فكيف سينجو منه سي أحمد الذي سيحاول بالتأكيد مساومته وإنقاذ ابنته التي أعماها الغضب، فيما كانت كلمات رضا... ذلك الشاب

الفلسطيني الغامض تبث الرعب في قلب العقرب البشري، فما سر حمايته لدنيا؟ لا أحد يعلم إن كان حبا واحتراما؟ أم فقط منع نور من إيذاء هدفه الذي جاء من أجله؟

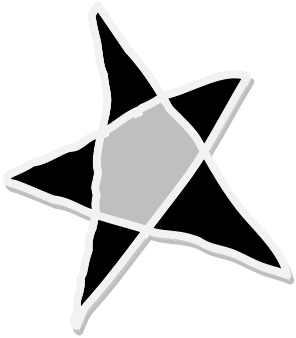

الفصل الخامس: أمطار من الماضي تلطم الوجوه، ونسيم الأمل يتجلى.

في الشارع الذي تسكن فيه دنيا تعالى صوت مجموعة من أطفال الجيران بينهم أسماء، وهم يلعبون لعبة ابحث عني أو "الغميضة" كما اعتدنا تلقيبها في الجزائر، ركض في مختلف الأرجاء وأصوات تتداخل أحرفها هنا وهناك، وقرب دكان العم سمير قعد رضا يراقب حركات أسماء بحذر، لم يكن يسمع إلا صوتها وهي تحاول الاختباء من زاوية إلى أخرى، بعد عدد من الأدوار تداول فيها الأطفال على دور الباحث حان دور الصغيرة أسماء فأغمضت عينيها وبدأت بالعد حتى وصلت للعدد المتفق عليه بينهم ثم صرخت.

- سأبحث عنكم الآن.

شرعت أسماء تبحث في أي مكان تتوقع أن يكون مخبأ لأحد رفاقها، اقتربت رويدا رويدا صوب دكان العم سمير حيث قعد رضا، وقبل أن تطل خلف الباب قال مبتسما.

- لا يوجد أي أحد هنا يا أميرة.
- اسمي أسماء وليس أميرة.

اتسعت ابتسامته هنيهة قبل أن تنطلق منه نظرة مكر خفية، فعدل جلسته وقال.

- أسماء؟.. اسمك جميل جدا...كم عمرك؟

- أربع عشرة سنة، أكاد أكملها... ما هذه النبرة الغريبة؟ من أين قدمت؟
- هل أنت مصرة على معرفة ذلك؟

أجابت أسماء ببراءة واضحة.

- نعم... بالتأكيد أريد ذلك.

عادت تلك الابتسامة الاستغلالية على قسمات رضا ورد عليها.

- اسمي رضا من فلسطين، قريب عمك سمير.

تغلغلت الفرحة بين أضلع أسماء وقفزت عندما سمعت اسم فلسطين وردت بابتهاج.

- رائع أنا أحب فلسطين... لطالما أخبرتني دنيا عن جمالها...

حوّل رضا أنظاره عند منزل سي أحمد ثم سأل مستغربا.

- أخبرتك؟
- لقد كان عندي واجب إنشائي عن فلسطين... ودنيا ساعدتني على كتابته... أغمضت عينيها ثم أخبرتني عن كل شيء جميل رأته... هل هي جميلة حقا؟

تهلل وجهه بالبشر بصورة غريبة ثم ضحك سرّا مردفا في نفسه.

- أغمضت عينيها إذاً...

ثم اتكأ على الجدار ورفع رأسه مغمضا عينيه من تحت نظاراته وراح يقول وقد تغيرت نبرته.

- أجل رائعة، رائحتها لا تشبه أي رائحة، كأن نسيمها تضوع بشذا عطر الحرية رغم الحصار، وبطيب الكبرياء رغم صمت جاب الشعوب بنية الاستصغار، أما عن أشجارها وزيتوناتها فقد علمتنا الصمود رغم الظلم، فكل شيء هناك ينبض بالإصرار، لوحات الأمل نقشت على كل جدار، خطوات تشبثت بتلك الأرض الطيبة... ودروس الجهاد التي يستمدها الجميع من جبالها تبعث في قلوبهم جمالا ساقه الخيال إلى كل من ابتعد عنها... حقا بمجرد أن نغمض العينين نسافر بروحنا إلى حقائق قد لا يستوعبها عقل المحيطين بنا.

لما طال حديثه وقد غاب عن أسماء فهم كل معانيه ردت في محاولة للمواساة.

- لا تقلق... ستتحرر فلسطين... ولطالما كان أبي يقول لنا بأن بلادكم ستتحرر كما تحررت الجزائر...

تعالت ضحكة من رضا حتى مال أمام تعجب أسماء وردت بحروف متثاقلة.

- لماذا تضحك؟ ...

قبل أي كلمة منه التف بقية الأطفال حولهما، انزعجوا من انسحاب أسماء ليصرخ أحدهم.

- أسماء !! نحن ننتظرك للبحث عنا... وأنت تتبادلين الحديث غير مبالية؟

التفتا حيث وقف الطفل المتحدث وإذ به العم سمير عاد حاملا أكياسا من بعيد، تغيرت نبرته عندما رأى أسماء واقفة إلى جانب رضا فزاد سرعته ليخاطبها.

- ماذا هناك يا ابنتي... لماذا أنتم واقفون هنا... ؟
- آسفة... لقد كنت أتحدث مع هذا العم... إنه فلسطيني... هل تصدقون؟

ركضت أسماء مبتعدة، فيما رفع رضا رأسه إلى العم سمير وقد غضب من موقفه الانتهازي وسأل بحدة واضحة.

- ما الذي كنت تفعله يا رضا؟

رد رضا ساخرا وقد وقف معدلا هندامه...

- لماذا كل هذا الغضب ؟ كنت أتعرف على الجميلة أسماء.

سحبه العم سمير من ذراعه، وأدخله جوف دكانه ليخاطبه بذات لهجته الفلسطينية وببراعة مذهلة، فاللسان المتعود على اللهجة الجزائرية خصوصا العاصمية لا يمكنه التكلم بغير لهجته بتلك السلاسة دون دمجها بالنبرة الجزائرية التي تعدّ بصمة لألسنتنا يصعب الاستغناء عنها.

- أوعك تقرب من هالعيلة مرة ثانية... وإلا رح تشوف مني إشي ما بيعجبك يا رضا، وليش حضرتك مصر إنو تحكي عن فلسطين... إذا عرفو رح ...

أفلت رضا ذراعه بغضب اجتاح روحه، وبتر كلامه باحتقار واضح.

- ماذا؟ ما الذي سيحدث إذا عرفوا ذلك ...؟ ظننتها ستوصل خبر قدومي إلى عائلتها... لكنها ملتهية بصديقتها التي ترقد في المستشفى... وأنا لن أنتظر أكثر... سأترك المهمة للصغيرة أسماء ...
- أنت مصر على تحطيمها إذا... آسف ولكنني سأكون أول من يقف في وجهك...
- لا يهمني... أريد مواجهتهم ولكنني لن أبدأ... ثم... أعتقد أنك نسيت مكانتك يا يوسف؟ وهذه السنوات أنستك أنك مجرد تابع لأبي... فإياك والتمرد على سادتك.

ثم ابتسم ونظر بعيني العم واسترسل في كلامه مذكرا.

- فهل ستبيعنا وتغدر بالأمانة التي حملك إياها أبي من أجل صديقك؟... أنت مجرد تابع... لكن أي تابع يا ترى؟ دعني أخاطبك بالجاسوس الذي كرس حياته ليوصل لنا كل ما يتعلق بها من خلال مراقبته لها... أخبرني لو أنها تعرف حقيقتك التي أخفيتها عنها... فهل

سيبقى في قلبها ذرة احترام لك أو لكل شخص يخفي حقيقتك؟

ضحك رضا وشد على فمه ثم توجه إلى سيارته وانطلق راحلا، أما العم سمير فسكت مخاطبا صمته الدفين.

- ستسامحني... أنت لا تعرف طيبة قلبها يا رضا.. تلك الطيبة التي لن تساعدها على العيش بينكم... يا رب صبرها... المشكلات تتراكم عليها وإن علمت بالحقيقة الآن ستتحطم من جديد... لا... لن أسمح لرضا بالتحرك على هذا النحو، لن أسمح له بإيذاء هذه العائلة الطيبة... ينبغي أن يعود من حيث أتى... فأنا أعلم أن جرحها لا يزال ثائرا في أحشائها.

جعل العم سمير ينقل عينيه إلى منزل رنا بحزن ثم التفت إلى الأطفال، تذكر كيف كانت رنا ودنيا تلعبان قرب الباب، كيف بقي صدى صوتيهما يملأ كل ركن من الشارع، ثم تذكر فوضى تعم أرجاء مكان ما... تذكر يدا تحمل دنيا وهي طفلة صغيرة في الثالثة من عمرها ومسدسا مصوبا إلى رأس سي أحمد... تذكر رجالا يحملون عصيا وأصوات رجال الشرطة... فما الذي حدث في ماضيك يا عم سمير؟... وإذ بنوبة من السعال الحاد تنتابه فدخل الدكان مسرعا إلى دُرج سحب منه علبة من الدواء ابتلع منها حبة مرتعشا، ثم انهار على ركبتيه ممسكا صدره، وسحب أنفاسه بصعوبة بالغة متذكرا.

بعد اصطدام دنيا بنور وهي تركض خلف سيارة الإسعاف التي تحمل رنا، جثمت نظراتهما هنيهة قبل أن تقف دنيا متسارعة الأنفاس، كانت تراقب بحذر جرح نور الذي اختفى خلف ضمادة سال منها شيء من دواء مصفر اللون، قبل أن تقول بصوت بحّ.

- هل ارتحت الآن؟ أنظري كيف فرقتها عنّا... كسبت رهانك بجدارة... هل أذهب وأحضر لك الحلوى لتحتفلي مع الحاضرين ...؟

عادت نور إلى الثانوية التي شهدت خيوط فتنتها كي تثبت الجرم على دنيا، كي تحصرها عند الذنب وتدفن روحها مع جسد رنا، رغم الإصابة التي أثقلت كلامها وجعلت معانيه تبطئ إلا أنها ردت مخفية أغلب ما حل بها من وجع.

- أرى أن جرأتك لا زالت على حالها رغم الذي فعلته... تحاولين إقناع الجميع بأنك لم تقصدي دفعها وأنك لم تجرحي وجهي أيتها المجرمة.

لم يكن سي أحمد قد استوعب بعد تفاصيل الشكاوى التي وجهت ضد ابنته، بينما عرف السيد عاشور أنها المسؤولة عن الذي حدث بوحيدته فصرخ.

- إذا أنت المجرمة التي هاجمت ابنتي... ستدفعين ثمن فعلتك.

- ثمن؟... لم يعد هناك ثمن لأدفعه بعد الذي دفعت... لكن ابنتك ستدفع... ستدفع الكثير.

رغم برودة نبرة دنيا إلا أن السيد عاشور شتم رافعا يده ليصفعها، وفجأة تدخل الأستاذ منير ممسكا معصم والد نور بقوة مخاطبا.

- يكفي... الفتاة غير واعية لما تقول... وأنت يا بن زيان ابتعدي مع والدك لأن الظروف لا تساعدك ...

أراد سي أحمد إبعاد دنيا لكنها رفضت وقالت مبتسمة.

- أنا لن أفعل شيء... لأنني فعلت ما عليّ فعله حتى هذه الساعة... رؤيتي لوجهها تهدئ النار الملتهبة في صدري... فدعوني أستمتع بمزيد من الوقت.

نظر العم سمير إلى سي أحمد ثم تقدم من والد نور محمرّ الوجه غضبا.

- سيدي أعلم أن ردة فعل ابنتنا كانت متهورة... هذه ليست عادتها... لو سمحت، سأدفع لك تعويضا على كل شيء لكن اسحب شكواك يا سيد.

ابتسم السيد عاشور ساخرا ثم رد.

- ابتعد أيها العجوز (هه) سأعلمها بنفسي كيف تبقي يدها داخل جيبها... لن أرتاح حتى أرميها داخل السجون.

انهزّ بدن سي أحمد لما سمع تهديد السيد عاشور واقترب منه متوسلا.

- أتوسل إليك يا سيدي... أتوسل إليك كأب أن تسحب شكواك وأنا مستعد لأدفع ما تريد... أقدم لك حياتي إن أردت لكن ارأف بحالها... أنا نفسي غير مصدق لماذا أقدمت على هذا الفعل الشنيع...

صمت سي أحمد ليكمل السيد عاشور رافعا سبابته.

- ابنتك تحتاج لشخص يعرفها حدودها، فابتعد قبل أن أجعلك تندم لأنك خلفتها...

أطرق سي أحمد رأسه بينما احتدت نظرات العم سمير ليردف السيد عاشور.

- ... والجرح الذي بوجه نور، هل ستعيد وجهها كما كان؟ طبعا لن تفعل ذلك... والآن ابتعد عن طريقي... فعملي ليس معك.

أقدم عبد الله على دفع سي أحمد بعيدا عن طريقه محاولا التوجه إلى الضابط حمزة، فالتقطه العم سمير في أحضانه، بينما انحنت دنيا بسرعة إليه وردت على والد نور رافضة السكوت.

- اسمعني يا هذا... أيا كان الذي فعلتُه فابنتك تستحقه... سلها كيف حرضت رنا على أمل... سلها كيف جعلتنا لعبة بين يديها وخانت الثقة التي

منحناها إياها... سل الجميع هنا عن سيرتها... لم يسلم أحد من تسلطها وعجرفتها.. والآن أدركت أن طباعها مستوحاة من حضرتك... وإلا ما كنت لتدفع والدي بكل وقاحة...

أراد الضابط حمزة التدخل وهو يرقب عقارب ساعته لكن عمر أمسكه هامسا.

- دعهم... ربما يظهر اعتراف ما يكشف براءة بن زيان.. دقيقة بعد يا صديقي.
- المشكلة أن الاعتراف الوحيد الذي يتكرر هو اعتراف المتهمة... على كل... لك هذه الدقيقة.

أما السيد عاشور فقد رد مستفزا.

- طالما أنك ابنته فإنه يستحق... كان عليه أن يعلمك كيف تعاملين من هم أكبر منك قدرا.. ابنة مثلك أستحي أن تكون دماءها من دمائي.

نظر سي أحمد إلى سمير نظرات ألم لم يفهم أحد معناها، ليتقدم العم سمير مخاطبا دنيا بحدة.

- يكفي يا دنيا فهذا ليس لمصلحتك...

ثم التفت إلى عبد الله مضيفا.

- اسمعني يا سيدي سأعيد مطلبي على مسامعك ففكر جيدا.. سأعطيك المبلغ الذي تطلبه كتعويض وإن

اقتضى الأمر سأتكفل بعملية تجميل لابنتك... لكن اسحب شكواك.

جن جنون دنيا وهي تسمع عرض العم سمير فصرخت فيه.

- ما الذي تقوله؟ هي لن تأخذ دينارا واحدا فإن كنت ستعوضها بالتكفل بمصاريف عمليتها.. فأعد لي رنا أيضا ...هيا... عوضني... أعد رنا أولا... ثم أعطها ضعف ما تريد.

انهمرت دموعها مجددا أمام صمت العم سمير، ليرد السيد عاشور.

- حق ابنتي سيظهر أمام المحكمة، ثم ما الذي تملكه ولا أملكه من المال؟

لزم سمير الصمت ثم نظر إلى سي أحمد كأن حوارا ما يدور بينهما خفية، حوار واستشارات لم يكن أحد يسمعها، وهنا تكلمت نور مستغلة الموقف، مستعينة برفض دنيا للمساومة.

- حسنا يا دنيا... سأعفو عنك إن حقق لي ذلك الرجل وعده ...

اقترب منها عبد الله متفاجئا.

- ما الذي تقولينه؟ هل جننت يا نور؟
- الجرح بوجهي أنا... ومن حقي أن أطلب ما أريد.

رفعت نور يدها بأنانية متجاهلة مكانة والدها، لتتحول ملامح عبد الله لخجل فاضح وهو الذي يحاول رد هيبتها واعتبارها، لكن نور لم تفكر في شيء غير معاكسة كلام الفتاة بن زيان، وزيادة ألمها فراحت تقول.

- سأتنازل عن الشكوى إن تكفلتم بعملية تخفي هذا الجرح بالإضافة إلى مبلغ أقرر قيمته فيما بعد... فما رأيك؟

صرخت رهف في وجهها... بينما شردت أمل كأنها ليست معهم.

- لن تتغيري أيتها الجشعة...
- أنصحك أن تغيري قلبك بدلا من وجهك... علك تصبحين من البشر... وها أنا ذي دنيا بن زيان أعدك أنك لن تحصلي على مبتغاك هذه المرة.
- وأنا أتحداك يا دنيا... وربحت الرهان قبل لحظات، وسأخبرك شيئا آخر أنت من ستقدم لي المال بنفسها.

غمزت نور دنيا ساخرة فعقدت الأخيرة أصابعها بأصابع والدها بقوة وردت.

- خسئت... لا أنا ولا هذه اليد سنقدم لك دينارا واحدا... لن ننحني... لن أسمح لك بإذلال عائلتي مهما حدث... حتى لو دفنت خلف القضبان... فتذكري هذا الوعد جيدا.

أدرك سي أحمد الجرح الذي بقلب ابنته لأنه لم يرها يوما بذلك الإصرار، كما أنه لم يرها يوما تتكلم بكلمات حقد كما رآها في تلك اللحظة، أدرك حينها أن ما فعلته لنور كان بعد تعرضها لظلم أكبر فدمعت عيناه، عندما تقدم الضابط حمزة إليهم ليوقف ضخم تلك المناقشة تكلم السيد عاشور بصوت منكسر وعيناه متسمرتان عند العناق الذي جمع يد دنيا وسي أحمد.

- يمكنك الذهاب مع ابنتك يا سيدي.

ضحكت نور بشماتة والتفتت إلى سيارة والدها وهي تقول.

- لنذهب يا أبي... وسنترك المجرمة تنال عقابها وتتعفن في السجون... طالما أنها رفضت منحي ما أريد.
- لن أشتكي على ابنتك يا سيدي.

نظر سي أحمد إلى العم سمير غير مصدق وقال.

- ما الذي تعنيه؟

- لقد قلت انصرف مع ابنتك يا سيدي، أما بالنسبة للجرح الذي بوجه نور فأنا سأتكفل بالمصاريف ولن تدفعوا لي أي تعويض.
- ما هذه المزحة يا أبي؟

اعتقدت نور أن تلك مزحة من أبيها لاحتقار عائلة بن زيان لكنه صرخ مخاطبا.

- لست أمزح يا نور... فالفتاة التي تدافع عن مبادئها بكل هذه الجرأة، لن تستطيع إيذاء أحد ظلما، ولا بد أنك فعلت أمرا فضيعا جعلها تهاجمك أنت دون غيرك... وستشرحين لي قصة الرهان الذي ثرثرت به قبل قليل... أعترف بأن ابنتك قوية وتقدر قيمة من هم حولها، حافظ عليها... ولكن علمها أن تضبط أعصابها في بعض المواقف... لأن الغضب قد يهلك صاحبه دون أن يدري...

طأطأ السيد عاشور رأسه ثم أكمل متجاهلا صراخ نور الغاضب.

- عظم الله أجركم... وإن قبلتم... سأكون حاضرا لأشيع معكم جنازة الفتاة ...

ابتسم سي أحمد دامعا.

- شكرا يا أخي لن أنسى لك هذا الصنيع، ونحن نرحب بك في حيّنا متى شئت أيها الرجل الشهم.

بعد أن سحب عبد الله نور بصعوبة إلى السيارة، تقدم السيد عمر حيث الضابط حمزة مردفا.

- هل يمكننا أن نعتقد أن بعضا من المشكلة قد حل يا صديقي؟
- لنستمع إلى الشهود أولا... وأما عن جرح تلك الفتاة... فلن نستطيع التحرك ما لم يقدم وليها شكوى رسمية.

ابتسم السيد عمر مرتاحا واقتربت رهف من دنيا التي كانت ترتعش كاتمة حزنها.

- في كل يوم نفتخر بصحبتك أكثر... الحمد لله...

وهنا دنا سي أحمد مكفهر الوجه مستاء صارخا.

- كلا يا رهف... وأنت يا دنيا لا تتهوري ثانية، ما فعلته كان خطأ فادحا... لن أفتخر بابنة تلجأ إلى مثل هذه الأفعال العنيفة...

- لكن يا أبي هي ...
- لا أريد تبريرا منك... وأنا لن أستطيع تحمل المزيد في هذا العمر...
- لن أغفر لها غدرها... لم نفعل لها شيئا... فلماذا هاجمتنا بتلك الطريقة القذرة؟
- دنيا... إن كنت لا تريدين تجاوز غلطة تلك الفتاة فافعلي... ولكن لا تحل الأمور بعنف يجعلك في موقف الظالم وإن كنت مظلومة... وأنا لن أسامحك إن أقدمت على تكرار ما فعلته ومهما كان الموقف... هل فهمت؟

عندها تدخل العم سمير ساحبا صديقه.

- يكفي الوقت غير مناسب يا أحمد...

عندما دمعت عين دنيا أجل سي أحمد غضبه وتنهد مبتعدا، تحرك الجميع إلى سيارات الشرطة لاستكمال التحقيق وسماع أقوال كل منهم، ومن حسن الحظ جميع الأقوال اتحدت مؤكدة أن ما حدث لرنا كان مجرد حادث غير مقصود، وبعد يومين بدأت مراسيم الدفن في جو يقطع القلوب ويبكي الحجر، انقطعت دنيا عن دروسها أو حتى الخروج من المنزل، بالكاد يسمع صوتها، و على الرغم من محولاتهم بمن فيهم والدة رنا مقران فإن ذلك لم يؤثر فيها، بعد الأربعينية انتقل والدا رنا لولاية بجاية حيث كان لهما أقارب هناك، وباعا المنزل لأول عرض قدم لهما.

في ساحة حالكة السواد، غامضة الأركان، كثيرة التشعبات وقفت دنيا تراقب من بعيد رنا جالسة تحاول صنع شيء ما بيدها فنادتها مستفسرة.

- رنا... ما الذي تفعلينه هناك؟

نظرت رنا وعلى محياها ابتسامة صادقة، كانت تشكل جسما بكومة من الطين فخاطبتها دنيا وهي تقترب منها.

- لا تقلقي... سأكون معك لأمسك يدك بنفسي، أنت فقط أخبريني كيف يمكنني اجتياز هذا الجسر؟

لم ترد رنا واكتفت بمراقبة الجسر المهترئ وقد اقتربت دنيا من طرفه تصرخ بكل ما أوتيت من قوة.

- انتظري سآتي... ومن أجلك لن أخاف من المرتفعات ثانية... أنظري... سأغمض عيني.

ما إن وضعت دنيا قدمها بشجاعة على ألواح الجسر حتى وقفت رنا وقد تغيرت ملامحها إلى غضب العارم، وأسرعت تأخذ حجرا بيديها وتضرب الحبل محاولة قطعه، أما بطلتنا فكانت تتقدم ببطء مستغربة، رغم خوفها لم تعد إلى الخلف بل استمرت إلى الأمام بخطى متثاقلة.

- لماذا تفعلين ذلك؟ ألا زلت غاضبة مني؟ خطوات وسأكون عندك... لكن توقفي... فالجسر يهتز.

محاولات رنا لهز الجسر وقطع الحبل اكتملت بهبوب قوي لرياح انهار الجسر على إثرها، واستيقظت دنيا من ذلك الكابوس صارخة تبكي، فهبت فاطمة وهيثم نحوها بهلع بينما كانت تردد.

- لقد كانت وحدها يا أمي... لم يكن معها مؤنس في ذلك المكان... لم أرد سوى البقاء معها بعض الوقت، فلماذا رفضت اقترابي منها؟... لا بدّ أنها غاضبة مني لأنني من دفعها... لقد تخليت عنها يا أمي ...

لفت فاطمة دنيا بين أحضانها، فيما شرع هيثم يسكب الماء بائس الملامح، وأذناه عند كلمات أمه الهادئة.

- رفضتك لأنها أرادت منك إكمال حياتك والعيش في طمأنينة... ذكراها في قلوبنا جميعا لكن الموت حق

فكوني عاقلة، لن يفيدك بكاءك شيئا، رنا لن تعود ثانية مهما انطويت بنفسك ومهما زاد عنادك.

في حضن فاطمة ارتعشت دنيا كلما تذكرت وجه رنا الغاضب، ومحاولاتها القوية في قطع الحبل وانهيار الجسر، ثم تذكرت كيف سقطت صارخة لتردد باسمة في خفاء.

- **لم تمت... لا بد أنها في مكان ما... لن تتركني... رنوش بخير يا أمي... لن أصدق كلامكم مهما فعلتم.**

في ثانوية هواري بومدين وتحديدا أثناء حصة الرياضة بين زوايا الملعب، ركض التلاميذ والأستاذ منير يصفر محاولا تنظيم اللعب، أرسلت زميلة الكرة إلى دنيا التي بدا عليها الشرود، فأمسكتها ورمتها مباشرة كأنها تريد التخلص من حمل ثقيل قاطع حديثها الباطني وصرخت غير واعية.

- هيا يا أمل، إنها لك.

ما إن ارتطمت الكرة بالسياج المحيط بالملعب حتى توقفت تتذكر حركات أمل أمام عينيها، ثم جثمت تنظر إلى المكان الذي اعتادت رنا الوقوف عنده رافعة يدها وابتسمت بسمة قلق، كانت رهف تنظر بصمت، لتتوجه دنيا بعد برهة إلى الأستاذ طالبة منه دقائق للراحة فوافق متحسرا، وعندها اتخذت طريقها على عجل إلى المكان الذي كانت تبتسم له مخاطبة نجواها.

- كم اشتقت إليك يا رنوش، فخيالك لا يفارقني ولن يفعل... صديقتنا أمل تقف الآن في منتصف ذلك

الجسر، فاقطعي الحبل إن قررت الاقتراب من الضفة الأخرى أكثر... أطرديها كما طردتني في ذلك اليوم ..... لا تسمحي لها باجتيازه...

كانت سمر ترقب نظرات الأستاذ القلقة نحو دنيا، لم يكن مركزا مع البقية، فخاطبت نور بإرتباك غريب.

- اُنظري يا نور فالأستاذ قلق جدا، لا بد أنه من أجل أمل...

ابتسمت نور وأكملت باحتقار.

- هه... تلك البارعة في التهديف.

ثم عدلت وقفتها وأضافت.

- الجميع يدرك مدى إعجاب الأستاذ بأمل، إعجابه بها أضحى واضحا، فبراعتها في اتقان دور البريئة أكثر ما يخدع المسكين... أيتها الحمقاء.

حدجت نور سمر بنظرة مكر، ثم انسحبت تاركة رفيقتها تائهة بأفكارها، إعجاب منير بأمل كان قبل تعيينه أستاذا للرياضة في ثانويتها، هو يسكن في حي قريب من حيّها، ولكن شاءت الأقدار أن يجد رزقه في تلك الثانوية قبل حوالي سنتين، على الرغم من الطلبات العديدة التي قدمها في مختلف الثانويات بعد حصوله على الشهادة في سنة ألفين، فإن ثانوية هواري بومدين كانت الوحيدة والسباقة لقبول طلبه ثم ترسيمه بعد سنة من العمل، لا أحد غير صديقه المقرّب معتز على علم بتلك المشاعر، لما أدرك المحيطون به إعجابه اعتقدوا أن الأمر كان

بعد عمله، فانتقدوا اهتمامه بمجموعتها، و على الرغم من جهوده في إخفاء ما اختلج في قلبه فإنه بعد موت رنا أجبر على الوقوف إلى جانبهنّ، ومساعدتهنّ على استعادة شيء من النشاط الذي امتزن به أثناء مباريات التدريب التي كان يجريها بين التلاميذ، وبعد تردد تقدم الأستاذ ليقطع سريرة دنيا المترجية سائلا...

- كيف أصبحتِ الآن؟
- بخير... آسفة من أجل قطع المباراة، ولكن لم أستطع الاستمرار أكثر.
- أعلم أنك ورهف قلقتين من أجل صديقتكما، لكنها ستكون بخير ...لا تتذكري الماضي كي لا تنهاري ثانية، فكل شيء مقدر يا بن زيان.
- لا يمكنني نسيان ما حدث لرنا، وهل أستطيع ...؟ لكن بإذن الله يا أستاذ ستعود لنا أمل... ستعود هذه المرة...

تلجلجت قسمات منير قليلا قبل أن يسأل بحزن.

- وهل تحسنت قليلا؟
- هي تحاول ادعاء ذلك أمامنا، تلعب بإتقان دور الفتاة القوية والصبورة، ولكنها منهارة... ما أدركه جيدا أنها خائفة أشد الخوف.

ابتسمت دنيا مدارية حزنها، فيما تجلى بريق الدمع بين عيني الأستاذ وهو يقول.

- لا أدري إن كان قراري صائبا... ولكن هل يسمح لي بزيارتها رفقتكما؟
- ما هذا السؤال؟ بالتأكيد يمكنك ذلك وهذا سيسعدنا كثيرا، فقد وقفت إلى جانبنا دائما ونحن لن نوفيك حقك مهما فعلنا.
- لم أفعل شيء... لا تقولي هذا ثانية.. يمكنك الانضمام لزميلاتك في الملعب... هيا... فأنا أريد نشاطك المعتاد.

الأستاذ منير قادم من أجل حبّ لم تؤمن به الألسن، لكنه الحب... لا يعرف حدودا... ولا يمكننا أن نرسم حدوده، هو فقط يؤمن بما ترسمه ذبذبات القلب، تلك الذبذبات التي لا يفقهها البعض، يجتهدون في محاولة فكّ طلاسمها، لكنهم يفشلون، لأنهم يتوهون قبل الوصول إلى خط النهاية، يتوهون عند مفترق طرق صعب لا عودة منه ولا مفر، حيث غيمة من الضعف اسمها الوقوع في الحب، هي النقطة التي تعرقلهم بل تشوه ذلك الإيقاع... إيقاع الحب... إيقاع تعزفه ذبذبات لا يتحكم فيها أحد... تضعف وتشتد، لكنها تقاوم،... هي توقن أن الخسارة ستكون نهاية كل شخص ينوي إكمال دربه وحيدا... وتداري ضعفها تحت وهْم من الكمال...

حتى من افتخر يوما بالنجاح وتخطى النهاية يعي جيدا بأن الحب أيضا ناقص... بل هو أنقص ما في الكون من مشاعر... الحب تنقصه حلقات كثيرة تقف كلها عند ذلك المفترق... حلقات تضمحل كلما تمسكنا بها... هي تتعمد إغراقنا أكثر...

حتى نيأس أكثر... فلا نعرف أيهما الأصح؟... العودة أو الاستمرار للمجهول... لأن الذبذبات المكابرة لن تخضع إلا لومضات عقل حكيم... ومضات عقل قد يبخل -غالبا- بأجوبته، فأين يقف منير يا ترى؟ هل تجاوز ذلك المفترق أم أنه لا يزال غارقا يفك طلاسم ذبذبات قلبه ...

في المستشفى كانت أمل جالسة تحاكي وحدتها قلقة الملامح.

- ما هذا الزمن؟ بدأنا برنا... فهل حان دوري؟ أم أن هناك من ستسبقني...؟ من التي ستكون في مرمى هدفك أيها القدر؟ هيا يا رنا أخبريني ما معنى الموت... وكيف يكون الوداع؟ لو كنت أدرك ما قد يحصل يومها لما بدر مني ما بدر يا عزيزتي، ربما كنت تريثت أكثر... أو منحتك الوقت الذي منحتك إياه دنيا... لكن دمعي لا ينفع وكلماتي لن ترجع الزمن، أتعلمين يا صديقتي... رغم القلق الذي يعتريني إلا أنني لست حزينة قطّ لأنني إن متّ... سأكون حيث أنت الآن... وعندها لن أفارقك أبدا...

طأطأت أمل رأسها لحظة من الزمن ثم هزته نفيا.

- لا... ربما لن تستقبليني بنفس الحفاوة التي أتوقعها... لأنك ستلومينني ثانية... وجودي في العالم الآخر حيث أنت سيشعل حزن دنيا المتقد مجددا... حزنها على فراقنا... ستفضلين سعادتها وهي تستقبل خبر عودتي إليها... عودتي إلى سندك الذي ذبل بعدك،... دنيا

بحاجتنا أكثر من أي وقت سابق... يجب أن تفرح قليلا... فوالله شوقنا إلى ضحكتها يعادل شوقنا إلى وجودك بيننا... كأنها دفنت معاني السعادة رفقتك... هي غائبة رغم وجودها... لم أعد أريد سوى رسم الابتسامة على وجهها ثانية... الابتسامة التي عرفناها بها قبل ...

قُطع تفكير أمل صوت الباب ليدخل حميد إلى الغرفة، قعد إلى جانبها مخاطبا بعدما أبعدت عنه أنظارها.

- هذه الطريقة التي تستقبلين بها والدك... أم أنها تعاليم تلك المجرمة التي تنتظرينها بشوق؟

لم ترد أمل عليه وحاولت تجاهله معدلة جلستها، فردّ منحنيا حتى أمسك يدها.

- لم تحضر اليوم لأنها تدبر مكيدة ما، لكنك يوما ما ستقولين يا ليتني اتبعت حميد... أجل ستقولينها وإن شئت لا تسبقيها بكلمة أبي على شفتيك.

سحبت أمل يدها إلى صدرها وقالت.

- لا أدري من أين لك بكل هذا الحقد اتجاهها... لكنني قلتها من قبل... لن أبتعد عنها ولا عن رهف... لن أبتعد ولو ذبحتني، ولا أظن أنه مرّ وقت طويل يجعلك تنسى.

مطّ حميد شفتيه، واتجه ببصره إلى النافذة ليتذكر قبل شهور وبعد أربعينية رنا بأيام، حيث كانت أمل تتحدث بألم مع والدتها.

- حالة دنيا لا تعجبني يا أمي... لا زالت تستمر في لوم نفسها... ولا تستمع إلى كلماتنا... كأنها لا تتذكر إلا اللحظة التي لامس فيها مرفقها كتف المرحومة رنا.
- المسكينة... لا بد لك من دعمها يا غاليتي... حقا كأن الزمن توقف بها عند تلك اللحظة القاسية.
- لن نتخلى عنها أبدا لأنها لم تتخلَّ عنا في أوقاتنا الصعبة... رغم اللوم الذي تحترق بين ثناياه إلا أنها أقوى... ستجد حلا ما... لن يستمر حزنها طويلا... وستعود رفقتنا.

بينما هما تتحدثان بصوت مسموع دخل حميد الذي كان يصغي خلف نافذة الغرفة وخاطبهما مستهزئا.

- جيد حقا؟ حديث جميل بين أم وابنتها، ألا تتعلمين من غيرك يا أمل؟ لقد قَتلتْ صديقتها فهل تنتظرين دورك؟... هذا ما يردده الجميع ويؤكده.
- لم تفعل ذلك... هذه إشاعات لا أساس لها من الصحة ...
- إذا أليس مرفقها آخر ما لمس جسد تلك المسكينة قبل أن تموت... لقد قلتها بفمك قبل قليل... فلا تنكري ما يؤكده غيرك... لأن هناك من أخبرني بكل التفاصيل التي تسعين جاهدة لإخفائها عنّي ...

وقفت أمل وردت بحزم وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

- ولا بد أن الذي أخبرك بهذا لم ينس إخبارك أنها كانت تحاول إمساك يدي عندما حدث ما حدث...

ابتسم حميد مستهزئا ثم نظر إلى سامية وقال.

- لا ألومك في شيء... بل كل اللوم على والدتك التي تشجعك على البقاء معها رغم علمها بما حدث ...

ردت سامية دون النظر إلى وجهه.

- ما حدث لم يكن مقصودا... هذا الذي أنا متأكدة منه... فعلمي بخصال دنيا لا يقل عن معرفتي بأمل وأمينة... وأنا لن أصدق كل ما تحوكه أفواه اعتادت الثرثرة.
- لا دخل لي بما ستقولانه، لأن أمل صغيرة ولا تعرف ما يصلح بها... وفي غياب أمومتك سأقول ما كان علي قوله منذ مدة طويلة... تلك الفتاة لن يكون لها وجود في حياتنا بعد الآن.

اهتزّ بدن أمل ونظرت إلى والدتها مرتعبة صارخة.

- مستحيل... ليست دنيا... قولي له شيئا يا أمي ...
- أغلقي فمك... ستنفذين ما أقوله من الآن وصاعدا.

ثم انطلق خارجا من الغرفة، فتبعته حتى الرواق باكية متوسلة.

- **أرجوك لا تفعل بي هذا.. لن يستطيع أحد إبعادي عنها، لا أعلم لماذا؟ ولكنك تكرهها منذ زمن طويل... فقط لأنك رأيت فيها صورة الفتاة التي لا تسكت إن ظلمت؟ ولم تجد سببا لتبعدها عني والآن تحاول التحجج بإشاعات لا صحة لها.**

صفعة قوية من حميد كانت كفيلة بإسقاط أمل أرضا، لتصرخ سامية باسمها أمام غضب وحقد امتزجا بين ملامح الوالد، وهنا رن جرس الباب... فمن يكون الطارق يا ترى؟

ما مرت به الصديقات لم يكن سهلا، ولكن الصداقة كانت فوق كل شيء، فكلمتهن لن تسقط طالما زينت بالوفاء والإخلاص، ونقشت بدفء الأخوة ومشاعرها، حتى رنا بعد أن رحلت حاولت إيقاظ دنيا من سباتها الدفين، سبات لا يزال موجودا داخلها، وهاهي أمل تتخبط بين ألم الحاضر ومتاهات الماضي الأليم، خوف العم سمير يزيد بسبب كلمات رضا التي كان يغزها في قلبه كالشوك كلما وجد الفرصة؟ حقيقة ستمس من وثقت بهم دنيا... أسرار وُصفت بكلمة واحدة... (جاسوس) فعلى من ولماذا يتجسس؟

قلوب تائهة ...دموع سائلة ...حروف هائمة ...

معاني غائبة... وخطط غامضة...فأين ستستقر القرارات القاتلة؟

ومن سيكون ضحيتها بين هذه الدروب الشائكة؟

الحقيقة لا بد لها من الظهور ولو طال الزمان، كما كان لا بد للماضي بأن يتشبث بالعقول مع دقائق الحاضر وأحلام المستقبل، رغم آلامه وقسوته والدموع المنهمرة به سيبقى جزءا مهما من الحقيقة ومرحلة تم المرور عليها ولو فوق إرادة تلك الشخصيات.

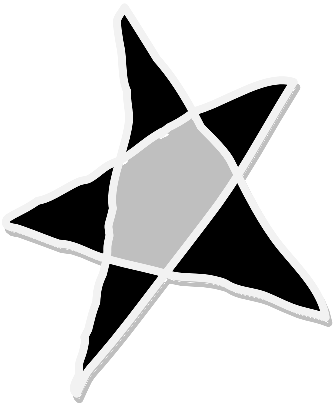

الفصل السادس: الظل الخفي يقترب.

بعد انتهاء حصة الرياضة، اجتمع التلاميذ حول حنفية المياه للشرب وأخذ قسط من الراحة، كانت سمر تشرب الماء وتتسمع على حديث دنيا مع رهف.

- الأستاذ منير ينوي زيارة أمل معنا...
- من؟.. الأستاذ ؟ ولكن أخشى من المشكلات التي قد يحدثها والدها... تعلمين طباعه اللئيمة ...
- لكنني لم أجد ما أقوله... فله علينا الفضل الكبير... وأثق به... سيزورها وينتهي الأمر... آمل ذلك ...

منذ رحيل رنا ارتكزت تصرفات دنيا حول مجاكرة نور ومن يرافقها، ولما طال وقوف سمر أمام الحنفية فهمت أنها تتجسس عليهما، فصرخت فيها.

- أسرعي يا سمر ودعي من خلفك يشرب قليلا، أم أنك تشربين بأذنيك؟
- بهدوء... بل سأشرب بعيني إن أردت ...فما دخلك؟

كان الأستاذ منير يراقب من بعيد بحذر، ليس هو فقط بل أصبح الكل يخشى التحام الكلام بين الطرفين، التحام كان ينتهي غالبا بشجار تترصده دنيا التي سحبت نفـسها قائلة.

- لا تترثري يا سمر... فوالله لأجعلن كل همومي وغضبي ينصبان على جسدك دون مقدمات.

- يكفي يا دنيا إنها تتعمد استفزازك... لا نريد الشجار معها مجددا.

قالت رهف كلماتها وأبعدت دنيا قبل أن تستوقفهما نور متنهدة من الخلف والمنشفة بين يديها مردفة.

- أبعديها يا رهف وإلا فلن تجد من يدافع عنها هذه المرة، وأنت يا سمر لقد قلت لك مرارا أن لا تقحمي نفسك بشجار مع أمثالها... وإلا ستقعين في الفخ الذي وقعتُ فيه من قبل ...

التفتت إليها دنيا فأكملت بجرأة غريبة.

- ستستعطف قلوب الجميع بعد إيذاءك... وتتحجج بموت أمل كما تحججت فيما سبق بموت رنا.

ضمت دنيا شفتيها واقتربت ببطء، ولما أرادت رهف إيقافها نظرت إليها بغضب دفين ونبرة هادئة أطلقت بمكر عندما دنا الأستاذ منير منها.

- حبا في الله... لا تقفي في وجهي هذه المرة... لا توقفيني... سأذكرها لا أكثر... لن أتجاوز حدودي... اطمئني... كل ما سأفعله أنني سأتحدث معها يا رهف... فقط أحرف قليلة ...

لما سمع الأستاذ ما قالته اعتقد أن الأمر لن يتجاوز الكلام، فوقف عنده بينما استقامت نور بثقة، ولكن المفاجئ أن دنيا هجمت عليها بكل ما أوتيت من قوة مباغتة الحاضرين، تدخلت

رهف مبعدة سمر التي حاولت التهجم على دنيا دفاعا عن نور، والتحمت الأيادي مجددا... ولم يستطع أحد فك الشجار إلا بعد تدخل الأستاذ منير وقدوم الأستاذة سليمة التي اقتادتهنّ للإدارة كعادتها وتعالى صراخها.

- هذه ثانوية وليست بزريبة للمواشي.

ردت دنيا بصوت مسموع، فيما التهت سمر تعدّل خمارها الذي نكش على يدي رهف.

- المكان الذي يوجد به العقارب لن يكون سوى زريبة امتلأت بروث البهائم.

ضربت الأستاذة سليمة يدها على سطح مكتبها وصرخت.

- تأدبي يا دنيا... يبدو أنك ستبقين بهمجيتك وستصيبيننا بالصداع من وراء حقدك وهلوستك.
- كي تعرف مستقبلا حدودها معي، ولن تسلم من همجيتي إلى حين ذلك الوقت.
- أي حدود؟ وقد خربت وجه الفتاة من قبل... منحناك فرصا كثيرة ويبدو أنك لا تستحقينها... ونهايتك ستكون الطرد الحتمي ...

عقدت نور حاجبيها مراقبة بحنق، ليتدخل الأستاذ محاولا تهدئة الأستاذة سليمة وشرح الموضوع.

- لا بأس يا أستاذة لن يكررْنها ثانية، هو فقط سوء فهم.

- في هذه الثانوية يوجد قوانين ويجب على الجميع الانضباط... ثمّ ماذا عنك يا رهف؟ عهدي بك أنك رمز للرزانة والهدوء... أم أنك صرت تماثلين دنيا في ميلانها للضرب والعنف.
- نور التي بدأت... تحاول دائما مهاجمتنا بألفاظها اللعينة.

نظر الأستاذ منير إلى رهف وخاطبها بنوع من الحدّة صارخا.

- يكفي يا رهف، حسنا... لقد سامحتكنّ الأستاذة وأما إذا تكرر الأمر فلن أتدخل، يمكنكنّ الانصراف ...
- لولا تدخل الأستاذ لكنت مررتكن على مجلس التأديب، وبخاصة أنت يا دنيا...

وخوفا من أي مناوشة جديدة... انطلقت نور وسمر أولا ثم سمح الأستاذ لدنيا ورهف بالذهاب، وما إن دخلتا حتى توجهتا إلى مكانهما المعتاد، لتشرد دنيا متأملة بعمق أسمائهن المدونة على الجدار أسفل النافذة حتى استقرت عند اسم رنا مقران وتذكّرت.

في ذات اليوم الذي ضرب فيه حميد أمل، كانت دنيا قد خرجت من المنزل متجهة إلى المقبرة، وخوفا عليها من أي ضرر قد تتسبب فيه لنفسها بعد الذي مرّ بها لحقها هيثم خلسة، تخطت القبور حتى وصلت إلى قبر تمنت لو طال بها الدرب قبل بلوغه، لو أنها اخترقت ببصرها أكوام التراب حتى تتمكن من رؤية ملامح اشتاقت إليها... لو أن جرأتها تدفعها

إلى نبش القبر حتى تحضن رفيقتها مجددا.. تمنت ما تمنت وهي لا تدرك أنها لن تجد غير بقايا عظام أو ربما مجرد آثار...

في لحظة قاتلة انحنت دنيا إلى القبر وراحت تداعب حبيبات التراب علّها بذلك تستشعر لمسات رنا، هناك شيء ما منها داخل القبر، رغم مشاعرها المختنقة ودموعها التي لم تتوقف إلا أنها أيضا لا تريد أن تتقبل فكرة وجود رنا في جوفه، جسدها، روحها، ماضيها، وأخبارها المستجدة...

بدأت تهز رأسها رفضا قبل قراءتها اسم صديقتها الكامل على شاهدة القبر فعلاها الصمت لحظات قبل أن تقول.

- رنا مقران... (هه) الدليل الوحيد الذي يريدون إقناعي من خلاله أنك موجودة هنا... أليس كذلك؟ لطالما كتبنا أسماءنا في كل مكان بلغناه... لا بد أنك في مكان آخر... تختبئين لأنك غاضبة مني لا أكثر... اتفقتِ معهم... وتحاولون جميعكم خداعي... هيا لقد طال العقاب الذي قررتموه في حقي... لم يعد بإمكاني التحمل أكثر... فتوقفوا أرجوكم... يمكنني أنا أيضا أن أكتب اسمي على قبر فارغ... وأختبئ حتى تظهري مجددا... سيكون بجوارك إن أردت... لكن عودي ...

سقطت دموع دنيا محتضنة القبر ثم اتكأت على طرفه مردفة...

- ... صدقيني لم أكن أقصد ما حدث؟ أردت إمساك أمل لا أكثر... أردت أن أفضح نور بعدها ونعود كما كنّا... عودي وسترين كيف علّمت على وجهها... علمتها نتيجة التلاعب بنا والاقتراب منك... اعترفت لي بقذارتها... وإن أردت أرغمها على الاعتراف مجددا.. لكن عودي واظهري من حيث أنت... لا أريد أن أقولها... لا أريد أن أقول وداعا... فروحي لا زالت تنبض... كيف لها أن تنبض في عالم لست موجودة به... إما أن تعودي وإما أن أدفن روحي معك ...

ثم سكنت هنيهة مبتسمة ماسحة دمعتها واستطردت.

- لا تقلقي لن أقدم على أذية نفسي... لن تفرح نور بإيذائنا ثانية... بل سأدفنها ريثما ألقاك... وعندما تعودين سأتمكن من استرجاعها برفقتك... وإلى ذلك الحين أعدك بأنني سأحافظ على جمعتنا... رهف وأمل ستبقيان إلى جانبي ولن تتخلى أي واحدة منا عن الأخرى... سنتلاصق أكثر وأكثر... لن نفترق ثانية... فانتبهي لنفسك... اعتني بها أينما كنت يا رنوش.

وقفت لتستدير راحلة مقرّرة بدء حياة تخلو من اسم رنا مقران، قطعت عهدا بأنها لن تسقط ثانية وستحافظ على أمل ورهف مهما كلفها الأمر، حينها كان هيثم يراقبها في الخفاء والقلب يتقطع على الحال التي آلت إليها أُخته، ظل يتبعها إلى منزل أمل حيث قررت زيارتها، وهي لا تعلم القرار الذي اتخذه

حميد، وقفت تضغط زر الجرس بهدوء، ولما فتح هذا الأخير الباب صدمها مشهد أمل مرمية أرضا تبكي عند آخر الرواق، ظنت أمل يومها أنها تشاهد سرابا، لم تصدق أن دنيا واقفة أمامها، وقبل أن تستوعب ما يحدث صرخ حميد ونظرات الاحتقار تشوه ملامحه.

- ما الذي تريدينه؟.. انقلعي من هنا.
- جئت لزيارة أمل ...
- أمل ستكون بخير عندما تتوقف عن رؤيتك... لذا لا أريد رؤيتك تقفين عند عتبة هذا الباب ثانية.

تأملت دنيا أمل بحزن وقد وقف حميد حاجزا بينهما، ثم استطردت بجرأتها المعتادة.

- وهل تعتقد أن تصرفا كهذا يمكنه أن يفرق بيننا... آسفة ولكن تفكيرك لا يزال سطحيا جدا... فمن يريد أن يفرق بيني وبين صديقاتي يجب عليه أولا أن يغوص في أعماق لن يتمكن أمثالك من سحب نفس واحد عندها ...

ابتسم حميد ساخرا ثم اقترب منها متحديا وقال.

- سأغوص في هذه الأعماق القذرة التي صنعتها وسجنت عقل ابنتي داخلها... سأجعلها ترى حقيقتك مثلما يراها أمثالي... وإن أردت إنقاذ نفسك... ارحلي من هنا ...

انتفضت أمل إلى يدي حميد مقبلة والدموع تنزل بحرقة.

- أرجوك يا أبي لا تفعل هذا... لا تصدق ما يقوله الآخرون... ثق بي لمرة واحدة...

ظلت دنيا واقفة تتأمل بألم ذلك المشهد وهي تتساءل عن سبب هذا الكره، عن هذه القسوة الجارحة، أرادت الرحيل حقا... ربما تنتهي قسوته وتعيش أمل بين عائلتها بسعادة طالما تمنتها، أرادت أن توقف تلك المعاناة ولو كان ذلك على حساب سعادتها... لكنها تراجعت بمجرد أن داعبها ذلك الوعد الذي قطعته على رنا قبل لحظات فقط، انهمرت دموعها وسحبت أنفاسها في حنق.

- حتى لو كنت والدها... حتى لو كان حقك عليها أكثر إلزاما... أعلم جيدا بأن هذه الحياة علمتنا أمورا أنقى من هذه الأوامر... لا أريد أن ألزم نفسي على أحد... ولكنني في نفس الوقت لن أتخلى عن ابنتك مهما حدث ...

ابتسمت أمل بفخر قبل أن تقف وتقول ماسحة دموعها.

- وأنا أيضا لن أتخلى عنك وعن رهف مهما حدث.. مهما حدث ...

استفزت كلماتهما حميد فصرخ فيهما بعد أن دفع دنيا أرضا بكل قوته، وأمسك معصم أمل.

- إنها الوقاحة بعينها... اعتبري ذلك تحديا أيتها الفتاة... لن تري خيال أمل ثانية ولو اضطررت لسجنها في غرفتها ما بقي من حياتها.

ثم رمى بأمل إلى حضن والدتها مغلقا الباب من الخارج، وهنا اصطدم بهيثم وقد أحكم عليه الخناق صارخا.

- أيها الحقير... كيف تجرأت على دفعها؟

رفع هيثم قبضته في استعداد ليلكم حميد لكن دنيا أسرعت وأمسكتها مرتعبة.

- لا تفعل ذلك يا أخي... أرجوك لنذهب من هنا... فقد أصبحت خطرا على الجميع... وسأظل ما حييت.

أربكت تلك الكلمات هيثم فاستدار إليها بحنو وأحاطها بذراعه.

- لا تقولي هذا... الجميع ينتظر ابتسامة واحدة منك حتى يرى العالم بألوانها... فلا تجعلي ما يقوله هذا الرجل يؤثر في صفاء عالمك.
- دعنا نعد إلى البيت إذا... أرجوك ...

قبل رحيلهما استدارت دنيا إلى حميد وقالت بإصرار واضح وصل صداه إلى أمل التي كانت تنصت خلف الباب.

- أنا لا أتحدى أحدا... حاليا أنا فقط أحذرك... أحذر كل شخص يمكنه أن يمشي على خطى ذلك العقرب

البشري... سأبتر تلك الأقدام قبل أن تطأ عالمنا الجميل ...

التهب الحقد بين نظرات حميد لتقول أمل بخفوة وقد تضاعفت دموعها.

- **وأنا سأكون ذلك السيف الذي يحمي عالمنا يا غاليتي...**

انطلق هيثم مع أخته متجاهلا نظرات من اجتمع حولهم قدر المستطاع، ليفرقهم حميد شتما ثم دخل مخاطبا أمل بغضب.

- **لن تطأ قدماك أرض تلك الثانوية... ولا أريد أن أسمع اسم تلك الفتاة داخل بيتي ثانية.**

صرخت سامية ووقفت متحدية.

- **لن أسمح لك بفصلها عن دراستها أيها الظالم...**

مطّ حميد شفتيه غاضبا ثم عاود الخروج تاركا النار تلتهب في قلبيهما، في الحقيقة لم يرد يومها إلا إبراز نفسه، وشيئا من هيبته أمام أفراد عائلته.

بعد أشهر من تلك المناوشة، استقر رضا في مكانه عند دكان العم سمير يرمق منزل سي أحمد بعمق، تجاوزت الساعة الثالثة عصرا حين ظهرت أسماء ورهف من بعيد، لم ينتبه الشاب للتحيات التي توالت عليه من أسماء، فدنت منه تلوح بأصابعها مازحة، ليعدل من جلسته منصتا إلى سؤالها البريء.

- أين ذهب عقلك أيها العم الفلسطيني؟ لماذا لا ترد السلام؟

استحت رهف من تصرف أسماء فسحبتها من ذراعها.

- يكفي يا أسماء... هذا عيب.

ابتسم رضا هنيهة ثم رد معتذرا.

- أسماء معها حق... آسف... فقد شردت قليلا... أهلا بكما... يا... رهف أليس كذلك؟

هزت رهف رأسها مؤكدة قبل أن تسحبها أسماء مذكرة.

- هيا يا رهف... لنذهب... فدنيا تنتظرنا، أريد أن أُفاجئها بقدومك.
- وهل تتوقعين أن لا تحزرني دنيا؟... هيا لنذهب.

استدارت الصديقة إلى باب سي أحمد، إلا أن رضا خاطبها مستوقفا.

- لحظة يا آنسة، هل يمكنني التحدث معك قليلا؟
- ما الأمر؟

ثم نظر إلى أسماء مرتبكا وكلمها.

- هيا اسبقيها يا أسماء، وستلحقك الآنسة رهف بعد قليل.
- حسنا سأنتظرك قرب الباب، فلا بدّ أنه حديث بين الكبار كما هي العادة.

ضحك رضا ملء شدقيه، لتسأله رهف مستفسرة.

- خيرا، ما الأمر يا رضا؟

- يبدو أنكما على صداقة وثيقة..... أقصدك ودنيا.
- دنيا؟ نحن معا ولم نفترق يوما... مذ عشر سنوات... بالإضافة إلى أمل و...

علا فؤاد رهف الصمت فتنهدت متذكرة شمسا لم يغب دفئها على الرغم من غيابها خلف الأفق البعيد... شعر رضا وهو ينظر إلى عيني رهف الهادئتين أنه فتح جروحا قديمة، جروحا أوحت نظرته المشتركة مع رهف إلى منزل رنا أنه يعلم أدق تفاصيلها، فحاول تغيير الموضوع وكانت المفاجأة أنه يتقن اللهجة الجزائرية لحد كبير حين ردّ.

- كوْني متأكد أن الزهور المتفرقة لا يمكنها الصمود في وجه العواصف التي تهب، فإنني من جانب آخر موقن أنها ستنجح إذا كانت مجتمعة أو ربما قادرة على تخفيف قيمة الخسائر على الأقل.
- رائع !؟ وتتقن اللهجة الجزائرية أيضا؟
- لقد تعلمتها من صديقي وليست هذه أول زياراتي...

أردف رضا بلهجته الفلسطينية.

- في كل مرة أتعلم كلمة جديدة... بالمناسبة بقيت سعادة دنيا حين تسلمت هدية أسماء تثير فضولي... ألهذه الدرجة؟
- ما هذا السؤال الغريب؟ أي جزائري هو عاشق للجزائر، ستبقى وطننا الأم ودمُنا جزائريّ، أما عن دنيا فقد صرخ فيها هذا الشعور وأعلن أنها قد أصبحت ملكا للوطن،

من يراها أول مرة يعتقد أن هناك شيئا من المبالغة ولكنها عرفت بهذه التصرفات منذ صغرها... ربما لأنها ابنة أكبر مجاهد جزائري ضد الاستعمار الفرنسي.

تنهد رضا ورد.

- كلامك صحيح... الوطن الأم سيبقى الأحق بالولاء والإخلاص... مهما حدث سيبقى وحده الأحق.

ثم ابتسم ابتسامة اليائس الذي كان تائها ثم عرف درب العودة إلى برّ الأمان بعد عناء طويل، ولمّا طال أمدها استفسرت منه رهف مازحة.

- ما سرّ هذه الإبتسامة؟... وكأنني أرى العم سمير أمامي.

طأطأ رضا رأسه برهة ثم رفعه وقد اتسعت ابتسامته.

- لا تهتمي... فقد عدت بذاكرتي إلى وطني فلسطين، تعلمين أن ظلم الاحتلال جعلنا نعيش بعيدا عن ترابها الطاهر وهوائها الشافي ...

تأفف مداعبا نظارته ثم رد.

- على كل أردت أن أخبرك بشيء أتمنى أن يظل سرّا بيننا.
- وما هو يا ترى؟ وممّن سأخفيه؟
- الفتاة التي اسمها نور صاحبة النظرة الثعلبية، بطولك تقريبا أذكر أنه كان بوجهها جرح تظهر ملامحه لكل من يراه.

احتدت نظرات رهف سائلة.

- نور؟ خيرا أتعرفها؟ لماذا تسألني عنها؟
- لا... لا أعرفها... لكنها فتاة خطيرة ولا تنوي الخير لكما وكرهها الجنوني لدنيا يجتاز كرهها لك.
- خيرا وما الذي رأيته؟
- لا تهتمي بما رأيت طالما كنت على معرفة بسوء نياتها... ولكن الحذر واجب... أحذركما من باب الجيرة التي تجمعكما مع العم سمير...
- لا داعي لتنبيهها... فالسكين التي غرستها في قلب دنيا جعلتها تكون هدفا لنا جميعا، وأما عن مكائدها فلن تتجاوز الكلام؛ لأنها أصبحت تخشى من خيال دنيا بن زيان.

ابتسمت رهف مكملة كلماتها في استهزاء.

- ذلك الجرح الذي بوجهها جعلها تحسب ألف حساب لدنيا قبل العبث معها.
- حسنا أنا نبهتك... والآن انطلقي إلى أسماء وإلا ضربتني بسبب شغلك عنها كل هذا الوقت.

ضمت رهف شفتيها شاردة ثم انطلقت إلى المنزل، فيما شرد رضا كعادته، وفي رواق المنزل الضيق كانت أسماء تجرّ رهف بسرعة.

- بهدوء يا أسماء... لن أهرب.
- أخفضي صوتك يا رهف... اختبئي هنا.

وقفت رهف في الرواق فيما أطلت أسماء سائلة.

- هيا يا دنيا اِحزري من جاءت معي.

مسحت دنيا دموعها بسرعة وتظاهرت بالسعادة متجاهلة حزنها، لكن نظرتها المنكسرة كانت الأبلغ في ترجمة مشاعرها.

- أعلم أنها رهف يا أسماء.
- وكيف عرفتها؟ أردت مفاجأتك.

ضمت أسماء شفتيها غضبا فوضعت رهف يدها على رأسها بينما كانت تنزع شالها وقالت بلطف.

- لا تغضبي، ما يجمعنا يتجاوز هذه الجدران... أليس كذلك يا دنيا؟

ابتسمت رهف ثم انتبهت إلى ملامح دنيا التي لم تتجاوب معها.

- ما الأمر؟ هل أنت بخير؟
- لا شيء... لقد كنت نائمة واستيقظت الآن.
- حسنا هل أخبرت أمل أن الأستاذ منير قادم معنا؟
- لا لم أفعل، سأخبرها غدا بإذن الله.

انتبهت دنيا لأسماء تعبث بالمزهرية التي أهدتها لها أمل، فصرخت في وجهها كأنها شخص آخر، ردة فعلها غير المعهودة أثارت استغراب رهف التي ظلت تتأملها بصمت، ولما علا صوتها وضعت أسماء ما كان بيدها فزعة وخرجت باكية حتى كادت

تصطدم بفاطمة وبيدها صينية بها العصير والحلوى ، ثم سألت.

- ما الذي فعلته لك يا دنيا؟

لم ترد دنيا عليها، فتدخلت رهف باسمة وهي تجهز المائدة المستديرة كي تضع فاطمة الصينية فوقها.

- لا بأس... ستراضيها دنيا فيما بعد، لكن لماذا أتعبت نفسك يا خالة؟
- تعبك راحة، أصلا أحسنت بالمجيء، كيف حال رؤيا؟

أجابت رهف وقد اعتادت تمثيل دورها ببراعة، فإلى متى ستتمكن من خداع دنيا وأمل؟ تحملت ألمها وحيدة، فمتى ستفتح أبواب قلبها لصديقتيها وتجتاز أرضا مظلمة المصير إلى برّ الأمان.

- بخير يا خالة وهي ترسل إليك سلامها أيضا.

ابتسمت فاطمة ولما التفتت للخروج من الغرفة تكلمت رهف هامسة بصوت مسموع مخاطبة دنيا.

- لقد مررت بذلك الشاب الفلسطيني وقد سألني عنك يا دنيا.

ما إن أكملت رهف كلماتها حتى أسقطت فاطمة ما كان بيدها في هلع غريب وقد اهتز بدن الفتاتين، لتقف دنيا وتتجه إليها بسرعة.

- أمي ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

ارتبكت فاطمة كأنها نسيت مخارج الحروف، ثم تمالكت زوبعة هاجت بأفكارها وردت متلعثمة.

- لا شيء يا ابنتي، انزلقت من بين أصابعي في لحظة سهو... أكملا الحديث وأنا سأذهب لأر أين استقر غضب أسماء.

تظاهرت فاطمة بالخروج فيما بقيت تنصت من خلف الباب في وضع مريب، امتلأت عيناها بالدمع وأحكمت قبضتها على صدرها كأنها أنفاسها الأخيرة، أما دنيا فقد أستمرت في كلامها.

- ذكرتني أمي الآن به في سهوها، فهو أيضا كثير الشرود مثلها... أما عن نفسي فلم أطقه دقيقة واحدة، بدا لي متعجرفا ومتطفلا.

مطت دنيا شفتيها غير مبالية لتردف رهف.

- ما بك؟ الذي يسمع هذا الكلام لا يصدق أنك كنت تتوقين للحديث مع أي فلسطيني كان.
- ولا زلت أتمنى ذلك... لكن لا أستطيع أن أأتمن ذلك المغرور... أشعر بانقباض غريب كلما رأيته.
- يبدو أنه كثير السؤال عنك... ربما هو معجب بك.

ابتسمت رهف وأتبعتها بغمزة استفزت دنيا فردت مباشرة.

- ما هذا الكلام؟ لو كتب لي البقاء عانسا طول حياتي لما فكرت في أمثاله أيتها الحمقاء.
- لم كل هذا الغضب؟ كنت أمزح فقط، أتدركين أنه يتحدث اللهجة الجزائرية بطلاقة مقبولة.
- حقا؟.. لم أسمعه يتكلم بها من قبل.
- التقيت به مرة واحدة ولم تمنحيه فرصة للحديث بلهجته... لولا تدخل العم سمير لحظتها لكنت افتعلت معه شجارا ما...

ابتسمت دنيا لتسمع طرقا متواصلا على الباب، ركضت أسماء لفتحه بينما انسحبت فاطمة بسرعة نحو المطبخ وحملت هاتفها محاولة الاتصال بزوجها، أما أسماء فنادت مبتهجة.

- أمي لقد وصل هيثم، يااااه ما هذا الذي تحمله؟
- فضولية كعادتك... ابتعدي عن الطريق ونادي دنيا.
- لن أفعل... ويمكنك أن... تناديها... بنفسك.

ذهبت أسماء بسرعة إلى المطبخ وإذ بالأم تخفي الهاتف مرتعبة، استغرب هيثم من ردة فعل أسماء الحادة فنادى دنيا طالبا مساعدتها، وعندما رأته حاملا صندوقا كبيرا مغلفا بغلاف للهدايا، مكثت مكانها متعجبة لما بين يديه.

- ما هذا الشيء الذي تحمله يا أخي؟
- ساعديني أولا، أسأل عن مصدر فضول أسماء وأنت أم الفضوليات التي غرست فيها هذا الطبع.

- لن أستطيع تكذيبك... دعني أحمله معك.
- اذهبي وأحضري الأغراض التي في صندوق السيارة، ولا تتركيه مفتوحا.

انطلقت دنيا إلى الخارج لإحضار ما كان داخل صندوق السيارة على عجل وما إن رآها رضا حتى وقف بحركة واحدة مرتبكا، ظل يراقبها وقد تطايرت من عينيه معاني لم يكن لها صلة بسكون أنفاسه وجسده، حملت صندوقا أصغر مغلفا بذات الغلاف وأكياسا كانت إلى جانبه باسمة، واستدارت لتغلق صندوق السيارة وعندما رأته ينظر إليها بتلك الطريقة سارعت بالدخول إلى المنزل مغلقة الباب في وجهه بقوة، ليلتفت إلى العم سمير الذي كان يراقبهما بصمت، وعندها ثارت ثائرته وانطلق متسارع الخطى إلى العلية حيث الغرفة التي ينام فيها العم وقعد على طرف السرير وقال.

- اعتقدت أن مهمتي سهلة لكنني كنت مخطئا... أي خطوة غبية مني ستجعلني في موقف صعب... لكنني لا أملك من الوقت الكثير... يجب أن أنجح مهما حدث ...

مسح وجهه متأففا ووقف متحديا.

- كل ما سأفعله هو من أجلك نجمتي... وكل شيء يهون لأجل ضحكتها التي اشتقت إليها بصورة لا يمكن وصفها... ساعدني يا رباه... فلا نية لي سوى استعادة حقي الذي لن أتخلى عنه أبدا.

سحب رضا نفسه وارتدى نظارته ثم عاد حيث كان يقعد، فيما جثمت دنيا خلف الباب هنيهة مخاطبة نفسها بانزعاج.

- ما الذي يحدث معي؟ لماذا نظر إليّ بتلك الطريقة؟

لما أطلت عليها رهف تمالكت مشاعرها ثم تبعتهم حيث وضع هيثم ذلك الصندوق الكبير، فسألته.

- لماذا أتيت به إلى غرفتي؟
- كفاك أسئلة وافتحيه.

شرعت دنيا تفتحه ففوجئت بمجموعة كبيرة من الكتب التي تحتاجها في الدراسة مع قواميس تحاكي مختلف اللغات، ومراجع متنوعة مرفقة بحلول نموذجية، فأخذت تتصفح بعضها مخاطبة.

- رائع... ما كل هذه الكتب؟
- كل جواب يوَلّد في ذهنك ألف سؤال؟ عيد ميلاد سعيد... لقد اشترى أبي المكتبة فخطر في بالي أن أملأها.
- شكرا لك يا أخي ...

توجهت إليه وحضنته فمسح دموعها مقبلا جبينها كعادته، أما رهف فردت مازحة.

- يبدو أنك ستصبحين أينشتاين إن قرأتها كلها، أو ربما شاعرة يطيب للغير سماع ما تنظمه أناملك.

انغمس الجميع في ضحكهم، فيما ظلت فاطمة تشد على يديها ممسكة الهاتف بقلق، لينتبه هيثم لرأس أسماء يتدلى خلسة خلف الباب لذا أمرهم بالصمت مشيرا بعينيه، وتسلل حتى فاجأها حاملا دمية قطة بيضاء صغيرة.

- وها قد عرفت ما بداخل العلبة... والآن هذه لك.
- ياه.. ما هذه القطة الجميلة؟

حملت أسماء تلك الدمية بسعادة، وبعد ساعة تقريبا خرجت رهف عائدة إلى بيتها، نظر رضا إلى العم سمير بارتباك قبل أن ينطلق مناديا باسمها، و هنا لحق به العم ممسكا ذراعه، ثم همس قبل أن تبلغهما رهف.

- ما الذي تنوي فعله؟ كفاك جنونا؟
- أعتقد أنه الوقت المناسب للجنون... لا تتدخل فأنا أعرف ما عليّ فعله... والآن لا تثر شكوكها من اللحظة... ابتعد أو أعرني صمتك.

وصلت رهف عندهما فابتسم رضا محاولا إراحة شكوكها، فيما وقف العم سمير يسمع بحرقة.

- هل ناديتني؟
- نعم... وآسف لإزعاجك... ولكن الأمر مهم.
- حقا لقد تأخرت ويجب أن أذهب... خيرا إن شاء الله.
- لن أطيل عليك... ولكن هلا أعطيتني رقم هاتفك الخاص.

زاد استغراب رهف وتحسست القلق الواضح على محيا العم سمير، ثم ردت.

- بأي صفة سأعطيك رقم هاتفي؟ ما الذي يحدث معك؟
- لا تفهميني بطريقة خاطئة ولكن الأمر في غاية الأهمية ولا يحتمل التأجيل أكثر، إن لم ترغبي في إعطائي رقم الهاتف فامنحيني بعضا من وقتك.
- أخبرتك توا أنني مشغولة وتأخرت عن المنزل، لذا فأنت مضطر لتأجيله أيًّا كان محوره.

تنهد رضا منزعجا ثم استسلم لقرارها مردفا في رجاء.

- كما تشائين وأنا أتفهمك... لكن جدي لي وقتا غدا كأقصى تقدير... لو سمحت؟

أرادت رهف الرفض لكن الجدية التي ظهرت بين ملامح رضا جعلتها تتريث وتعيد التفكير لذا ردت مرتابة.

- حسنا غدا سآتي للحديث معك بشرط واحد وهو حضور العم سمير.

نظر رضا إلى العم سمير خيفة رفضه لكن الأخير أومأ لرهف بالموافقة فبسط صفحة وجهه ورد.

- رائع، لكن هلا أبقيت ما دار بيننا سرا...

كشفت رهف قصده فردت بمكر.

- أنت تقصد دنيا بكلامك؟

رد رضا محاولا طمأنتها.

- بل أقصد الجميع... بمن فيهم دنيا...

رن هاتف رهف وإذ بها دنيا، فارتبكت وهي تنظر إلى منزل سي أحمد، لذا قالت.

- أنت حقا غريب الأطوار، لا تحرجني بطلباتك التي لا تنتهي... من المستحيل أن أخفي حديثي معك عنها.
- أقدر صدق المشاعر التي بينكما، ولكنني أطلب منك إخفاءه هذه الأيام فقط... وبالتأكيد سيأتي اليوم المناسب الذي يعلم فيه الجميع ثنايا قصتي وليس دنيا فقط.

أنزل العم سمير نظارته وقد كسرت بين يديه من شدة الضغط عليها بأصابعه ثم حدج رضا بنظرة أرعبت رهف فتراجعت خطوة إلى الخلف منصتة إلى خطابه الحاد.

- رضا أغلق هذا الموضوع، فلن تنجح... ودنيا لم تغير موقفا اتخذته يوما ولو أنك اعتمدت على والدها كوسيط، وقد ربيتها على يدي... لذا عُد من حيث أتيت.
- الموضوع لا يهمك، كما أنها لم تتخذ أي موقف بعد... لذا لا تتدخل... لأن الحقائق جلية أمامك أكثر من أي شخص...

عاد رضا ببصره إلى رهف متوسلا.

- لو سمحت يا آنسة وافقي ولن أنسى معروفك أبدا... عديني أنك لن تخبريها بما سمعته الآن... على الأقل حتى لقاءنا في الغد وعندها اتخذي القرار الذي يناسبك.

تضاعفت مخاوف رهف لذا ردت مرتبكة.

- حسنا غدا مساءً ويبقى شَرطي الوحيد حضور العم سمير معك... والآن دعني أمضي في طريقي... لقد تأخرت.

أحست رهف بقلق وخوف من تلك الكلمات، كأن النظرات التي دارت بين رضا والعم تجيبها بلبس، ها هي ذي خيوط الحقيقة المتشابكة تكاد تعصف بها، فمن يكون رضا أبو غزالة؟ وما الذي لا يريد من دنيا معرفته؟ رغم إخلاص رهف إلا أنها قررت لسبب ما إشباع فضولها والموافقة على شرط رضا... أرادت كشف سبب الانقباض الذي يسيطر على صديقتها عندما تراه، كانت رهف تعرف طباع الأخيرة جيدا... كانت تتوقع تحججها بأي حجة لبدء حديث ما مع هذا الفلسطيني، لأنها تعي جيدا كم كانت نفس صديقتها تتوق للقاء الفلسطينيين ومبادلتهم سرائرها العاشقة لهذا البلد، لكنها لم تفعل مع هذا الشاب... رأت أنها تحاول ترك مسافة أمان تحميها من شر ما يحمله، فكيف انقلبت أنفاس تلك الروح التي داخلها فجأة... عندما أصبح مُناها بين يديها؟

بينما كانت دنيا جالسة في غرفتها تطالع عناوين الكتب وتنظمها أصنافا، تاهت بأفكارها متذكرة نظرات رضا فتوجهت

إلى النافذة وأطلت تراقب سيارته تارة ومكان جلوسه تارة أخرى وهي تخاطب نفسها.

- غريب... دكان العم سمير مغلق رغم أن الوقت لا زال مبكرا... وذلك الشاب ليس هنا... ترى لماذا وجه إليّ تلك النظرة العميقة؟ هل أسأله؟... لا... سيكون من العيب فعل ذلك... ربما لم يقصدها... إن كانت نيته سيئة فلن يلق مني خيرا...

وفي تلك الأثناء كان رضا يراقبها دامعا من خلف النافذة دون أن تشعر، في الغرفة المجاورة اختلت فاطمة بنفسها، لم تعرف أين تستقر قدماها وهي تتصل بزوجها سي أحمد، لتخاطبه مرتعشة ...

- أين أنت يا رجل؟ لماذا لم تعد بعد؟
- ما الأمر؟... أين يمكن أن أكون... في العمل... أوصل أحد زبائني إلى البويرة ولن أعود قبل منتصف الليل بإذن الله.

تمالكت فاطمة نفسها خوفا من أن يصيب سي أحمد مكروه وهو عائد، لأنها تعلم أنها لو أخبرته لتجاوز كل قوانين المرور وهرع إلى المنزل، فقالت.

- حسنا... انتبه لنفسك... وحاول أن لا تتأخر أكثر... فأنا في انتظارك حتى وصولك.
- هل حدث شيء ما؟ أقلقتني بطريقة كلامك يا امرأة.

- لا... لم يحدث أي شيء... مشكلة صغيرة ونحلها حين عودتك... لا تقلق.
- لم كل هذا اللبس الذي يلف كلماتك؟

قبل أن تقول فاطمة أي كلمة دخلت دنيا سائلة عن أسماء، فارتبكت بشكل ملحوظ لكليها.

- ماذا هناك؟ مع من تتحدثين؟
- إنه والدك يا حبيبتي، لقد أوصيته بلوازم تنقصنا من أجل العشاء، ولكنه سيتأخر لذا سيحضرها في وقت لاحق، أما إن كنت تبحثين عن أسماء فقد ذهبت مع هيثم وسيحضرها ليلا... لذا لا تقلقي.

أردفت فاطمة مخاطبة سي أحمد الذي لم يطمئن بعد وظل يسأل موقفا سيارته أمام حيرة الزبون.

- لا تقلق يا أحمد... نتحدث فيما بعد يا عزيزي.

أوقفت فاطمة الاتصال تاركة سي أحمد يتخبط في حيرته أما دنيا فخرجت عائدة إلى غرفتها منشغلة بطريقة لإرضاء أسماء، لتكتم فاطمة أنفاسها رافعة بصرها إلى الله طالبة منه تكذيب توقعاتها، فأي توقعات تدور برأس الأم اليائسة؟

في المستشفى تاهت أمل باحثة عن والدتها بين الأروقة، وفجأة سمعت صوتا خلفها اقشعر بدنها لخطابه.

- كيف حالك يا ابنتي؟ لقد عادت والدتك إلى المنزل لتغير ملابس أمينة وأنا هنا من أجل راحتك، هل تحتاجين شيئا ما؟

استدارت أمل وإذ بحميد متكئ على الجدار، فتجاهلته لتخبره ومع الأسف أن راحتها بابتعاده عنها، كثرة المشكلات التي سببها للعائلة جعلتها تمقته، كأن الثقة التي بينها وبين سندها قد تحطمت... قد اضمحلت... فلا سند في الحياة أكثر من الأب، يستصعب الأبناء موت هذا السند ورحيله تحت التراب، يشعرون أن شيئا كثيرا من روحهم قد مات ونام بلا عودة، وما بقي منها تحطم وترك من الألم ما لا يمكن نسيانه، إلا أنهم يستسلمون ويصبرون لأنه في النهاية قضاء وقدر، أما الأصعب عند أمل هو رؤية هذا السند حيّ أمامك، يتحرك، يتنفس ولكنه مات في باطنك، لن يتمكن الإنسان من العودة إذا ما داهمته أسهم المنية بيْد أن بيده العودة للحياة إذا ما استيقظت فيه شعلة الأمل والندم، فهل سيكون حميد من النادمين على أفعاله وذنوبه وجوره؟ أم أن ندمه على تفويت فرص إبراز نفسه وإقرار قراراته سيكون الغالب؟ صمت أمل وبرودة أعصابها جعلت الأب يقترب منها بهدوء مردفا.

- من المؤكد أنني لن أنتظر إلا التجاهل من حضرتك... فقد ربتكما على كرهي وأبعدتكما عني، لكن لا بأس سأريكنّ يوما ما حقيقتي التي لا تعرفون قيمتها.

- لا داعي لرمي اللوم على أحد، لأنك من أبعدنا عنك بتصرفاتك المجردة من الأبوة، ولا تستغرب خلو كلماتنا من الحنان... لأننا لم نعرفها إلى جانبك... لا أتذكر لحظة مسحت فيها على رأسي أو طيبت فيها خاطري ولو بكذبة... لم أر منك سوى برودة الأعصاب وها هي ذي تعود إليك وبسخاء... يا أبي.

شدت أمل على فمها عند آخر كلمة محتقرة فزاد حقد حميد لذا عدل وقفته ورفع صوته مخاطبا.

- لم يزد أحد من وقاحتك وقلة الاحترام لديك غير تلك اللئيمة دنيا وهذه المرة أعدك أنني سأجردك من نذير الشؤم تلك وأكشف حقيقتها ولو أنك قطّعت عنقك هذه المرة بدلا من شرايين يديك.

ابتعد حميد ضاحكا والهاتف بين يديه، بينما نظرت أمل إلى معصمها وعليه أثر جرح قديم لتسقط على الأرض فاقدة وعيها، لا يتحرك منها سوى دمعة أخذت مسارها الذي اعتادته.

قبل أشهر جعل حميد من أمل حبيسة المنزل، رافضا أي لقاء لها بدنيا أو رهف، جعله الخوف من لقائهن يفصلها عن الدراسة، وعلى الرغم من كل محاولات سامية فإن إصراره كان أكبر، طوال تلك الفترة لم تتوقف أمل عن التفكير بحال صديقتيها، أحيانا تستيقظ فيها هذه المشاعر الجياشة بقوة ولكن في الغالب تستسلم لوحدتها فتنغمس بين سؤال

وجواب، أجوبة تضيع منها لتتركها تكرر ما دار بخلدها مرهقة، لم تستطع حينها فعل شيء غير السفر بخيالها لأيام جميلة خلت أو تتحسس ابتسامة صديقاتها خلف صورة جمعتها بهن عندما كنّ صغيرات، لتحظى رنا بالحصة الأعظم من تفكيرها، راحت أمل تخاطب نفسها يائسة والدموع لا تكاد تتوقف.

- لن أنسى يوما أنني كنت سبب رحيلك يا رنا... لقد حطمت كل شيء... ضاعت جمعتنا بسبب غبائي وغضبي... لم أعد أستحق البقاء معهما... لا بد لي من دفع الثمن... ثمن ردي عليك... ليت الزمان يعود يوما... مستعدة لتحمل اتهاماتك كل يوم... كان ذلك أهون علي من هذه النار التي تلتهب داخلي... صدقيني لست راضية عن عيشي من دونكنّ... موتي أهون من هذه الحياة.

سرحت أمل بتفكيرها ورفعت بصرها إلى النافذة ثم انتقلت به إلى الهاتف لتحمله بعد تردد متصلة برهف وهي تعلم أنها في منزل دنيا، لقد اعتادت الصديقات على المرور بمنزل سي أحمد مساء كل خميس من أجل المراجعة، وبالفعل كانتا معا، لم تكن المراجعة هي شغلهما حينها، بل شغلهما إيجاد وسيلة للقاء أمل، فكرتا كثيرا في طريقة تدفع حميد للتراجع عن قراره الظالم، وهنا ابتسمت رهف وهي تقرأ اسم أمل على الهاتف وردت مشغلة مكبر الصوت فدنت منها دنيا منصة باشتياق.

- أهلا أمل... لقد كنا نفكر فيك الآن... لن تتصوري كم اشتقنا إليك.

ابتسمت أمل بيأس مغلقة باب غرفتها.

- إذا كما توقعت... أنت مع دنيا... أرجو أن لا تفترق جمعتكما بعد الآن... يجب أن تعيشا بسعادة مهما كانت الظروف.

ردت دنيا باستياء محاولة رفع معنويات أمل.

- بالتأكيد جمعتنا لن تتشتت لفترة طويلة... سنلتقي مجددا ونعود إلى سيرتنا الأولى... سأجد طريقة ما تجعل والدك يعدل عن قراره... ثقي بي.
- لا داعي لفعل شيء بعد الآن، محاولتك ستجعله يتشبث بقراره أكثر... في كل الأحوال أنا أيضا لي حق اتخاذ القرارات... عزيزتي دنيا إذا استطاع والدي إبعادي عنكما فلن يستطيع إبعادي عنها.

تغير لون وجه دنيا وارتعش صوتها فزاد انتباه رهف أكثر لتسألها.

- من التي تقصدينها بكلامك يا أمل؟

ردت أمل باكية بغصة علت صوتها.

- لن أقصد غيرها يا رهف... سأذهب لأعتذر من رنا ...

وقفت دنيا مرتعشة كأن صورة أمل وهي تقدم على ما تفكر به جليّة أمامها...

- لا لن أسمح لك بإكمال مخططك... سأقنع والدك وسنعود كما كنا عاجلا أم آجلا.
- لن تنجحي في ذلك... فقلبك الصافي لا مكانة له عنده... لن أنجح في تحقيق العدالة إلا إذا تذوقت ما تذوقته رنا.
- عن أي عدالة تتحدثين؟
- لقد اخترتني حينها يا دنيا، ولكنك ارتكبت أكبر خطيئة في حياتك، لم أكن أستحق تلك التضحية... صدقيني لم أكن أستحقها.

خطفت رهف الهاتف صارخة فيما وقفت دنيا ترتدي معطفها برعب.

- إياك أن تتخطي حدودك أيتها الغبية.
- سأذهب لأصالح رنا وأواسيها في حياتها الأبدية، فاعتنيا بنفسيكما جيدا ولا تحزنا من أجلي... لأن حياتكما ستكون أفضل من دوني... أنا لا أستحق دمعة واحدة منكما... لن أستحقها ما دامت رنا ماتت بسبب انفعالي... كان عليّ التريث... لو لم أواجهها بتلك القسوة لما حدث ما حدث ...

- إياك يا أمل، لن أسامحك إن فعلت ذلك، فكري بنا وبوالدتك... سنجد حلّا ما... لماذا أغلقتي كل السبل؟... أرجوك تريثي...
- الحظ السيء لن يمسكما إن ابتعدت عنكما، لذا سامحاني... آسفة... آسفة يا أغلى ما أملك.

أنهت أمل الإتصال باكية ثم ألقت نظرة على سكين بيدها، لتقطع شرايين معصمها والذكريات تتهافت عليها بألم الفراق الأبدي وما أقساه من ألم... فراق دون لقاء... وحرقة تسكن الفؤاد... وشوق كلما زاد احترقن معه أكثر...

لا بد أن أمل تسرعت وتجرأت على أمانة الربّ، كثيرون وضعوا حدا لحياتهم لما تسرعت آراءهم وتهوّرت تصرفاتهم، مهما بلغت مصائب الإنسان، اشتدت محنه، زاد وجعه وتضاعف مع كل ثانية، فلن يملك حق إنهاء حياته، إن كان يريد بهذا القرار الهروب منها... فيؤسفني القول أنه أخطأ الاختيار، لا ملجأ من الله إلا إليه بالصبر، والاستغفار والدعاء والله لا يرد سائلا ولا يضيع أجر المحسنين، وفي الصبر أسمى وأرفع الأجور، الصداقة التي تربط أمل بصديقتيها جعلتها تستبعد فكرة البقاء من دونهما... رأت أن الموت أهون عليها من حياة تخلو منهما معتقدة أنها بذلك ستمنحهما الراحة وتعيش خالدة في جنان الرحمن، لا والله سيكون لها خزي في الدنيا والآخرة وستكون من الخاسرين.

... "فهل سأتمكن بإذن المولى من إنقاذ أمل من هذه المصيبة والوصول قبل فوات الأوان؟"...

هذا ما طرحته دنيا على فؤادها المرتعب وهي تلهث راكضة بأقصى سرعتها والدموع لا تكاد تجف من عينيها، سرعة جعلت رهف تسقط وتتعثر وسط الطريق مما جعلها تعود أدراجها إلا أن رهف صرخت فيها.

- ...دعك مني واسبقيني... أنا اعتمد عليك في إنقاذها... في بعهدك لرنا يا دنيا.

ابتلعت دنيا ريقها بمرارة وعادت إلى الركض عندما هزتها كلمات رهف الباكية، ذكرتها بوعد ثقيل... قد تفشل في الوفاء به إن تدخل القدر مجددا... هرولت ترجو من الله العون... هي حقا لا تريد الوصول بعد فوات الأوان، وفي تلك الأثناء استعادت رهف أنفاسها ولحقت بها، أما أمل فبدأت جراحها تنزف في زاوية غرفتها مخفية يديها باللحاف علها تخدع من يمرّ على غرفتها من العائلة، قعدت والدتها بالمطبخ تساعد أمينة على دراستها وهي لا تعي الجريمة التي أقدمت أمل على فعلها بحق نفسها، امتعض قلب دنيا عندما رأت حميد واقفا قرب الباب يدخن السيجارة كالعادة، امتعض لأنها تعلم جيدا بأنه سيضيع بعضا من وقتها الثمين، وبالفعل ما إن وصلت لعتبة الباب حتى عقد حاجبيه متفحصا دموعها وصرخ فيها.

- ما الذي تفعلينه هنا؟ ألا تفهمين الكلام؟... انقلعي...

لم يكن دماغ دنيا مركزا حينها عن هوية المتحدث أو مكانته في ذلك المنزل، لم تكن تريد سوى كسب الوقت والوقوف بوجه كل من تخول له نفسه إعاقتها، لذا صرخت بكل جرأة.

- أمل في خطر... ابتعد من أمامي.
- أنت الخطر الوحيد الذي يجب على ابنتي الابتعاد عنه.

الفتت حميد إلى رهف التي قدمت صارخة من بعيد.

- ابتعد عنها... ستموت ابنتك يا رجل.

ضحك حميد مستهزئا.

- ما هذا الكلام السخيف؟ انقلعا... لن تتكلما مع ابنتي مهما اختلقتما من حجج.

كان ذلك الرد كفيلا لإثارة جنون دنيا فغضبت واحمر وجهها، ثم دفعته بكل قوتها ودخلت مسرعة بينما تعمدت رهف إعاقته، وهنا خرجت سامية من المطبخ متسائلة.

- ماذا هناك يا دنيا؟ خيرا إن شاء الله.
- أين هي أمل يا خالة؟
- نائمة بغرفتها... ما الذي يحدث؟

توجهت دنيا إلى غرفة أمل مباشرة وقد عجزت عن الكلام لما فتحت الباب، وجدتها مغطاة بلحاف سالت الدماء من جانبيه، فركضت إليها باكية وسحبته لتجدها غارقة بدمائها، سقطت دنيا على ركبتيها محاولة إيقاظها.

- أمل... لماذا فعلت بنا هذا أيتها الحمقاء؟... أرجوك افتحي عينيك... ردي عليّ... لا أريد أن أفقدك... لا تتركيني ...

تجمدت أوصال سامية من هول ما رأت، بينما سقطت رهف عند عتبة الباب ولم تقو على الاقتراب، ثواني بعدها تلقى حميد الصدمة بعدما لحق متوعدا، لمّا رأى الدماء رفع كفه عند جبينه ثم خرج بسرعة ليجهز سيارته، أما الأم فارتفع صوتها باكية لتتحسس دنيا وجه أمل وقد بردت وجنتاها واصفر لونهما وكلمتها مرتجفة.

- لن أتركك يا أمل... صبرا يا أُختاه... فالأمر ليس كما تفكرين لأن ربنا لا تريد رحيلك... هيا يا رفيقتي تكلمي معي ولو بكلمة واحدة... ربنا في مكان ما بيننا... لم كل هذا اليأس...

استجمعت أمل قواها وفتحت عينيها... دون أن تنطق بأي كلمة لتنفجر فيها دنيا.

- **حمقاء... متهورة... غبية... تفكيرك سيقضي علينا جميعا... تحملي وسيكون كل شيء بخير... إياك أن تستلمي .**

ربطت دنيا معصمي أمل بقماش أحضرته سامية بعدها ارتدت حجابها وخمارها على عجل ولما وصل حميد ليحمل ابنته كانت بين أحضان صديقتها، وقفت دنيا حاملة أمل بكل ما أوتيت من قوة، على الرغم من بنية أمل مقارنة معها فإن حملها خف بين يدي الصديقة، سارت بها في حزن كبلته لفحة كبرياء، ثم أدخلتها السيارة ليستوقفها حميد رافضا ركوبها لكن أمل أمسكتها بكل قوتها المتبقية فتراجع متأففا بينما ركبت رهف من الجهة الأخرى متجاهلة نظراته لتصرخ السيدة سامية.

- **اركبي يا دنيا... ابنتك تحتضر يا رجل فأوقف قذارتك... وانطلق إلى المستشفى.**

ركبت دنيا وقد أُسندت أمل إلى كتفها ويدها بين كفي رهف الحنون، كأن تلك الكف أو الكتف هما مصدر حياة رفضت الاستمرار فيها من دونهما...

في الليل كانت دنيا تنتظر أسماء لتراضيها قبل نومها، دقت الساعة معلنة العاشرة ليلا ومعها رن جرس الباب، ركضت مسرعة لفتحه ولكن كانت أسماء نائمة بين ذراعي هيثم لذا فسحت له المجال ليضعها في فراشها، وقد سألها مستغربا.

- أين أمي يا دنيا؟
- في غرفتها... ولا أدري ما حلّ بها اليوم؟ تصرفاتها غريبة جدا.
- ماذا تقصدين؟ هل تشاجرت مع أبي؟
- وهل سأعلم هذا إن فعلا؟ فهما لا يعلماننا بأي خلافات تدور بينهما، لا... لا أعتقد أن هناك شجارا ما بينهما... أشعر أن الأمر أعظم... فلم تأكل منذ الظهيرة وترتبك كلما رأتني... تنظر من بين ثغرات النافذة في كل دقيقة كأنها تراقب أو تنتظر أحدهم، سألتها كثيرا ولم تجبني جوابا مقنعا.
- لا بأس... غيري ملابس أسماء، وأنا سأتحدث معها... ثم سأطمئن فضولك اللامتناهي.
- حسنا لك هذا... هذه المرة ليس الفضول بل هو القلق... حقا أرعبتني تصرفاتها.

دخلت دنيا غرفتها، وعندما أراد هيثم طرق باب غرفة أمه دخل سي أحمد إلى المنزل متسارع الخطى، شاحب الوجه، فنظر ابنه إليه سائلا بريبة.

- خيرا... ما كل هذا الاستعجال؟

همس سي أحمد وقد جفّ ريقه حتى تشققت شفتاه.

- أين والدتك؟
- أمي في غرفتها... لكن ما الذي حدث؟

- ماذا عن دنيا؟ أقصد أختيْك... هل نامتا؟
- لقد نامت أسماء أما عن دنيا فجالسة في غرفتها.

بينما هما يتمتمان إذ فتحت فاطمة الباب، ففوجئا من عينيها المنتفختين، أشارت إليهما أن اخفضا صوتيكما وأدخلتهما ثم نظرت إلى باب غرفة دنيا متألمة، وبمجرد إغلاقها الباب حتى انفجر سي أحمد سائلا بغضب.

- لقد جننتني بتصرفاتك يا امرأة، تحدثي ما سبب قلقك؟
- اهدأ يا أبي دعها تأخذ نفسا... وستتحدث.
- أنا الذي يجب أن يأخذ نفسا يا ولد، فقد تركت عملي في منتصفه بسبب اتصالها المريب ...

بصعوبة بترت فاطمة كلام سي أحمد.

- لقد سمعت هذا المساء من دنيا وصديقتها عن موضوع قد ينهي ضحكة عائلتنا.
- أي موضوع يمكن أن يثير قلقك بهذه الطريقة...
- لقد علمت منهما أن هناك شابا فلسطينيا يقطن في الحي وأنا أخشى مـ...

أغلقت فاطمة فمها بيديها لتدمع عيناها بألم، لذا حضنها هيثم مهدئا ورد سي أحمد.

- شاب فلسطيني... لكنني لم أسمع بهذا قط؟ وقد اعتدتِ فتح الموضوع دائما يا فاطمة، هل أنت متأكدة أم أنها توهماتك التي لا تنتهي.

- متأكدة، والأدهى أنه نفس الشاب الذي قال لك سمير بأنه استأجره...

فوجئ سي أحمد متذكرا تصرفات العم سمير في الدكان وسرعان ما ربط قلق فاطمة بقلقه عندما وصلته تلك الرموز، بينما بدأ هيثم يتذكر الشاب من خلال صور مختلفة ثم سأل والدته.

- وما دخله بنا يا أمي؟ لن يصيب دنيا ضرر.. حتى لو فتحت أبواب الماضي من جديد.
- لقد سمعت من رهف أنه سأل عنها... لا بدّ أنه منهم... أرجوكما افعلا شيئا.
- لا أحد يعرف الحقيقة غيرنا ولن يستفيد شيئا إن سأل الجميع عنها... العم سمير لا يتجرأ على خيانة أبي مهما كان السبب... هو أيضا هدف لأولئك الرجال... كما أنني معكم اليوم ولن أسمح له بالاقتراب من دنيا... وإن أردتما سأحدثه... لن أخشاه.

فتح هيثم باب الغرفة ولكن سي أحمد أمسكه وأعاد غلق الباب، ثم كلمه هامسا وقد التهت دنيا بأمر أسماء.

- هل جننت يا هيثم؟ وهل ستوقظ البشر من نومهم، هذا سيزيد الطين بلة... فأنا لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي هجم فيه أولئك الأغراب على بيتنا، ولكن من المستحيل أن نعتدي عليه وهو في بلدنا غريب اللهجة والمربى، على الأقل لن نكون من يبدأ... لذا دعنا نترك

الأمور تمشي بروية، وغدا صباحا سأتحدث مع عمك وسأستفسر منه أولا، فربما جاء لغاية غير التي نفكر فيها.

- وأي غاية قد تجعله يقطع كل هذه المسافة يا رجل؟ بالتأكيد سمير متورط معه فلا تختلق الحجج لتبرئته، ما الذي سيحل بابنتي إن صدق ظني؟

- أعوذ بالله من الأفكار التي تخطر ببالك يا أمي، ولكنني أعدك بأنني لن أسمح له بالاقتراب منها أو محادثتها، لذا اهدئي... ولنسمع من أبي... كلامه أكثر حكمة.

اغرورقت عينا هيثم دمعا فخرج غاضبا ليضرب كفه بسيارته مرسلا رعبا من النوع القاتل في جوارح دنيا حين رأته من النافذة، اختبأت وعادت إلى غرفتها وصورة هيثم لا تكاد تفارق عينيها، لم ينم أحد تلك الليلة، غابت سرائرهم كأن كل واحد منهم سائح بوطن من الهموم التي برعت في إدارته خيوط خفية غامضة، وهم لا يدرون أنهم يمشون في ذات المكان دون أن يرى أحدهم الآخر، فأي بقعة هي ذاك الوطن وما الاسم الذي قد يُطلق عليه؟ من سيتغلب في النهاية ويستولي على حكمها وحده؟ وإن نجح أحدهم في ذلك، فهل سيكون فوزه بتزكية من الآخرين أم أنه سيواجه انقلابا منهم لإسقاط حكمه عند أول فرصة؟

عند السابعة صباحا كانت دنيا تنتظر رهف لزيارة أمل مع الأستاذ منير، راحت تنظر إلى باب غرفة والدتها المغلق متذكرة تصرفات عائلتها الغريبة، فزاد توترها وتاه تفكيرها، بينما هي

كذلك إذ أطلت أسماء واللوم يتطاير من عينيها بسبب تصرفها القاسي معها... لم تستطع تجاهل تلك النظرة البريئة فابتسمت ونادتها متناسية أحزانها.

- ألا زلت غاضبة مني يا عزيزتي؟
- لماذا جعلتني أنام في غرفتك البارحة؟ لقد كنت غاضبة مني... سأذهب لأنام عند أمي ...

شدت أسماء على شفتيها ولما أرادت دخول غرفة فاطمة أمسكت دنيا يدها بحنو.

- ما أجملك عندما تشدين على فمك... لن أغضب منك ثانية وهذا وعد مني... لقد كنت متوترة قليلا... ولم أقصد... تعلمين أنني لا أفرط في ضحكتك الجميلة... ألن تسامحني حلوتي ؟ ...

فتحت دنيا ذراعيها وماهي ثواني حتى ارتمت أسماء بين أحضانها مبتسمة، ليرن الهاتف على إثر اتصال رهف لتقول متسارعة الأنفاس.

- دنيا كوني جاهزة فقد اتصلت بي الخالة سامية وستدخل أمل العملية بعد أقل من ساعة.

تجمدت دنيا مكانها مرتعشة والدمع أغرق جفنيها واستعد لريّ خديها ثانية، انطلقت إلى الخارج كأنها لا تسمع من نداء أسماء صوتا.

أي ظل هجم على العائلة؟ وأي شمس كانت مصدرا له؟ هناك شمس واحدة تنير الأرض وتدفئها، بينما يمكن للمشكلات أن تولدها شموس قد اقترب منها الشخص أكثر من اللازم فأحرقته ثم نشر لظاها على كل من يحبه وهو لا يعلم، كذلك القرارات ينبغي أن تُتَّخَذ بمقدار معيّن، سترسل الأوجاع خيوطها العنكبوتية لتصطاد من تريد وبالطريقة التي تريد... فقط لأن القرار لم يتخذ بالقدر المطلوب، وهذا ما حدث مع أمل عندما أخطأت الاختيار وتسرعت فكادت شباك العنكبوت أن تمسكها لولا أنامل دنيا ورهف التي التقطتها قبل ابتعادها، أو ربما أزهار الصداقة الخفية التي تفوح أملا ابتسمت وصنعت خيطا لسحب الفتاة الحزينة، لنقول لأمل هاقد ابتسم لك الأمل في تلك اللحظة فلا تيأسي لأنه قد يعود ثانية ليبهجك فاصبري... فاصبري.

على الرغم من الارتياب الذي بقلب دنيا حول ما يحدث بين أركان منزلها وبين أفراد عائلتها، فإنها تجاهلت فتح نقاش شعرت أنها لن تصل لرد يقنع الشكوك التي التهبت داخلها.

هناك أسرار لا بد لها من البقاء تحت الغطاء وإلا فإن ظهورها لن يكون كظهور المهرج بعد فتح صندوق الألعاب، بل سيكون كظهور الأفعى اللادغة عندما ينزع ذلك الساحر الهاوي غطاء السلة، فتتمايل وقد تَقَطّرَ من فيها سم نسيه بين أنيابها بسبب جهله،... فعلى الرغم من شكلها المخيف وقد غلت نظراتها، فإن

الحشد يجتمع بكثرة مستمتعا بألحان الناي وبرقصات تتمطى مع نغماته، في نهاية ذلك العرض القاتل لن يعود الساحر بخفي حنين، وسيملأ جيوبه ببعض من المال على الأقل، فأي لحن سيظهر مع الحقيقة التي تعزفها روايتنا، وأي رقصة ستستمتع بها دنيا ومن معها؟ ومن سيحصل على الرّبح في النهاية؟

الفصل السابع: السعادة المؤقتة وانكسار المرآة

بعد وصول خبر دخول أمل للعملية انطلقت دنيا ورهف إلى المستشفى حيث التقتا بالأستاذ منير، وكان رضا خلفهم كعادته، وقفت سامية تبكي وأنامل أمينة متشابكة بأناملها، بينما اتكأ حميد على الجدار، والمفاجأة الأحقر هي وجود نور معه، لم تكترث لماضيها، كان قدومها تنفيذا لخطة اتفقت عليها مع حميد لإقلاق راحة دنيا، رغم الامتعاض الذي صرخ داخل جوارحها لما رأت نور إلا أنها تمالكت نفسها وتجاهلت وجودها ثم سألت سامية.

- أين هي أمل يا خالة؟

تبعتها رهف مستغربة.

- ألم يكن الموعد بعد أسبوع؟

كانت هذه النبرة الخائفة من الصديقتين مصدرا كافية لرسم ابتسامة شماتة على وجه نور من الخلف، في حين نادتهما أمل بمجرد سماعها لصوتيهما، دخلت دنيا إلى الغرفة وارتمت ساقطة على ركبتيها ثم أمسكت يديْ أمل المتجمدتين من فوق السرير، بينما وضعت رهف أناملها على كتفها دامعة والغريب حينها أن دنيا استطاعت التحكم في دموعها وردت بهمة باسمة.

- تشجعي يا صديقتي... سننتظرك لتعودي إلينا بقوة ونكمل حياتنا كما كنا... أيامنا ستكون أجمل... عسى أن تكون هذه اللحظة آخر أحزاننا... فثقي بالله وتوكلي عليه.
- أجل يا أمل... حتى لو دخلت إلى غرفة العمليات وحدك... فمشاعرنا وكل جوارحنا ستلهج مع ألسنتنا بالدعاء من أجلك... سيكون صداه يتردد حتى عودتك... لا تستسلمي.

لم تتحمل رهف وانفجرت بكاءً، فنهرها حميد.

- لماذا تبكين؟... لا نحتاج تشاؤما... أزيحي عنا سوادا لازمنا منذ تعرفت ابنتي عليكما...

شعرت رهف بالإحراج فأطرقت رأسها دون رد، بينما قرأت دنيا شماتة جلية من عينيْ نور فتكلمت بصوت عالي دون اعتبار لأحد.

- أيامنا كانت الأسعد لولا دخول عقرب بشري حقود... حاول وأعتقدُ أنه لا زال يحاول تفرقتنا... وهو لا يعلم أنه لن ينجح... وأنا أعتمد على إرادتك يا أمل... ستقاومين المرض وتعود بسمتك لتزين جمعتنا... ومع هذه الفرحة التي سيهدينا إياها الله هذا المساء بإذنه سنكون قد محونا ذلك السواد وقلبناه أنوارا لن تخمد أبدا.

تغيرت ملامح نور وراحت تخاطب نفسها بحقد تطاير من عينيها.

- خسئتي يا دنيا... لن يهنأ لي بال حتى أجعلك أضحوكة الجميع... لم تدفعي ثمن هذا الجرح الذي على وجهي بعد... وستكون دموعك وحدها شافية لغلي والاحتقار الذي كنت وصديقاتك سببه.

ابتسمت أمل وطلبت الانفراد بصديقتيها... فلبّ الجميع الطلب لتخاطبهما بهدوء متعبة.

- لا تقلقا ففي كل الأحوال سأبقى معكما إن نجحت العملية وسأكمل مشواري برفقتكما سواء كنت عمياء أو مبصرة ...

سكتت هنيهة ثم سحبت نفسا وأردفت.

- أما إن وافتني المنية فـ...

بترت دنيا كلمات أمل متسارعة.

- ... لا لا تكملي هذه الكلمات، لأنك ستبقين معنا أملا ينبض بالحياة وأعينا تبصر التفاؤل سندا نرتكز عليه جميعا.
- دعيني أكمل يا دنيا... لو سمحت... لا أريد سوى أن أوصيكما بأمي وأمينة... كونا سندا لهما ولا تجعلاه يطغى

عليهما فأنتما بمكانتي في قلب الوالدة... كما أنني إذا متُّ سأكون برفقة الغالية رنا و...

بمجرد أن نطقت أمل خطابها حتى بترته دنيا ووقفت مبتعدة وصورة رنا لما سقطت من أعلى الدرج تتكرر أمامها، راحت تهزّ رأسها رافضة وخطواتها تتراجع إلى الوراء ممسكة مرفقها بقوة مما زاد رعب رهف وأمل، ظلتا تتبادلان النظرات بريبة وفزع وهما تسمعان همس صديقتهما المبتسمة...

- لم تمت... من قال لك أنها ماتت... هي تكذب عليكما... تختبئ في مكان ما... رنا بخير وأنت ستكونين بخير ...

دنت رهف من دنيا محاولة تهدئتها.

- ما الأمر يا دنيا؟... ما الذي يحدث لك؟
- رنا في مكان ما... وربما ستصل في أي وقت... غادرت مع والديها عندما انتقلا من ذلك المنزل... يجب أن أبحث عن عنوانها الجديد... ستعود... وأمل لن تذهب إلى أي مكان آخر.

أرادت دنيا الخروج من الغرفة غير واعية فأسرعت رهف وأمسكتها محاولة تهدئتها وقد علا بكاءها، دنت أمل منهما مرتعبة، ودخل البقية إلى الغرفة ليصدمهم انهيارها وقد حشرت جسدها عند الزاوية...

- لا أريد أن أسمع هذا الكلام ثانية... لن يرحل أي شخص... رنا بخير وستعود ...

مع ذلك الصراخ لم يستطع رضا الاختباء أكثر، لم يشعر بخطاه وهي تقترب منها، ولا بيده تمسك يدها المرتعشة، أخذ يهدئ ارتعاشة رأسها بضمة شوق غريب إلى صدره، مسح قطرات الدموع التي انهمرت وصرخ في رهف بخوف.

- ما الذي حدث لها؟... فلينادي أحدكم الطبيب...
- لا أعلم... فجأة... بدأت تصرخ... فليفعل أحدكم شيئا...

تراخت أنامل دنيا بين يدي رضا لحظة، تذكرت تحذيرات الطبيب وصحة أمل فأغمضت جفنيها متمالكة نفسها، لم تبح لهم بكل ما اختلج داخلها من وهم، "سيكذبونني مجددا"

هذا ما خطر ببالها... ارتكزت على يده واقفة، وما إن استوعبت صاحب تلك اليد حتى حبست أنفاسها متفاجئة بعينيه الدامعتين أمامها، لم تتردد لحظة واحدة وهي تسحب يدها من يده بغضب جلي لتدفعه وتصرخ في وجهه.

- ما الذي تفعله هنا؟

ارتبك رضا وهو يستقبل تلك النظرات القاسية، جال بناظريه في أعين الموجودين فلم يجد بينهم نظرة تطمئنه، كان الجميع مستغربا أو محتقرا، ابتلع ريقه بمرارة وانطلق إلى الرواق دون أن ينطق بحرف واحد. نعم، انسل خارجا لأنه أدرك أن لا مكان له هناك، استند على جدار الغرفة المجاورة مخفيا جسده ممسكا صدره حيث لمسته أصابع دنيا حين دفعته، تقدمت الممرضة لتفحصها لكنها ردت ووجود رضا قد استفز هدوءها.

- أنا بخير... لا داعي لذلك...

ردت أمل بقلق.

- هل حقا أنت بخير؟... دعيها تفحصك ليرتاح بالنا ...

ابتسمت دنيا مؤكدة.

- أنا بخير فلا تقلقن...

نظرت أمل إلى رهف بقلق ظل متواريا تحت دموعهما، أرادت دنيا تغيير الموضوع لذا ابتسمت وخاطبت أمل.

- أنظري... نسينا أمر الأستاذ ولم نرحب به... لقد جاء معنا لزيارتك.

مع ذلك الرد البريء تطاير المكر من عيني نور لتشحن ببصرها تفكير حميد، نظراتها التي امتلأت بكل أنواع النيات السيئة ضد الأستاذ جعلت الأب يتفطن لوجوده، فاحمرّ وجهه وهو ينتقل بين أعين الصديقات الواحدة تلوى الأخرى، أما الصديقتان فأدركتا أن دنيا أرادت تغيير الموضوع مستغلة أول فكرة خطرت ببالها فتجاهلتاه بدورهما ونظرت أمل إلى الأستاذ مرحبة.

- أهل بك يا أستاذ... شكرا على الزيارة ...

رفع منير كفه ووضعه على صدره بكل احترام، ليتفاجأ بقبضة حميد تلتف حول عنقه صارخا دون مراعاة لحالة ابنته التي كانت قد اضطربت من انهيار دنيا المفاجئ، راحت تنصت إلى ذبذبات

قاسية تتردد خلف سؤال والدها وقبضاته المؤلمة تهوي على جسد منير.

- ما الذي جاء بك؟ وبأي صفة تأتي لزيارتها أيها الوغد... انقلع خارج المستشفى.

لم يرد الأستاذ منير على تلك اللكمات التي وجهها إليه حميد، لذا حاول الأطباء فك ذلك الالتحام، فيما سحبت دنيا ورهف صديقتهما إلى داخل الغرفة، مع كل خطوة كانت تبتعدها كان التوتر يزداد والصدى المؤلم يقترب أكثر حيث موضع الألم في رأسها لتصرخ دنيا باسمها بمجرد أن سقطت فاقدة الوعي، حينها أمر الطبيب بنقلها إلى غرفة أخرى لإكمال الفحوصات قبل الشروع في العملية، تغيرت أنظار الجميع إليها بخوف، تضاعفت الآلام مع كل شبر تبتعده عنهم، فقد تذهب دون رجعة وقد ترجع وبقلبها أزمة، في تلك الأثناء لم يتوقف حميد عن ضرب الأستاذ منير، كان هذا الأخير يتذكر **طفلا صغيرا يبكي عند الزاوية، وأمامه يد تحمل سوطا مسلطا على جسد امرأة دون رحمة،** كان يحتمي بيديه من تلك اللكمات الظالمة، امتلأت عيناه ألما لم يعرف أحد أسبابه الحقيقية، منظر الولد الذي تجلى أمامه لم يظهر لأحد منهم، وفجأة أمسك قبضة خصمه ورد عليه بلكمة جعلته يترامى على الجدار فاقدا توازنه بين صفعات الهواء الباردة وقد امتلأت نسائمه برائحة المعقمات، ثم نظر إليه صارخا باحتقار ملأ قسماته.

- أنت من أجبرني على ما فعلته، ولولا الوضع الذي فيه ابنتك لكنت تصرفت تصرفا لن يرضيك أبدا، رجل حقير ...

انطلق منير إلى الخارج غضبا، حينها انتبهت دنيا لضحكة نور الخبيثة تتراقص خلفهم، فهجمت عليها دون تردد وحاصرتها بذراعها مع الجدار في غفلة منها ليبث صوتها الرعب في قلبها، استعاد رضا مهمة المراقبة مجددا بمجرد سماع صوتها تصرخ.

- اسمعيني جيدا أيتها الحقيرة، أعرف جيدا أنك وراء اشتعال كل هذه الفتن، ولكن إذا حدث شيء لأمل فلن أكتفي بوجهك الجهنمي هذه المرّة بل سأتعداه لعنقك وأرتاح من شرورك... ولست الوحيدة المقصودة بكلامي.

نظرت إلى حميد وأشارت بإصبعها محذرة واستطردت.

- وأنت أيها الحجر لن تبتعد عن دائرة التنفيذ... لن أتركك بحالك إن حدث شيء لأمل.

كلمات دنيا الجريئة استفزت حميد، فاستشاط غضبا واستعد ليصفعها ويده الأخرى قد أمسكت ذراعها بقوة، لكن تلك الصفعة القوية ارتسمت على وجه رضا الذي حواها بجسده، تجمدت أنفاس الشابة باحثة عن مسوغ واحد لتصرفات هذا الغريب الذي ظهر في حياتها، استغرابها تلاشى ليحل محله الخوف وهي تتبع حركاته حين أحكم الخناق على عنق حميد بقبضة واحدة.

- إن رأيتك تكرر فعلتك ثانية أو حتى تفكر في رفع يدك عليها... أقطعها مباشرة... لن أتردد.
- من أنت؟... أبعد يدك عني... أتركني ...

لم يهتم رضا لصراخ حميد ورمى به أرضا ليقول مشيرا بسبابته تاركا جسد دنيا خلف ظهره.

- هذا أول وآخر تحذير قد تسمعه مني... بعدها اعتبر نفسك ميتا ...

كانت الكلمات الأخيرة لرضا كفيلة لتزرع حيرة بقلوب كل الحاضرين، لكنها أنست دنيا مخارج الحروف، أصابها الصداع لمّا سألت نفسها عنه، لم يشغل بالها هويته بقدر الانقباض الذي يتمالك قلبها كلما سمعت اسمه أو اقترب منها، شعرت باختناق كبير فأمسكت صدرها وانطلقت مبتعدة ولما استوقفتها رهف ردت متوسلة.

- أريد البقاء وحدي... لو سمحت يا رهف... لا تلحقيني ...

توقفت رهف فيما استمرت دنيا بخطواتها المتسارعة، انسحب رضا من تلك المجموعة، هرولت دامعة نحو حديقة المستشفى وتوجهت إلى مكان منزوي تحارب أنفاسها، أفكارها، نبضات قلبها، شكوكها، وأسئلة كثيرة هبت عليها.

- ما الذي يحدث معي؟ أشعر أن دفاتري ليست ملكا لي... كأن الجميع يتعمد إدخالي في دوامة سئمت المكوث فيها، من يكون هذا الشاب؟... أشعر بألم كبير عندما أراه... ليس من عادتي النفور من الغرباء ولكنني لا أستطيع إطالة النظر إلى عينيه... وعائلتي ليست بخير... أمي... هيثم... والله أعلم بالإحساس الذي يعتلج في صدر أبي... والآن أمل... يا إلهي... ماذا يحدث؟

لم يطل قلقها حتى سحبت كل ما تستطيع من الهواء قبل أن تفجره دفعة واحدة ثم قالت.

- الوقت ليس مناسبا للضعف مع وجود العقرب البشري ...عليّ أن أقف على قدماي... أكاد أجزم أن قوتي خارت... فيا رب ألهمني القوة... لم يبق لي غيرك ...

حقا... من يكون ليدافع عنها؟ ولماذا يلحق بها إلى كل مكان تذهب إليه، مشاعر لم تستطع دنيا ضبط مسارها، وفي اتجاه آخر من الحديقة فوق أحد الكراسي قعد منير يتحسس الكدمات التي تركها حميد على وجهه، وبينما هو كذلك إذ رن هاتف رضا الذي كان يبحث عنها فوقف بالقرب منه، ورد على من اتصل به آمرا.

- إذا أعيدوها إلى البيت وخذ معك كل الطاقم الطبي... لا أريد أي ثغرة يا قاسم .. هل فهمت؟

مع تلك العبارة انتقل منير ببصره إلى رضا كأن صفحات سوداء فتحت معها، لم يغب ذلك الوجه عن دنيا التي كانت قادمة من

بعيد محاولة الاعتذار منه مما بدر من حميد، وفجأة انطلق الأستاذ متجاهلا تلك النداءات، بقي رضا يرقب خطوات دنيا القادمة حين توقفت على مسافة متر منه، ترددت قبل أن ترفع عينيها إليه وتسأل بصوت ضعفت مخارج حروفه.

- ما الذي تريده مني؟ ولماذا تصرّ على إزعاجي؟

دسّ رضا يديه في جيبيه وقال.

- لا أدري لم أنت مصرة على ربط اسمي بكل خطيئة أو هفوة تقع بالقرب مني...
- أنت مدين لي بتفسير ما فعلته قبل قليل... من تكون حتى تتلقى تلك الصفعة بدلا عني... إن لم تتوقف عن اللحاق بي سـ ...

لم يسمح لها رضا بإكمال حديثها وبتر ذلك التهديد البريء منها.

- لا تكملي... أنت متعبة الآن... فاذهبي واهتمي بصديقتك... وعندما تهدأ أعصابك تعرفين أين تجدينني ...

التفت محاولا الذهاب حين استوقفته من الخلف.

- إذا فأنت تستهدفني... كلامك يؤكد أن وجودك في كل مكان أذهب إليه ليس مجرد مصادفة... أي تفسير تحمله... وأي صورة تختفي تحت وجهك أيها الغريب.

فجأة استنفر الغضب هدوء رضا وعاد بخطواته إليها حتى أمسك ذراعها وسحبها إليه ثم رد بحنق جليّ.

- يكفي... الغريب الذي تتحدثين عنه هـ...

لم يكمل قوله، فوصول رهف جعله يتركها ويتريث قبل البوح بما كان يخطر بباله حينها، رفع هاتفه وقال محاولا تذكير رهف بموعدهما عند دكان العم سمير.

- سأنتظرك هذا اليوم في نفس المكان... لا تتأخري.

اعتقدت دنيا أن رضا يخاطبها فنظرت إليه صارخة.

- عن أي موعد تتحدث؟... أنت حقا شخص وقح... هل تحاول استفزازي بكلامك؟

رفع رضا حاجبه واقترب ممسكا ذراعها مجددا وأشار إلى هاتفه بغضب.

- أتكلم عبر الهاتف... عبر الهاتف... هل هذا ممنوع أيضا؟ أم أنك تريدين التأكد يا خانم ...

سحبت دنيا ذراعها بقوة بينما انطلق رضا مبتعدا مرورا بمنير الذي خلا إلى نفسه داخل سيارته، طأطأ رأسه محمر الوجه كأن الليل خيّم عليه قبل أوانه، ثم بدأ يضرب قبضته على المقود مرددا بغيظ.

- لماذا تحدث كل هذه الأمور اليوم؟ اعتقدت أنني نسيت أمره ولكن الواضح أن أبسط تلميح يرميني في شباك ذكرياته

المهترئة... لا أريد أن أتذكره ثانية... من المحال أن يكون له محل في حياتي... من المحال ...

من أحد نوافذ المستشفى كانت نور تراقب ما حدث في الحديقة خلسة، اجتاحها الفضول وهي تحلل المناوشات التي طالت حديث دنيا ورضا، لم تسمع ما دار بينهما لكنها عرفت أن مشكلة ما قائمة بينهما، أو لنقل عرفت أن الخطب من جانب واحد، جانب عدوتها اللدودة... دنيا ...

بينما دنيا ورهف عائدتان لمواساة سامية وأمينة، إذ ظلّ رضا ينتظر خلف بوابة المستشفى بإصرار، و هذه المرة كان مراقبا من الأعلى حيث كانت نور تطل.

من جانب آخر كان الجميع ينتظر أخبارا من داخل غرفة العمليات، لم تسلم دنيا من نظرات حميد المحتقرة، تلميحات نور المرتابة، أو شكوك رهف وسامية المتواصلة، إلا أنها تجاهلت ما كان يدور حولها، لم تستطع المواجهة... لأن كثيرا من ذلك الاحتقار... التلميحات أو الشكوك قد بدأت تتخاصم داخل نجواها، تقدمت بخطوات صامتة وانزوت عند زاوية ذلك الرواق البارد، نظرت إلى بوابة غرفة العمليات وسرحت بتفكيرها لليوم الذي دخلت فيه أمل مرحلة الخطر بعد محاولتها الانتحار قبل أشهر ليست ببعيدة.

بعد دخول أمل غرفة الاستعجالات نتيجة جرحها معصميها، وقفت دنيا عند زاوية مشابهة تتأمل قطرات الدماء التي لوثت أصابعها وشيئا من ملابسها، راحت تنصت إلى سامية وحميد يتبادلان اللوم بصوت مرتفع.

- كل هذا بسببك يا حميد.
- ابنتك العاقة تفعل ما تريد، سليها من أجل مَن فعلت ذلك؟.. أمن أجل هذه المجرمة؟
- لقد كنت أتستر على كل ما فعلته كي لا أزرع الكره في قلبيْ ابنتيك، ولكنني لن أفعل بعد اليوم فقد صرت تزرع مخالب الحقد في صدريهما بيديك، وإن حدث شيء لابنتي... فلن أرحمك.
- أتلومينني؟... كأنك تشجعينها على أفعالها المتهورة؟ كان بإمكاني منحها العيشة التي تتمناها كل طفلة مدللة لولا عنادها الذي يتضاعف بسبب التحريض الذي تتلقى دروسه بشكل يومي من حضرتك... ومن وراء هذه الفتاة التي حشرت أفكارها داخل عائلتي...

بعد تلك الكلمات تنهدت دنيا بصوت مسموع جعلتهما يلتفتان إليها، لتخاطب حميد ببرودة لا تعكس الحدة والجدية التي غلبت قسمات وجهها...

- لقد أرادت أمل أن تخبرك أن السجن الذي وضعْتها فيه لن يأسرها عنا، وقد اختارت الموت بعد أن أغلقتَ

عليها جميع الأبواب، لا أنكر أنها أخطأت الإختيار.. مع الأسف قرارها كان متهورا... لكنني سأخبرك شيئا ربما لم تعرفه عن ابنتك بعد... سعادة أمل لن تكتمل إن افترقت عنا... بل سعادتها مرتبطة بوجودنا قربها... فإن أردت سعادة ابنتك لا تقف بيننا ثانية... لأن الموت وحده من سيفعل ذلك.

أراد حميد بتر كلامها فاستوقفته بيدها لتقف وتقترب منه دامعة مردفة.

- ...لذا أرجوك ...لقد خسرتُ ما اعْتبرتَـه تحدّيا وأعترف بذلك، لكن لا تبعدها عنا ثانية... أتوسل إليك.

حينها أرادت رهف إيقاظ دنيا من غفلة اعتقت أنها أنستها كبرياءها المتعود عليها، أخذت تهزها من ذراعيها رافضة ذلك الموقف المذل قائلة.

- دنيا ما الذي تفعلينه؟ هو لا يستحق هذا التوسل منك.
- لكن أمل تستحق ذلك يا رهف... وها أنا ذي أرجوك... اعتبره توسلا إن أردت ولكن اسحب قرارك... أرجوك.

نظر حميد بكبرياء وتعجرف قبل أن يرد مبتعدا عنهنّ.

- (هه) ...هذا إن عاشت وبقيت روحها بجسدها... لن يكون اليوم الذي تكتشف فيه حقيقتك التي تخفينها تحت شعار الصداقة بعيدا... وأنا سأنتظر ذلك اليوم

بشوق... وإلى ذلك الحين لها أن تفعل ما تريد... أما إن حدث لها شيء فسـ...

ابتسمت دنيا وقاطعته ممسكة أنامل رهف.

- **ستعيش... بإذن الله... لن تبتعد عنا... لن تبتعد.**

عندها رفع حميد يده واستدار راحلا دون أن ينتظر قول الأطباء وأخذ يردد بصوت مسموع.

- **لتنته حياتكن جميعا وليرسل الله بريـح تأخذكنّ من هنا دون استثناء، وإن كانت تريد البقاء مع أمثالك فلتبق... لا دخل لي بها بعد اليوم.**

بعد نجاة أمل من محاولة وضع حد لحياتها بسبب عناد والدها الظالم، عاشت حياتها مع صديقتيها دون أي تدخل منه، لقد كان يتصيد أي خطأ صغير أو ثغرة يتمكن من خلالها تشويه صورة دنيا أمامها، لكنه لم يستطع.

في حين أنها فلم تسلم من صديقتيها، لم يتركاها حتى وعدتهما بعدم الإقدام على ما فعلته ثانية مهما كانت الظروف التي تواجههنّ، لولا القدر الذي أعادها إلى غرفة العمليات ثانية ورغما عنها.

في هذه الأثناء خرج سي أحمد من المنزل متوترا وبعد تردد كبير اتجه إلى دكان العم سمير وعندما رآه يقرأ كتابا بكل هدوء

فضل الصمت وأخذ يبحث بين زوايا الدكان بعينيه، وقف العم سمير متجاهلا نظرات صديقه الواضحة وقال.

- أهلا سي أحمد... أرى أنك متأخر اليوم... ليس من عادتك ...على كل القهوة لا تزال ساخنة.
- شكرا ولكنني شربت في المنزل... أرى أنك وحدك؟
- نعم... ومن سيكون معي؟ غير الله وهذه الجدران أو ربما تبحث عن هذا الكتاب.

ابتسم مازحا لكن سي أحمد نظر بحدة إلى عينيه مباشرة وتكلم.

- بل أقصد الشاب الذي قلت أنك استأجرته.

عندها انتقل التوتر إلى العم سمير وارتبكت نظرته المازحة أمام سي أحمد الذي كان يدقق في حركات عينيه، ليجيب بتهور.

- تقصد رضا؟ لقد أرسلته ليحضر لي ما نقصني من البضاعة.

ضاقت حدقتا سي أحمد وهو يكرر.

- اسمه رضا؟ ...

انتبه العم سمير للغلطة التي ارتكبها بسبب توتره فيما أردف الآخر.

- أعتقد أن كذبتك أصبحت واضحة بعدما عرفت اسم هذا الشاب.
- لم أعتد منك تكذيبي.

- اسمعني جيدا يا يوسف، تعرف أنني لا أحب المقدمات لذا سأدخل في الموضوع مباشرة، هذا الشاب الفلسطيني المدعو رضا هو ابن سيدك حسن... أليس كذلك؟ لا ترمي بسنين المودة التي بيننا منذ عهود إلى المجهول مع جوابك ...أصدقني القول، ما سر قدومه إلى الجزائر؟

صمت العم سمير وأطبق الكتاب الذي كان بين يديه، ثم اتجه إلى باب الدكان وأطلّ يمينا ويسارا ليغلقه بعد ثواني، أمام تسارع دقات قلب سي أحمد، وقبل أن يستقر العم سمير على كرسيه تكلم الأب.

- هذا التصرف يؤكد لي أن ذلك الشاب هو نفس الولد الصغير الذي عادت تلك المرأة من أجله؟

تنهد العم سمير وعدّل جلسته دون النظر إلى وجه رفيقه، ثم قال.

- أجل... لقد تركته في العاشرة من عمره... ولو لم يعد بهذا الجسد لما كنت سأدرك أنه قد مرّ على ذلك اليوم ثمان عشرة سنة.

ضرب سي أحمد طرف طاولة على كتب منه حتى اهتزت قطرات القهوة في الفنجان، ثم رفع سبابته وقال.

- أيا كانت المدة التي مضت... لن أسمح له بالاقتراب منها.

ضغط العم سمير بأصابعه على ركبتيه وقال مغتاظا.

- لكن الحق يبقى حقا يا خليل دربي... ولو لم يكن كذلك ما كنت رأيتني صامتا مكسور الجناحين.
- إذن دعني أذكرك بوعدك طوال هذه الأعوام التي ذكرتك عودته بمضيّها... ولاءك لتلك العائلة لن يغير رأيي... لن أتخلى عنها...
- ولولا ولائي لها لما ضحيت بما ضحيت من عمري... نحن لا نعلم أي تقدير سيقدر الله بهذه العودة.

وقف سي أحمد من مكانه وصرخ.

- ومهما كان هذا التقدير.. كلانا يعي جيدا أن عودته ستحرق فؤادها... عودته تحمل الموت المحقق لها... وهذا الذي لن أسمح به ولو اضطررت للهرب بها إلى أبعد مكان على الأرض... ولكن من دونك هذه المرة.

طأطأ العم سمير رأسه وقد آلمته تلك الكلمات فيما التفت سي أحمد يفتح باب الدكان حين توقف على كلام صاحبه.

- ماذا لو كان القرار قرارها يا أخي؟... أرجوك يا أحمد إن كان كذلك... فلا تقف في وجهه...
- ولأنني أدرك أنه لن يكون قرارها، سأبذل جهدي كي لا يحقق هدفه... لن أقف مكتوف اليدين.

فتح سي أحمد الباب وخرج غاضبا، وما أن انطلق بسيارته حتى انفجر بكاءً ابتل منه شاربه الممتلئ شيبا، لم تبتعد الدموع عن عيني العم سمير أيضا، فقد نزلت بصمت كما هي تصرفاته

الدائمة، وماهي ثواني حتى أصابته نوبة من السعال الحاد تلاها نزيف انهمر من حنجرته ليتسخ منديله الأزرق.

يبدو أن الهول من الصاحبين يقترب... لقد أصبح يركض...

كلاهما يريد الفرار من قدر على نبض قلبيهما قد فـُرض...

نبض يعمل جاهدا... يسقط وينهض... يرتفع وينخفض...

يريد أن يفضفض... أن يفتح مساحة كان من المفترض ...

أن يمتلكها الآخر دون إذن .. عليه فقط أن يدير المقبض...

ليخترق جوف رفيق لم تكن دقاته لغيره تنبض ..

فما الذي حدث اليوم؟ وجع استيقظ فجأة وللقاء قلبيها اعترض...

تسلل مختلقا حججا صدت الباب بقفل صنع في ماضي دون أن يُفوِّض ...

أحدهما لصانعه حق إقحامهما وسط دماء تتدفق بذلك الفيْض...

لتشوه ما طالته من حب نقي أبيض ...

إنه يُستخدم في ساعة تغيرت فيها أحوال

ومشاعر ترتخي وتنقبض...

بل قد تمزق اتفاقا لا يحوي إلا بندا واحدا لم يكن يُرفض...

ظنًّا يوما ما... أنه من غير الممكن أن يُنقض ...

القدر يريد أن يعترض ...

لحظة .. هي لا تزال مجرد نية تصارع المرض...

صرخ فيها الوجع فغدت للمسامع وحشا هائجا...

وحشا لا يروّض...

ولـكن ...

إن أمعنَا النظر... سيجدانه جريحا يتلوى وينتفض ...

هو ضعيف يمكن أن تهزمه إرادة من ذات النبض ...

ثم... ستبقى خطوة واحدة نحو اللقاء ...بل في انتظار الرّمض ...

استغرق الأطباء أكثر من خمس ساعات متواصلة من التركيز والدقة والجهد داخل غرفة العمليات، دقت الساعة الواحدة بعد الظهر والقلق يتضاعف مع كل ثانية، فما أطول تلك الساعات وما أوجعها، لمّا خرج الطبيب ارتجفت قطرات العرق التي بللت جبينه، كان صوت خطواته وهي تقترب منهم كأصوات

دبابات تخترق الأذن أو أصوات موجات تخض نبضات القلب بعنف فتهزها هزا، اجتمع حوله الجميع عدا دنيا، اتكأت على الجدار عند ذات الزاوية، أطبقت الجفنين تعض على شفتها خوفا وهي تستمع إلى الطبيب يبادرهم بالكلام بعد أن عجزت ألسنتهم عن السؤال.

- لقد كانت العملية جد خطيرة، فكما أخبرتكم أنها استلزمت منا كل الدقة ولم أشأ إعطاءكم أملا كاذبا... خصوصا أننا توقعنا عدم استقرار ضغطها لما تعرضت له من اضطراب حذرناكم منه قبل أيام...

قاطعت رهف الطبيب متلعثمة اللسان وجاحظة العينين.

- لا تقلها أيها الطبيب، أتوسل إليك.

أخفت دنيا وجهها بكفيها وجثت على الأرض، لتنزل دموع سامية، أما الطبيب فابتسم واضعا يده على كتف رهف مازحا.

- مثلما تريدين يا ابنتي، لن أخبرك أن العملية نجحت ويمكننا القول أنها انتهت على خير ما يرام... وغدا ستخضع لفحوصات للتأكد من سلامتها...

مع ذلك الرد ضحكت عينا رهف وركضت لتحتضن دنيا التي ابتسمت ابتسامة امتزجت بتنهيدة أرخت بعدها كل جسدها بين ذراعي رفيقتها، سلامة أمل ستحيي مخططات جديدة بدماغ نور وحميد؟ ذلك المشهد كان أمام أنظار رضا الذي تنهد بدوره خلف الجدار ثم عاد أدراجه لتلحق به نور حين لاحظت وجوده

أمام التهاء الموجودين بالخبر السعيد، اعتذرت من شريكها وتبعت رضا بحثا عن دعم للخطط التي تحيكها في الخفاء، أما الطبيب فقد ابتسم وخاطب سامية حين طلبت الإذن لرؤية ابنتها...

- يمكنكم رؤيتها من خلف الزجاج... لكنها لن تستيقظ الليلة... على كل لن تتمكن من الحديث معكم حتى لو استيقظت... يمكنكم الذهاب والعودة صباحا ...

ثم سكت هنيهة قبل أن يردف باحثا بين الموجودين.

- من هي رنا؟... كانت الشابة تكرر اسم رنا طوال فترة العملية، فمن هي من بينكن؟ يبدو أن المريضة تكن لها الاحترام الكبير .

ابتسمت سامية فيما حبست دنيا العبرة في صدرها لترد رهف وامقة الصوت.

- لقد كانت وستظل روحها بين قلوبنا ووصلة أملنا الدائم ...

أمسكت رهف أنامل دنيا بقوة مكملة.

- أليس كذلك يا صديقتي؟

ابتسمت دنيا مرتبكة ليرد الطبيب ناصحا.

- على كل... ما شاهدته قبل الدخول في العملية يؤكد أن هناك فوضى واضطرابات داخل عائلتها، فحاولوا عزلها

عن هذه الاضطرابات لتحافظ على نفسية قوية، ولنكمل الفحوصات بارتياح أكبر، أتمنى لها الشفاء.

- شكرا لك أيها الطبيب، وسنسعى لتنفيذ كل ما تطلبه.

رحل الطبيب تاركا فرحة تنتقل من عين إلى أخرى، لم تعلم دنيا أن ضحكتها المرتاحة لن تعكّر فحسب بل ستنضب لتغلق أمامها باب الأمل الذي قد يعيد صفاءها، ذلك الباب الذي ستضطر لتغيير منبعه والبحث عن غيره، فأيّ شمس ستساهم في هذا الجفاف؟ ربما هنّ شموس؟ هي لم تقو على تحمل حرّ واحدة ظنت أنها على علم بكل مساراتها، فكيف ستتحمل لظى رفيقاتها؟ بل وإلى أي مدى ستستفيد من دمعها من أجل ريّ صحاري الألم والحزن؟

تذكرت رهف موعدها مع رضا والتوتر الذي خيم على ملامح العم سمير فأرادت الوفاء بوعدها وإشباع فضولها حول السرّ الذي يخفيه الاثنان، فترددت قليلا قبل أن تخاطب دنيا.

- دنيا... الخالة سامية لم تأكل شيئا منذ الصباح... وأمينة لا تتحمل... سأعود إلى البيت لأحضر شيئا من الطعام... وأعود فور الانتهاء منه... أما أنت فابقي إلى جانبها إلى حين عودتي.
- حسنا يا عزيزتي... على الأقل نلزمها بأكل القليل قبل رحيلنا... لأن أمل لن تستيقظ هذه الليلة في كل الأحوال.

مع تلك الكلمات المتعبة التي أظهرت الضعف على ملامح دنيا وضعت السيدة سامية يدها على كتفها بلطف.

- صغيرتي... عودي مع رهف إلى البيت وارتاحي قليلا... أنت متعبة حقا... وأنا سأوافيكما بكل الأخبار عن أمل.
- أنا بخير فلا تقلقي... يمكنني الانتظار معك يا خالة.

كان الإصرار واضحا على قسمات دنيا لذا قالت رهف.

- دعيها تبقى معك يا خالة... وأنا سأعود بمجرد الانتهاء من عملي... لأطمئن على أمل.

ربتت رهف على كتف دنيا وانطلقت متسارعة الخطى، داخل سيارة أجرة كانت تلحق سيارة رضا الذي انطلق إلى دكان العم سمير، فيما خلت نور إلى نفسها محتارة.

- غريب... لماذا تعامله بتلك الطريقة السيئة، لقد تلقى الصفعة بدلا عنها؟ على الرغم من المناوشات التي التهبت من جانب تلك المتوحشة فإنه بقي يراقب خلسة... ما الذي يخفيانه عني؟

لم تصبر نور، فقررت البحث عن إجابات تشبع شكوكها، حتى لو اختلقت لنفسها ما يرضيها فأي جواب ستختار؟

بعد نصف ساعة استدارت سيارة رضا عند زاوية الحي، وفجأة توقف بعدما اقترب من الاصطدام بسيارة هيثم الخارج من الحي، وبمجرد أن توقفا متعاكسين حتى تذكر الأخير كلمات

أمه وتخوفها، راح رضا يزمّر عليه ليعود إلى الخلف قليلا وبعد تردد اجتاح الآخر بين مواجهته بالأسئلة التي هطلت عليه كالمطر وبين الرحيل وترك المهمة لوالده والعم سمير، شغّل المحرك مبتعدا أمام صمت رضا المحيّر واكتفائه بالتزمير، في الحقيقة كان الأخير ينتظر أي هفوة من الآخر ليستغلها ويفصح من خلالها عن كل ما لم يرد العم سمير البوح به، إلّا أن تصرف هيثم العقلاني جعله يؤجل - بتحسر شديد - ما كان ينوي قوله، لذا انطلق كل منهما في طريقه بمجرد أن فتح أمامهما المجال.

بعد لحظات توقفت سيارة الأجرة التي كانت تركبها نور عند زاوية الشارع تلك، فترجّلت واختفت خلف أحد الأعمدة الكهربائية مخاطبة نفسها بتهكم.

- وأنا أتساءل عن سبب خوفه عليها، بينما تلعب دنيا دور الفتاة المثقفة والمتخلقة، نجدها تتسكع مع هذا الشاب خفية... صدقا أحسنت لعب الدور... إذا هو جارك الوسيم؟ لا أدري كيف أوقعته في شباكك... حام بنا كل الشوارع كي يصل إلى أمقت الأماكن إلى قلبي... لا بأس أنا التي ستفضح علاقتك به أمام الجميع ...

استدارت نور بحذر راحلة لتصطدم برهف واقفة أمامها وقد بان على ملامحها الغضب الشديد.

- هل أضعت طريقك يا نور؟ ما الذي تفعلينه هنا؟

عادت نور إلى الخلف بارتباك ثمّ استعادت غطرستها بسرعة غير مبالية بوجود رهف وقد عرفت بهدوئها وتهربها من المشكلات ثم قالت.

- كنت متوجهة إلى منزل سمر... تعلمين أنه من هذه الطريق، أم أنك امتلكت هذا الحي يا رهف... انقلعي من أمامي أيتها الباكية الصغيرة.

ارتبكت رهف لحظة قبل أن تنقطع أنفاس نور حين سمعت صوت رضا وقد زوى حاجبيه غضبا.

- ما الذي تفعلينه هنا؟
- نعم... أقصد لا... كنت متوجهة إلى منزل صديقتي... سمر ...

قبض الرعب على أحرف نور فتلعثمت مشيرة إلى طريق غير التي تؤدي إلى منزل سمر، فابتسمت رهف ساخرة ليرد رضا محذرا.

- لا أعلم ما الذي يدور في رأسك لكنني سأقولها لك... لا تلعبي بذيلك وإلا فإنك ستحفرين قبرك بيديك... لن أضع في الحسبان أنك فتاة وسأتصرف معك بطريقة لن تعجبك... حذرتك ولن أعيد ...

لم تلتفت نور وراءها وهي تسابق خطاها بعيدا، بينما أشار رضا بيده إلى دكان العم سمير طالبا من رهف أن تلحقه، فاستأذنت منه قائلة.

- لدي عمل مهم في المنزل... قبل عودتي إلى المستشفى بساعة سأمر عليكما أما الآن فأستأذن منك.

تركت رهف رضا يحترق بصبره الذي قارب على النفاد، وانطلقت لتعد طعام العشاء لسامية وأمينة.

حوالي الرابعة مساء تقدمت رهف بهدوء دون أن تحيد بصرها عن بيت دنيا المقابل، خافت أن يراها شخص من العائلة فتدخل في نقاش قد لا ينتهي مع صديقتها، لذا وبمجرد الوصول إلى باب الدكان حتى أخفت جسدها خلف صفوف السلع الموضوعة في الواجهة، بينما نظر رضا إلى العم الجاثم مكانه ووضع طاولة الشاي على كثب منها ثم قعد وأشبك أصابعه مخاطبا.

- كنت أظن أنك لن تأتي.
- لقد قلت أنني سآتي وفعلت...
- دعيني أولا أذكرك بوعدك... لن تخبريها بما سأقوله.. أليس كذلك؟
- حاليا يمكنني أن أفي بوعدي... ولكن إذا تجاوز الأمر قدرة تحملي... فاقبل اعتذاري منذ هذا الحين.
- لا نية لي بإحراجك أمامها... ولكن المسألة تحتاج إلى الوقت لا أكثر.

سكب سمير الشاي لرهف وتكلم بنبرة بعثت خوفا من نوع ما في قلبها، كأن الشيخ أضاف إلى حروفه الكثير من البرودة غير المعتادة فضمت يديها مرتعشة قبل أن يخاطبها.

- احتسي الشاي يا ابنتي... أنا من أعدّه.
- لا... شكرا لك، تفضل يا رضا... اُدخل بالموضوع لو سمحت... لا أملك الكثير من الوقت.

في تلك اللحظة لم يعلم رضا لماذا ابتلع مرارة شلّت حركة لسانه، لم يعرف من أين يبدأ فنظر إلى العم سمير مترجّيا أن يمده ببعض الأحرف، امتقع وجهه رغم أنه انتظر قول ما في سرّه لأحد ما، عندما لم يستجب العم سمير لرجاءه سحب نفسا من أعماقه وشرع يسرد حكايته وسبب عودته إلى الجزائر، وما إن توغل في تفاصيل القصة حتى وقفت رهف صارخة فتبعها سمير محاولا تهدئتها فيما طأطأ رضا رأسه دون أن يضيف أي كلمة أخرى وظل ينصت بحنق لفجعها.

- لا أصدق ما تقوله... ولن أفعل... اسمعا جيدا أيا كانت غايتكما فابتعدا عن دنيا ...
- اهدئي يا ابنتي... سيسمع الجيران...
- تريدني أن أشرب الشاي الذي أعددته؟ لطالما شعرت بأن لك سرا ما، لكن لم أتوقع أن تتلاعب بالجميع كل هذه المدة وبخاصة دنيا... لن تسامحك أبدا...

- مع الأسف يا ابنتي كلامه صحيح... أدرك مدى صعوبته لكن ليس أمامها إلا تقبله ...
- إن كان هناك شخص يريد أن يتقبل هذه الترّهات فلن يفعل ذلك أحد غيركما.
- أقدر غضبك يا رهف... لكنه عملي وعهد قطعته على نفسي... الحياة أجبرتنا على إخفاء الحقيقة.

نظر العم سمير إلى رضا و قد سكن جسده ملتهيا برمز نجمة رسمه على كفه بقلم حبر، فرأف به وحاول مساعدته.

- هدوءك جعل رضا يختارك لمساعدته في شرح الموضوع... ربما تقتنع إن كنت حاضرة... أو على الأقل قد يخف وجع الحقيقة ...

انتقلت رهف ببصرها إلى رضا وخاطبته محتقرة.

- اسمعني جيدا يا رضا ببساطة أنت تعدّ أكبر خطر قد تواجهه دنيا... وأنا لن أستطيع مساعدتك إلا في أمر واحد... سأفي بوعدي ولن أخبرها بما تفوهتَ به قبل قليل... وأنت أيضا ستعود من حيث أتيت وكأنك لم ترها قط ...

استفزت تلك الكلمات رضا فرفع بصره إليها وقال متحديا دموعها المنهمرة.

- إذا كان هذا هو قرارك فلا يسعني إلا أن أقول لك استعدي لوداعها لأنني لن أتركها بينكم... يمكنك قضاء آخر أيامك معها لأن القرار في النهاية سيكون قراري.

ارتبك العم سمير بعد الذي سمعه وأمسك ذراع رضا بقوة.

- لا تتحدث مع الفتاة بهذه الطريقة... انتبه لما تقوله.
- دعه يظهر وجهه الحقيقي... والأفضل أن يختفي مع أسراره المقرفة... أخبره أن يأخذك معه أيضا.. لأن دنيا لن تتركنا ولو تدخل العم أحمد أو الخالة فاطمة... وإني أثق بكلماتي ثقتي بنفسي...

خرجت رهف بغضب ماسحة دموعها... تائهة لا تدرك أي درب تسلك، فؤادها كان يحترق كلما تذكرت تلك الثنايا التي روى رضا بعضها، انتشر اللهيب في كل جوارحها مع تردد تهديده الغاضب على مسامعها، شعرت أن أحلامها انهارت بل زاد استياءها أنها قبلت الالتقاء بهما وكذبت على دنيا، لم ترد شيئا غير إشباع فضول لم يهضم تلك الحقائق، فلم تجد غير دموعها تنسكب في حرقة على المصير المجهول الذي سيزور حياتهنّ من جديد.

في أحد المطاعم قعدت نور بتعجرف مطبقة قدما على قدم والسعادة بادية على وجهها ليدخل حميد متلهف الخطى، كان ينتظر إجابة للكثير من الأسئلة التي تعب في جمعها من عدة

أماكن متعفنة من عقله، قعد قبالتها على نفس الطاولة ثم خاطب النادل نافخا ريشه دون استحياء.

- أحضر لنا قارورتين من العصير أيها الصديق.
- شكرا لك... لم يكن هناك داع لذلك ...

عدّل حميد جلسته وقال بغرور.

- السعادة البادية على وجهك تبشر بالخير... قولي لي أنك وجدت طريقة لإبعاد تلك المتسكعة عنها... أقصد عن فراش الحرير الذي تفرشه لها ابنتي في عقلها الصغير.

ابتسمت نور بشماتة وردت ...

- الوصول إلى هذا الهدف ينتظر منا بذل جهد مضاعف... لأن ابنتك المسكينة لم تفرش ذلك الفراش الحريري بل نسجته دنيا بنفسها وهي تعرف جميع مساراته جيدا.
- وهل عرفت كيف تفكين أحد العقد التي تمكننا من خلالها سحب المسارات تلو بعضها؟
- شيء من هذا القبيل... الخبر المفرح أنني عرفت مكان عقدة البداءة ولكن فكها ينتظر منا جهدا كما أخبرتك...

ثم سكتت هنيهة وأردفت بكل ثقة.

- أتذكر ذلك الشاب الذي دافع عنها هذا الصباح؟ لقد تبعته واكتشفت شيئا مهمّا عنه.
- حقا، أنا أيضا أصابني الفضول حوله... من يكون؟..

- ببساطة هو جارها ولا بدّ أنها على علاقة ما به... أحتاج فقط للدليل... ليحتقرها كل من اعتبرها مثلا.
- هذا صعب... ستقطع رأسك...
- لن يحدث شيء والآن علينا إثبات صحة ذلك ولو لم يكن صحيحا... اعتمد عليّ.
- كيف؟!
- عندما تخرج تلك المجرمة من المستشفى ستخبرني وأنا سأنتظرها قرب الحيّ فلا بد لها من الحديث معه عند عودتها ثم سأصور اللقطات... صورة واحدة تكفيني... ولن يكون اسمي نور إن لم أجعلها تهرب من البلد بأكمله.

ضحكت نور ضحكة تطاير منها الحقد بينما حملت علبة العصير بكل تعجرف، نفث حميد دخان سيجارته بعيدا وقال.

- ليس لهذه الدرجة؟ بصراحة الموضوع يحتاج إلى التفكير... لأن ...
- ما الأمر؟ هل ستراف بها الآن؟... كيف لي أن أثق بك؟
- دعيني أذكرك بشيء مهم... خطة كهذه ستجعلك تواجهين ذلك الشاب أيضا.
- ليس لي همٌّ إلا إبعاد تلك المتسولة عنا وعن ابنتك... أم أنك خائف منه؟

حدق حميد في قسماتها مستغربا لكنه اتكأ بجسده على الكرسي وقال.

- ليس خوفا... وإنما احتياط... لأن الموضوع متعلق بأعراض الخلق... دعيني أفكر أولا.
- تفكر؟... أعتقد أنني اخترت الشخص الخطأ ليساعدني... سأبحث عن غيرك...

حملت نور حقيبتها وخرجت متجاهلة نداء حميد الذي شرد في تفكيره أكثر وأكثر، في الدكان الصغير ثارت ثائرة رضا محركا قدمه دون توقف، ولما طال صمته خاطبه العم سمير.

- تحمل مسؤوليتك... كنت مخطئا منذ البدء عندما قررت إخبار رهف بالموضوع... وقد حذرتك.
- صمتا أيها العجوز... اعتقدت أنها ستساعدني حتى لا ينكسر قلب صديقتها مجددا لكنني سأجد طريقة لأخبرها بالحقيقة بعدما تخليت عن مساعدتي ولن يقف أحد بطريقي.
- كيف لي أن أساعدك ونحن الآن نقف في نفس الطرف يا آغا... الطرف الذي لن يكون لها مكان فيه... تقبل واقعك وماضيك... وعد من حيث أتيت... لأنها لن تتحمل الألم الذي جئت به.
- أنتم من تحكم في ذلك الماضي... جعلتم منه واقعا مُرّا أخذ بهيبة أبي... أطفأ بريق نجمتي التي كانت تنير حياتي... وأبعد عني من اخترت اسمها بنفسي... وتريدني أن أعود من حيث أتيت... لا بأس سأعود ولكنني لن أعود من دون تحقيق هدفي... يا عم يوسف.

غضب جعل العم سمير يراجع ذاكرته، ليرن هاتف رضا الذي رد متنهدا.

- أخبرني يا قاسم، كيف هي الأوضاع عندك؟

نظر سمير إليه وقد اغرورقت عيناه دمعا بعدما سمع اسم قاسم، وظل ينصت.

- آغا... الوضع خارج عن السيطرة... حالة السيدة في تدهور... يقول الطبيب بأننا لا نملك من الوقت الكثير.
- ماذا؟ مستحيل... بإذن الله لن يحدث لها شيء... لن يحدث لها شيء قبل عودتي... المزيد من الجهد أرجوكم... لن يطول غيابي ...

أنهى رضا الإتصال وقعد على الكرسي ثم رفع رأسه في توسل، نظر العم سمير متخوفا ثم اقترب منه وأمسك ذراعه بقوة مرتعشا.

- ليس الليلة...فكّر بمشاعر الفتاة يا آغا... أرجوك.
- لا تتدخل... أنا أحررك من المهمة التي أوكلت بها... ولا تتدخل فيها ثانية.
- الأمر ليس بالبساطة التي تتوقعها... ستنهار.. بل ستفقد ثقتها بالجميع ...

أفلت رضا يد العم سمير بقوة وخاطبه مشيرا بسبابته.

- لا تخاطبني وكأنني الموت بالنسبة إليها... لن يحبها أحد بقدري... ولن يفكر غيري بمصلحتها... ستتفهمني في النهاية.
- ما تفعله أكثر من الموت... ما الذي سيحدث لعائلتها؟... حرام الذي تنوي فعله.
- و هل سأحسب حسابا لمشاعرهم أيضا؟... يكفي.

انطلق رضا مشيا حتى زاوية الحي وقعد على صخرة حاسما أمره، أما العم سمير فارتمى على كرسيه ينظر إلى منزل السي أحمد ويكرر باكيا.

- سامحني يا أخي... لم يعد بإمكاني فعل شيء لمساعدتك... سامحني أرجوك...

عادت رهف إلى المستشفى والحرقة التي تركها رضا بادية على وجهها، حاولت كثيرا إخفاءها لكن السعادة المنتظرة بين عينيها بسبب نجاة أمل كشفت محاولاتها الفاشلة، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف حين طال صمت رهف بشكل ملحوظ وقد بدأ العرق يتصبب من جبينها، أثار ذلك قلق دنيا لذا سألتها.

- خيرا يا رهف؟ لم نسمع صوتك مذ عدت من مشوارك... هل أنت بخير؟

ظهر ارتباك رهف في تلعثم حروفها حين ردت.

- كل ما في الأمر أنني تعبت قليلا لأن الحافلة فاتتني فقدمت سيرا على الأقدام وأنا أحمل كل هذه الأغراض... لكنني بخير ما دمت وأمل قربي... لا يجب أن نفترق مهما يحدث وأيا كانت الظروف التي قد تواجهنا يا دنيا... لن تتركينا أليس كذلك؟

نزلت دمعة من رهف فدنت منها دنيا مواسية.

- بالتأكيد لن نفترق... امسحي دموعك أيتها المرهفة... لأن أمل بخير... أنظري ...

ظنت دنيا حينها أن خوف رهف على أمل كان سبب رجاءها، فحضنتها بقوة، ثم أكملت.

- يكفي... اليوم ليس مناسبا للبكاء... أمل بخير والحمد لله.

وهنا ظهر خيال حميد خلف الباب يتسمع على حديثهما خلسة، فيما أكملت دنيا مازحة.

- أكثر ما سيسعد أمل هو ابتعادها عن الدراسة وصوت الأستاذة سليمة هذه الأيام.

ابتسمت رهف مبتلعة ريقها بصعوبة، لتردف دنيا.

- بينما أمل ستنعم بإجازة من الكتب، رمى هيثم في حضني كومة من المجلدات والمراجع .....

تذكرت رهف ما حدث مع الأستاذ منير فقالت.

- تذكرت الأستاذ... لقد شعرت بالخجل عندما هجم عليه والد أمل بتلك الطريقة.
- لا تقلقي لا بد أنه بخير أما عن ذلك الرجل القاسي فتلقى ضربة واحدة من الأستاذ ألصقته بالجدار... كم أردته أن يضيف صفعة لتلك العقرب.

انفجرت سامية ودنيا ضحكا استفز جنون حميد خلف الباب، لتقول لهما رهف بعدما سمعت آذان المغرب وتذكرت غياب والدها عن المنزل وغضب رؤيا.

- إنه آذان المغرب... يجب أن أعود إلى المنزل يا عزيزتي.

نظرت دنيا إلى ساعتها لتكمل.

- معك حق... بعد أن ارتاح بالي على أمل سأنام لساعات طويلة...
- آسفة لأنني أتعبتكما معي... شكرا لكل ما فعلتماه من أجل ابنتي.
- لا تقولي هذا يا خالة...

اختفى خيال حميد، فيما خرجت الصديقتان وبعد خطوات تجلى حزن مفاجئ على وجه رهف فأمسكت ذراع صديقتها وحضنتها ثم عادت إلى ذات النبرة المتخوفة.

- نحن لا نساوي شيئا من دون قوتك... فكوني دائما قوية... كما أنت الآن.

أشبكت دنيا ذراعها بذراع رهف ثم قالت.

- لا تقلقي يا عزيزتي... على الرغم من كل شيء فإن قوتنا ستستمر... أنا بخير... ما دامتم بخير.

ثم سحبتها مكملة طريقها مخاطبة نفسها بقلق.

- آمل أن أتحمل... عندما أعرف ما الذي يمكن أن يختفي وراء الظلمة التي هاجمت عائلتي فجأة.

من الغرفة المجاورة أطل حميد يتكلم عبر الهاتف.

- ابدئي خطتك يا نور... فقد خرجتا من المستشفى...
- هل هذا يعني أنك وافقت؟
- حقيرة كهذه الفتاة تستحق الأبشع... وأنا خلف كل ما ستقررينه.

أقفل حميد الخط واضعا هاتفه في جيبه وقال.

- ستدفعين ثمن سخريتك... بل ثمن التحريض الذي تحشرينه في ذهن ابنتي ضدي... وإن لم تستطع تلك الفتاة نور فك عقدة البدء التي وجدَتها ..... أمزق ذلك الفراش الحريري الكاذب من منتصفه.

في الطريق كانت رهف شاردة معظم الوقت، فيما أخذت دنيا تعبر عن سعادتها دون توقف، ولمّا انتبهت لذلك السكون لوحت أمامها.

- أين وصلت بتفكيرك يا فتاة؟

- هل قلت شيئا؟
- حقا غريب أمركم... وأمي أيضا تضاعف شرودها هذه الأيام ونقلت العدوى لأبي وهيثم.

توقفت رهف وأمسكت دنيا من ذراعها مستفسرة.

- ما الذي تقصدينه؟
- شرود وتصرفات غريبة تحوم داخل منزلنا... لم أعهدها... بدأت من أمي ثم انتقلت إلى البقية.

ارتبكت رهف وأردفت.

- وهل عرفت سبب تلك التصرفات؟
- لم أعرف... لقد سألت أمي كثيرا لكنها كانت تختلق لي أعذارا في كل مرة... وعندما طلبت مساعدة هيثم خرج غاضبا من البيت بمجرد أن تحدث معها... أتمنى أن تتحسن هذه الخلافات، ولم أسألهم بعدها... لا أريد الضغط عليهم بأسئلتي.
- في كل يوم يزيد احترامي لك... جيد أنك لم تسأليها ولا أنصحك بالاستفسار.
- لماذا؟! تتكلمين وكأنك على علم بكل شيء.

ارتبكت رهف حتى صرخ فيها تلعثمها لما قالت.

- وما الذي يمكن لي أن أعرفه؟ حبيبتي أنت قلتها لا تضغطي عليها وهي ستخبرك بالقصة فيما بعد، فقد

مررنا بوقت عصيب... لذا لا تزعجي نفسك بما قد لا يكون مهما.

وصلت الشابتان إلى مفترق طرق غير الطريق الذي اعتادت رهف الذهاب منه، إذ أنها كانت توصل دنيا حتى شارعها دائما وتكمل طريقها إلى منزلها من هناك، ولكن خوفا من لقاء رضا والعم سمير توقفت قائلة.

- عليَّ الذهاب الآن... اعتني بنفسك يا حبيبتي.
- إلى أين؟ حلّفتك بالله أن تمرّي معي إلى المنزل، لقد صنعت شيئا من أجلك وأمل وسأعطيك هديّتك الآن، أما هدية أمل فسنؤجلها إلى الغد بحول الله.
- لماذا يا دنيا؟ يا لك من متسرعة فقد كنت مستعجلة حقا.
- لأنني أعلم أنها الطريقة الوحيدة لجعلك تكملين الطريق معي ...

ابتسمت دنيا ثم سحبت رهف مردفة.

- وإلا كنت أنت التي سبقتني في قولها... لقد اقتربنا ولن آخذ من وقتك الكثير... كما أنني سأوصلك حتى منتصف الطريق مع أسماء... هذا وعد.

بمجرد أن ظهرتا حتى وقف رضا كأنه يستعد لمعركة من نوع ما، صحيح أنه احتمل أن تخبر الصديقة صديقتها بقصته لكن هذا الاحتمال بقي يتلاشى مع كل خطوة تقتربها منه، لم تنظر رهف في عينيه وتجاهلته بقدر الإمكان بينما بذلت بطلتنا أقصى

جهدها لإظهار مقتها له، اتجهت إلى منزلها ففوجئت بصوته يناديها من الخلف قبل أن تلمس يدها الباب، التفتت صوبه ليكمل مقتربا منها.

- لو سمحت يا دنيا، من دون غضب... هل لي بجزء من وقتك؟

تراجعت دنيا عن طرق الباب ودنت منه متحدية حتى وقفا عند المنتصف.

- والموضوع ...؟

عندها ظهر ظلّ نور عند زاوية الحي فتراجعت بسرعة واختبأت بعتبة باب أحد الجيران مجهزة آلة تصوير صغيرة بينما طأطأ رضا رأسه ثم قال.

- الموضوع يخصك أكثر من أي شخص... أنظري... العم سمير موجود ويمكنه تأكيد قولي.
- وأي قول سيؤكده العم سمير؟

اغرورقت عينا رهف بالدموع فدنت منهما لتشد ذراع دنيا من الخلف هامسة.

- دعينا نذهب... أخبرتك أنني مستعجلة وتأخرت عن الخالة ...

شعر رضا بأن رهف تحاول غلق الموضوع الذي يريد شرحه فرد بخشونة.

- ولكنني أكثر استعجالا منك فلا تتدخلي... هيا يا دنيا.

استاءت دنيا وقد استفزتها زمجرة رضا، فأفلتت يدها من بين أصابع رهف واقتربت منه غاضبة.

- بل صديقتي الأكثر استعجالا... أيا كان الموضوع الذي ستخبرني به... أجّله... فليس لديّ وقت من أجلك.

لمّا ارتفع صوتها اقترب العم سمير ووقف بينهما ثم قال.

- اهدئي يا ابنتي... سيسمع الجيران صوتك ويلتفون حولنا وهذا سيغضب أحمد.
- إذا كنت خائفا من غضب أبي فاضبط تصرفات الغريب الذي يقف خلفك يا عم سمير... لا أدري من أين ظهر ولكنني في غنى عنه... هذا ما كان ينقصني...

شعر رضا بغضب لم يسيطر عليه فتجاوز العم سمير وأمسك ذراع دنيا التي استدارت مع رهف عائدة إلى المنزل.

- اهدئي وأنصتي لما سيقوله هذا الغريب... فليس لديه الوقت لمسايرة عنادك أو مشاعر من تقف خلفك.

في هذه اللحظة وصل هيثم بسيارته لتزداد الأمور تعقيدا، جن جنونه عندما رأى رضا يمسك ذراع أخته وهي تحاول إفلات نفسها، فأوقف سيارته غضبا ودون أي مقدمات رماه بكيس يحتوي على بعض مواد التنظيف التي تجنبها الآخر محاولا تجاهل صراخه من بعيد.

- أتركها أيها الوغد... قلت لك دع الفتاة.

ارتعبت دنيا عندما رأت هيثم، لذا ردت عليه محاولة فك ذراعها من قبضة رضا.

- هيثم دعك منه يا أخي، لنذهب فهو لا يستحق ردّا منا.
- اُدخلي إلى المنزل بسرعة... هيا يا دنيا، ألم تسمع؟... أفلت ذراعها.

أمسك هيثم قميص رضا فيما جعل الأخير دنيا خلفه ممسكا ذراعها بإصرار.

- لا تتدخل يا هيثم، لأن نيفين ستبقى معي...

بدأت الخيوط تنكشف وتفصح عن نهايتها للجميع، عدا دنيا التي كانت وكما يقال كالأطرش في الزفة، بينما انطفأ العالم أمام هيثم فغدا يبتلع ريقه بصعوبة لتصرخ رهف متوسلة.

- صمتا... أرجوك لا تفعل.

كذّب هيثم ما سمعه، فهزّ رأسه وراح يقول.

- بأي صفة تتحدث معها بهذه الطريقة؟ هيا انقلع من حيث جئت... انقلع أيها الحيوان.
- بأي صفة؟... أنت تعلم كل شيء... فلا تتواقح معي أكثر.

هجم هيثم عليه ضربا وكان الآخر يرد عليه بلكمات لا تقل عنفا عن التي وجهت إليه، غضب هيثم لن ينتج غير المصائب فكيف إذا ما التقى مع رضا الذي ثارت ثائرته، من حسن الحظ أن الضجيج لم يصل إلى فاطمة، إذ التهت في المطبخ تنتظر

أدوات التنظيف، أما دنيا فكانت تحوم بين الاثنين مع العم سمير في محاولة لإيقافهما وقد اجتمع الجيران حولهم، لتصرخ دنيا بخوف مترجية العم سمير الذي لم يعرف كيف يتصرف.

- عم سمير افعل شيئا... أوقفهما أرجوك.
- يكفي يا أولاد...

لقد حانت اللحظة القاسية التي جعلت العم سمير يخاطب نفسه مرتبكا.

- ماذا سأفعل؟ أظن أنه يوم اكتشاف الحقيقة وانسلاخ الجلد عن العضم، وما علي إلا التقليل من الخسائر.. آسف يا ابنتي... آسف يا أحمد... لا أملك الكثير من الخيارات...

لما تاه العم سمير بأفكاره توجه هيثم إلى حجر التقطه من عند زاوية عمود الكهرباء فظنت دنيا أنه توقف عن الشجار لذا لحقته، لم ينتبه خلفه فرمى الحجر مستهدفا رضا ليجدها أمامه، ولكن المفاجأة الأكبر أن الشاب الغريب سحبها ولفّها تحت حضنه فأصيب جبينه بالحجر وما إن سال الدم من الجرح وقد فقد توازنه حتى صرخ العجوز في الحشد المجتمع.

- تفرقوا... لم يحدث شيء... ليعد كل منكم إلى منزله... هياا... قلت تفرقوا يا إخوان... سأحلّ الموضوع.

استجاب الجيران وانسحبوا إلى منازلهم بعد تردّد علا قسماتهم، ولا تزال نور مختبئة في المكان، بينما ركض هيثم نحو دنيا وقد تلطخ وجهها بدماء رضا.

- هل أنتِ بخير؟... ألم أقل لك عودي إلى المنزل؟

بتر رضا ما كانت دنيا ستقوله وهي التي لم تفهم شيئا بعد، ورد مهدّدا.

- لو أن الحجر أصابها لكنت ميتا الآن...

ارتبك هيثم ورفع قبضته بثقل ليضرب رضا، ولكن العم سمير أمسك ذراعه التي امتلأت بالغبار نتيجة العراك، ولم يكن أمام رهف سوى التوسل لمّا اتضح لها من نظرته أنه قرر البوح بالحقيقة.

- كفى ثرثرة أيها العجوز... أرجوك.
- اسمعني يا هيثم، كن عاقلا... أنت تعلم أن رِضا هو ..... شقيق دنيا الحقيقي.

لا .. غير معقول .. إنها في ضياع...

هناك شيء من الخداع ...

بل الكثير ...

صداع يأبى الانقشاع..

بدا لها كأن الجميع يلبس قناع ...

من هؤلاء؟ .. ما الذي يخفيه هذا الصراع...؟

صراع هز قلبها المرتاع ..

العم سمير يكذب .. يريد تهدئة الأوضاع ..
نظرات أعينهم تنتشر... يجب عليها الإسراع ...
إرجاع الحقيقة التي تخرب عليها الإيقاع ..
لمعان دمع يرسل خيطا رفيعا من الشعاع...
شعاع يوحي بالكثير من الوداع ..
يجب أن تحتمي بقلبها الشجاع ...
الماضي الذي عاشته لا يمكن أن يباع ..
كيف سيهدأ حاضرها بعد الذي هجم على الأسماع
فضولها سيواجههم... لكن ما السبيل للاقتناع ..؟
سترفع الشراع ...
وتقود مستقبلها على سطح بحر امتد عبر البقاع ...
بحر سيجف فجأة إن قررت إتباع ..
مشاعر قلب على وشك الانخلاع ...

أجل... توقف الجميع منصدما مما قاله العم، انصدموا مع معرفتهم بكل التفاصيل، فكيف هي حال دنيا بعد هذه الأحرف؟... نزلت دمعة من عينيْ رهف، بينما ابتسمت نور من الخلف، التفتت الأنظار ناحية دنيا التي لم تبد أي انفعال... ليتوقف هيثم مرتعشا عند كلمتين (شقيق دنيا) تتردد على مسامعه وتتكرر تارة أخرى، ولكنه للأسف لم يستطع نفيها أكثر؛ لأنه يعي جيدا أن دنيا ليست من العائلة.

لحظات السعادة التي شعرت بها دنيا بسبب نجاة رفيقة دربها لم تستمر مدة طويلة، بل سرعان ما عاد الحزن ليخيم على

حياتها، كيف سيكون لون هذه الحياة بعد هذا الخبر؟ وكيف ستستقبله بطلتنا؟ بل كيف سيكون موقفها من عائلتها ومن العم سمير؟ ستزداد المشكلات أكثر بحضور العقرب في معمعة الحدث، فإلى أي مدى ستستغل ما سمعته؟ أسئلة كثيرة ومشاعر مختلطة وأفكار متضاربة اصطدمت بقلب طيب وحنون لم يكن ليستحق ما يحدث له، فهل يعتبر ابتلاءً من المولى؟ أجل، هو كذلك... ابتلاء انكشفت به الحقائق وستنكسر بسببه المزيد من المرايا.

الفصل الثامن: مرارة الماضي والحاضر أمرّ.

انتهى الفصل السابق مع نزول الخبر كالصاعقة على دنيا، لم تتحرك، لم تتنفس، لم تبعد بصرها عن رضا وهي تراجع تصرفاته منذ أول لقاء، رغم أنها ربطت ما سمعته من العم سمير بالتوتر الذي يدور داخل منزلها إلا أنها فندت ذلك، كانت تبحث عن شبهٍ ما بينها وبين هذا الشاب الذي يغضب عليها كلما نادته بالغريب، إلا أنها استبعدت أن يكون بينهما قرابة، لمّا انتبهت رهف لحركتها الغريبة راحت تناديها وتهز جسدها هزّا متواصلا إلى أن ابتسمت ابتسامة ساخرة ودموعها تتسابق على وجنتيها المحمرتين،" فيا ويلي إن كانت هذه حقيقة"... هذا ما دوّت به تلك العبرات المضطربة، لترد على العم مرتعشة.

- لقد قلت ما قلته لتوقف هذا الشجار يا عم سمير... أليس كذلك؟

كان الجميع صامتا ولا يرد عليها، السكون لا يبشر بخير، الأعين تصرخ أنينا لتثبت الخبر، لقد ضجّ قلبها بآلام لم تحتمل ذلك التفسير، أسئلة كثيرة رأتها في ملامحهم فارتعبت واقتربت بخطوات يائسة من العم سمير لتهزه.

- ما هذه النظرات التي ترمقونني بها؟... سأدخل إلى المنزل وأعتبر أن ما قلته مجرد مزحة لا أكثر... كيف لهذا الغريب أن يكون أخي؟ ...

انكفئ وجه العم فانزاح عنها خطوة لذا استدارت متوجهة إلى باب منزلها لكنها لم تبتعد كثيرا... فقد أمسك رضا ذراعها مجددا، أمسكها بحنان لم تعهده من قبل، التفتت إليه ليوقظها من غيبوبة قذفت روحها داخلها متهربة وقال.

- كفاني... أنت لا تعلمين أن كلمة الغريب التي تصفينني بها في كل مرة تخزّ روحي بسهم من الألم الذي لا نهاية له ...
- أترك يدي... واغرب عني ...
- لكن ما قاله العم يوسف... أقصد سمير صحيح، الغريب الذي يحدثك الآن هو شقيقك الوحيد... شقيقك الذي اختار اسمك بنفسه وليس لك أخوة غيري...

جرحت عبارة رضا مشاعر هيثم فأمسكه من خناقه وكلمه.

- لا تتجاوز حدودك يا هذا... فصمتي لا يعني أنني خائف منك.
- كل شيء كشف... هي نيفين أبو غزالة فلسطينية ولا علاقة لها بالجزائر... وأمي لم تلد غيرنا.

أفلتت دنيا يدها من بين قبضته بقوة ثم أشارت بإصبعها وردت عليه.

- لا... أنا دنيا بن زيان وأما عن نيفين التي تبحث عنها فغيّر طريقك إلى مكان آخر، وأنا آسفة للّبس الذي وقعت فيه... إذهب من هنا.

ابتسم هيثم ورهف بفخر أمام صمت قطع فؤاد رضا، ولمّا أحس العم سمير بحساسية الموقف وحدّته وقد اجتمع العناد بين نظرات الجميع خاطبهم مترجّيا.

- دعونا نتكلم في الدكان... فليس من مصلحتنا معرفة غيرنا بالموضوع.
- لن أتكلم مع أحد... لنعد إلى المنزل يا هيثم.

تذكر هيثم والدته وأسماء فأوقفها قبل طرقها الباب مرتبكا.

- دنيا... أمي في الداخل ولن تتحمل... ثم أنظري إلى حالتي... دعينا ندخل إلى الدكان... ستفهمين كل شيء...
- لا تفعل هذا بي يا أخي... ما الذي سيحدث إن عرفت أمي بما تفوهتم به قبل قليل... أنا أخاطبك بكلمة عزّت أحرفها... فلا تحطمني يا... أخي أرجوك...

فجأة سمع الجميع ضجة هاتف فالتفتوا، وإذ بها نور لم تكتم نغمة هاتفها والتهت بالضوضاء التي التهبت، ارتبكت واصفرّ وجهها بمجرد أن كشف أمرها، بينما زفر الغضب بين عيني دنيا فصرخت.

- أنتِ ؟... ما الذي تفعلينه هنا؟... أجيبيني أيتها الحقيرة.
- لقد جئت... لأعتذر عما بدر مني هذا الصباح... وأهنئك بنجاة أمل يا دنيا... لم أقصد...

أحست دنيا في كلمات نور استهزاءً واستغباءً، فهاجمتها وقد لفت أصابعها حول عنقها لتتدخل رهف مرتعبة.

- أتركيها... سيجتمع الجيران مجددا... دعيها تذهب لست بحاجة إلى المزيد من الألم... ارحمي نفسك.

تمكنت رهف من فكّ نور التي استدارت هربا لتصطدم بجسد رضا، رمقها بنظرة فاض هدوءها حتى أنستها الكلام، انتبه الجميع أنها نفس التصرفات التي تتصرفها دنيا، بل ونفس النظرة الغاضبة، كأن رضا صورة مستنسخة عنها، فيما كانت نور تتراجع للخلف مع كل خطوة يدنوها منها الشاب الذي قال بحنق.

- أعتقد أنني حذرتك من قبل أيتها الثعلبة، معرفتك لهذا السرّ سينهي حياتك... لن أسمح لك بالرحيل.

وقبل أن يمسكها أوقفه هيثم فيما استغلت نور الفرصة وهربت.

- رهف محقة... سيجتمع الجيران ثانية...
- لقد عرفتْ كل شيء... حياة أختي وكل عائلتي ستكون في خطر إذا ما تسرّبت الحقيقة.

اقشعر بدن دنيا عندما سمعت هذه الكلمات فيما تدخل العم سمير.

- لم تعرف إلا الظاهر من الحقيقة يا رضا... كما أنها رحلت وانتهى الأمر... هذا الدكان حمل الكثير من الأسرار بين جدرانه فاتركه يكمل المهمة... أدخلوا... هيا... لو سمحت يا ابنتي.

بعد تردد دخلت الدكان خلفهم، لم يهتم رضا بالدم الذي سال من جبينه وبدأ الحديث بألم فاض على كل قسماته وحركاته بل وحتى أنفاسه.

- يجب أن تعرفي الحقيقة التي خبأها الجميع عنك منذ ثمان عشرة سنة، أنت لست ابنة أحمد ولا تقربك بعائلة بن زيان أي قرابة، كما أخبرتك... اسمك الحقيقي نيفين أبو غزالة.

ضحكت دنيا بتهكم وراحت تصفق وقد صعب عليها تصديق الخبر.

- صدقتك حقا يا رضا، ما الذي تحاول فعله بي؟
- لا أريد سوى استعادة حق عائلتي... حقي في أن تخاطبيني بأخي... وتكبري أمامي... حقك في معرفة أمك ووالدك... نجمة وحسن ...

امتلأت عينا دنيا بالدموع منتظرة أن ينطق أحد ما بكلمة واحدة، لا يزال لديها شيء من الأمل، أمل يفنّد كلام رضا غير أن الجميع يحاول التهرب من النظر في عينيها مباشرة، طرق قويّ دخل على إثره سي أحمد إلى الدكان، فقد أخبره أحد الجيران عن الشجار الذي وقع بين ابنه والغريب، رؤية دموع دنيا تنهمر أربكت تصرفاته، كيف لا وقد ركضت إلى حضنه دامعة.

- أبي ما الذي يقولونه؟ أحقا لست ابنتك؟... هيا أخبرني الحقيقة، أنت أملي الوحيد يا أبتاه... قل لي بأنها مزحة لا أكثر... أخبرني أنهم يكذبون عليّ... أرجوك.

كلما هزت دنيا سي أحمد متوسلة احتدت نظراته الموجهة إلى العم سمير... أدرك أن ما خشي حدوثه تلك الصبيحة قد حدث بأسرع مما توقّع، لم يستطع سوى إرضاء ابنته ونفى الحقيقة مكذبا بحرقة.

- ومن قال هذا الكلام؟ أنت ابنتي ولا أحد يستطيع نكران هذا الأمر.

ابتسمت دنيا كأن بريقا من الدفء عاد من جديد، ليقطع العم سمير ذلك الشعور لما وقف وجها لوجه أمام رفيقه وقال.

- أنا من قال لها هذا الكلام يا أخي.
- لا... ليس أنت يا سمير فقد وعدتني ...

تركت دنيا ذراع سي أحمد وعادت إلى الخلف صارخة.

- بماذا وعدك يا أبي؟ أوعدك بأن يخفي عني أن حياتي التي عشتها معك كذبة؟ أنني عشت مع عدد من الممثلين؟... أخبرني يا أبي بماذا وعدك؟ ألا بالله أخبروني ما الذي حدث في الماضي؟ من أنا بين هؤلاء البشر؟

كانت الصدمة قوية والقلب ضعيف والفكر هزيل، لم يكن هناك توازن في المقاييس، استرسلت في كلامها وأفلتت ذراعها بعد أن حاولت رهف تهدئتها.

- أوعدك بأن يخفي عني أنني... أنني مجرد لقيطة لا يعرف أصلها يا أبي؟ في أي زاوية وجدتني مرمية يا ترى؟

صرخة تـُبعت بخطوات نور وهي تركض مبتعدة عن باب الدكان، لم تستطع الذهاب دون إكمال ما تريد سماعه، ومع الأسف لم ينتبه لها من كان بالداخل، أما رضا فانتفض مكذبا بمجرد إكمال دنيا لجملتها الحاقدة.

- لا يا نيفين... إياك والتفكير بهذه الطريقة عن أمّنا... فأنت ابنة حلال وأمك شريفة ولم تفكر يوما بما خطر في بالك.
- إذن لماذا استغنيتم عني؟ لماذا عدتم بعد ثمان عشرة سنة كاملة؟...

أخذ الدمع يهطل كالمطر من عيني دنيا ثم هوت على ركبتيها، ركض نحوها هيثم لكنها صرخت رافعة يدها في وجهه، ليصطدم بها معلنة انكسار ثقتها بالجميع.

- ابتعد... لم أعد أحتمل المزيد من الكذب، لماذا لم يخبرني أحد منكم بالحقيقة من قبل؟ ما السرّ وراء هذه الحياة التي عشتها؟

اقترب منها سي أحمد يبكي مخاطبا .

- لقد خشينا رحيلك بعدما اعتدنا وجودك... لطالما اعتبرناك من العائلة... أنا أعرفك جيدا... لن تعيشي بالشك الذي ستصوبه أسهم الماضي إلى صدرك

وسترحلين... اكتشافك للحقيقة لا يعني أن حبنا كان كذبا يا ابنتي... فدعينا نذهب ولنغلق الموضوع عند هذه النقطة... لا تشوشي أفكارك بما لم يعد له وجود... لن يتغير شيء في نظرنا.

مدّ سي أحمد يده ليساعد دنيا على الوقوف لكن رضا هرع مسرعا ووقف بينهما.

- مستحيل ...لن تذهب معك، مكانها بعد اليوم سيكون بقربي.
- أين كنت طوال المدة التي مرّت؟ هي ابنتي ولا يحق لك ولا لغيرك أخذها... ابتعد قبل أن أغضب.
- وأنا لا أنكر المعروف الذي قدّمتموه لعائلتنا... نيفين أمانة حان لها أن تعود لأصحابها... عندما قـُدّمت إليكم لم يكن باستطاعتي فعل شيء... لقد كنت في العاشرة من عمري... لكن اليوم تغيرت أمور كثيرة...

سحب سي أحمد رضا من قميصه وصرخ فيه.

- ما الذي تغير ولا زال عدوكم يلهث خلف العادات والتقاليد؟... بل يلهث خلف عائلتك ليبيدها... أنسيت أمر تلك الاتفاقية التي عقدت بين والدك وذلك الرجل.

حرّر رضا نفسه ورد بحنق.

- لم أنسها... لكنها الآن في حمايتي... سأتدبر الأمر... وقد تجهزت لكل ما يمكن أن يحدث.

ارتعبت دنيا وهي تسمع ما دار بين سي أحمد ورضا ونظرت إليهما متألمة.

- عن أي اتفاقية تتحدثان؟ ممّن ستحميني؟ بل ما الذي حدث في الماضي؟ أخبراني... فورا... لأنني لن أصدق أن عودتك يا رضا بعد هذه السنوات سببها الشوق والحنين.

نظر رضا إليها ثم طأطأ رأسه، رأت دنيا أول دمعة نزلت من عينيه بخوف... أربكته نظرتها الحاقدة وكلماتها المجروحة، ليبدأ كلامه.

- في الحقيقة اشتياقنا إليك كان يزداد مع كل لحظة تعيشين فيها بعيدة عنا، وأقل شيء يمكنني فعله هو إجابتك عن كل أسئلتك وإبعادك عن المتاهة التي وضعت فيها بغير ذنب... لكن أرجوك هناك من يحتاج رؤيتك...

ثم صمت هنيهة فبدأ العم سمير يسترجع الذكريات متأملا خياله المنعكس على النافذة الصغيرة.

قبل ثمان عشرة سنة تعالت أصوات ضحكات من حديقة قصر الآغا حسن في أعالي الجبال الشامخة ببنت جبيل إحدى مقاطعات لبنان، لقد افترشت لونا ذهبيا تخلله شيء من الاحمرار النحاسي، تراكمت الأوراق أسفل أشجار تعانقت أضلعها، إنه شهر تشرين الأول قلب الخريف وأوج صمته، لا

يزال هناك شيء من حرّ الصيف .. إنه يجهز حقائبه ليتوارى في جحره بحثا عن السبات، في نفس الوقت ستستقبل المنطقة نسمات تعلن اقتراب برد الشتاء ثم صقيعه، الجميل أنها تأتي متدرجة على عكس ما حدث في ذلك اليوم، لو نظرت من الأعلى ما كنت لتجد اكتظاظا للمنازل أو السكان ولكنك لو أمعنت النظر سترى الاكتظاظ غزا أفكار بعض ساكنيه فسلبت معه الرحمة، بشر قست تصرفاتهم فتوارثوها كأنها ثروة ترفع الشأن، قسوة أحلتها تقاليد وأعراف وضعت منذ سنين، شأنهم شأن جميع المناطق في هذا العالم، لا بد من وجود قطبين .. الضحية والمجرم... البريء والظالم... الطيب والشرير .. سأدلكم على قانون في تركيبة البشر .. الحقيقة أن الموازنة بين الكفتين لا تتساوى بعددها وإنما بجبروت تجاوز الكمّ إلى الكيف، صحيح أن عدد سكان الجانب المظلم أقل بكثير من الجانب الضعيف المسكين، ولكن الأول يستند إلى قوة صنعها الطرف الآخر حين اقتنع بعظمتها بينما هي واهنة تعد دقائقها الأخيرة، لا يعلم هؤلاء الضعفاء أنهم إن اتحدوا واستندوا على من لا إله غيره، إن زادوا فوق تلك القناعة المزعومة قناعة أخرى أصدق .. تؤكد لهم أن من يكون على حق لا يسقط وأن من يطالب بالحق لا يخسر ولا يفشل.

نقترب من ساحة أحد القصور لتظهر صورة ولد في العاشرة من العمر يلعب مع القطة، حين ناداه صوت رقيق من بعيد.

- لقد جهزنا الإفطار... أدخل يا بني فالجو بارد.
- قادم يا أمي... ولكن، هل بإمكاني إدخال القطة؟... ستبرد ..
- لقد تكلمنا في الموضوع يا حبيبي، هيا قدم القطة للعم يوسف واغسل يديك جيدا قبل الجلوس على السفرة.

من الخلف تقدم رجل في مقتبل العمر وحمل رضا ورماه في الهواء ثم وضعه على الأرض وخاطبه في حزم.

- لقد كبرت ولا يجوز للرجال اللعب مع القطط... يجب أن تتعلم مسؤولياتك من اليوم يا بني.
- حسنا يا أبي... سأكبر وأكون مثلك آغا يخافه الجميع ويحترمون مكانته في كل محضر.

دخل الطفل المنزل مسرعا بعدما قدم القطة لرجل حسن الهيئة، بشوش الوجه.

الأب هو الآغا حسن أبو غزالة ولد سنة 1941 في قرية الدامون الواقعة شرق مدينة عكا، نزح مع والدته إلى مدينة طمرة وعمره 7 سنوات، حين دمّر الاحتلال الإسرائيلي مدينة الدامون قتل من قتل وشرّد من تبقى في أماكن كثيرة، عاش مع والدته في مدينة طمرة في ظروف قاسية جدا، انضم لعدد من المتمردين على مكوث العدو الغاشم فوق أراضيهم وشارك في العديد من المقاومات، ولما بلغ ثلاثين سنة استطاع إنقاذ شابة في الثاني والعشرين من العمر من الموت بعدما دُمر بيتها

وقتل جميع أفراد أسرتها، اصطحبها معه إلى منزله ثم تركها مع والدته التي اعتنت بجروحها وعاد إلى الجبل، في نهاية تلك السنة قررت الأم خطبتها لابنها بعدما لمست فيها الإخلاص والطيبة، فوافقت الشابة وقد كان اسمها نجمة الأشهب ليتم العرس البسيط أول سنة 1972، بعد سنة من الزواج اكتشف جنود إسرائيل أمر انخراط حسن في تلك المجموعة المتمردة، ولكن في اليوم الذي بلغ فيه أولئك الجنود عنوان منزله كان قد فرّ مع زوجته وأمه واتخذ طريقه إلى الحدود الفلسطينية اللبنانية، لسوء الحظ لم تستطع الأم تحمّل مشقة الطريق، وفارقت الحياة بعد أيام من تواجدهم على الأراضي اللبنانية.

بعد سنتين من زواجهما رزق الله حسن ونجمة صبيا أسمياه رضا، واستطاعت نجمة كسب محبة حسن واحترامه اللامحدود لشخصيتها، لطالما عرفت بجديتها وطيبة قلبها، امرأة عنيدة ولا تفعل إلا ما تراه مناسبا، ويدا بيد تمكنت مع زوجها من فرض وجوده ونجح في ربط علاقاته مع كبار من تواجدوا هناك، فزادت قوته وأصبح له هيبته وسلطته على كل المنطقة، لكنه مع الأسف عرف أيضا باتباعه الأعمى للعادات والتقاليد التي شرعت من طرف واحد اتسخت أفكاره بالانتقام والتجبر.

بعد عشر سنوات من ولادة رضا عرفت نجمة بحملها الثاني لفتاة ليسعد الجميع لهذا الخبر وها قد أكملت شهرها

الخامس وتجاوزته بأسبوع، وخوفا على حياة الطفلة تخضع نجمة لمعاملة خاصة من زوجها، لذلك كثيرا ما يسمع استياءها واختناقها من هذا الاهتمام لكنه يتجاوز تذمرها مازحا.

أما عن الرجل الذي تسلّم القطة من الطفل فهو يوسف السليمي أي الاسم الحقيقي للشيخ سمير المهداوي.

في أول أسابيع تشرين الثاني قرر الآغا حسن الذهاب للصيد مع يوسف، لم يكن هذا الأخير خادمه فقط، بل كان مركز ثقته وذراعه الأيمن قبل اتخاذ أو تنفيذ أي قرار، يرى يوسف في ولاءه لحسن ردّ دين قطعه على نفسه منذ سنوات، أحبّه كل أفراد العائلة فكان لهم السند والمعين.

في قلعة فخمة مبنية بالحجارة القديمة تداخلت خطوات رجال في جو متوتر للبحث عن شخص ما خلف الأشجار وفي الجوار، كان الرعب ظاهرا على وجوههم ليتقدم رجل تجاوزت اللحية ذقنه بقليل وصرخ فيهم مزمجرا.

- **ما الذي تقولونه؟ كيف لم تجدوها؟ بل كيف تمكنت طفلة صغيرة من الخروج من الحديقة دون ملاحظتها؟**

ركض خادم في الأربعين من عمره، وصرخ مخاطبا سيده وأنفاسه القلقة تصطدم مع ذرات النسيم الباردة لتنذر بالخطر.

- آغا ! الغالب أنها توجهت إلى الغابة الغربية...

أطرق الخادم رأسه محاولا إخفاء ابتسامة تسللت بين ملامحه، ابتسامة لم يكن الوقت مناسبا لإظهارها، بشكل غريب عاد الخوف والخضوع ينتشران على محياه وأخذ يصغي إلى رد آغاه متقنا دوره.

- ما الذي تقوله يا بسام؟.. جهز الحصان... أما أنتم فستدفعون ثمن إهمالكم أيها الحمقى... كيف لم تروها؟

سقط الرّجال على الأرض في توسل علّه يصفح عنهم لما رأوه يصوب مسدسه إلى رأس أحدهم، وفي اللحظة التي أراد فيها الآغا إطلاق النار سمع صوت طفل صغير من الخلف فالتفت إليه بارتباك مخفيا مسدسه.

- أبي... وأنا أيضا أريد مساعدتكم في البحث عن أختي... لقد تركتها تبحث عني عندما كنا نلعب ..

اقترب الآغا من الطفل أكثر وانحنى محاولا طمأنة قلبه مخاطبا إياه بهدوء.

- لا تقلق يا مراد، لأنني ذاهب لإحضار أختك... أما أنت فانطلق إلى والدتك وأرح بالها يا بطلي.

ضرب الولد الصغير مراد كفه بكف والده، ثم نظر بعينيه البريئتين إلى الأحصنة تبتعد محدثة خلفها غبارا يعمي الأعين ويخنق الأنفاس.

الآغا الآمر هو محمود أبو دياك رجل شديد التعصب وهو أيضا من اللاجئين الفلسطينيين بلبنان، ينحدر من مدينة القدس، يقع قصره خلف الغابة مباشرة، لقد ساهم في تقريب حسن من كبار المنطقة في أول أيام انتقاله إلى بنت جبيل، وعرّفه على الجميع، لكن سرعان ما أصابته الغيرة بسبب التقدم الذي أحرزه حسن بين أهل العشيرة، فلما أصبح أكثر قربا، قطع محمود علاقته به وذلك منذ أكثر من سبع سنوات.

الخادم المقرب هو بسام لا يزال حينها في الأربعين من عمره، تمكن قبل أشهر قليلة من الدخول في صفوف اللاجئين بلبنان، وبسرعة الثعلب تقرب من محمود إلى أن أصبح محل ثقة ومركز طمأنينة، تجمعه قصة قديمة مع رجلين شهد لهما التاريخ بالبطولة، فأي قصة جمعته بهما؟ بل ومن يكونان؟

الولد الصغير مراد أبو دياك الابن الأكبر للآغا محمود وأثناء هذه الأحداث أي سنة 1983 لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة، في صغره كان محبّا للمعارك والتصرف كالآغوات رجولة وقوة، اعتبر والده المثل في كل شيء، فيما كان الرجال يبحثون عن

الطفلة التي تسللت خارج القصر في غفلة من الحراس وعمرها خمس سنوات فقط.

في الغابة امتطى الآغا حسن حصانه باحثا عن أرنب أو طير يصطاده، وخلفه مباشرة حصان امتطاه يوسف، كانت بندقية حسن على أهبة الاستعداد، وحواسه تترصد أي حركة بين أكوام الأوراق المتساقطة أو جذوع الأشجار المعمرة، أو ربما فوق أغصان من الأوراق شبه عارية، مضت دقائق معدودة وهما يتجولان من هنا إلى هناك، انكسار الأوراق تحت حوافر الجوادين لا يبشر بخير، إنها تتألم وتستغيث، ولعلها تحذرهما، تريد منهما التوقف .. لا مزيد من الخطوات، ليتهما فهما تلك الآهات، وما أن سمعا ضجة خلف بقايا يابسة ومتشابكة من الشجيرات، حتى سكن حسن وهمس مبتهجا.

- يبدو أننا وجدنا فريسة ما... أرجو أن يكون لائقا بمكانتي.

ردّ يوسف منتبها للبطء الذي ميّز حركة الفريسة.

- ركز جيدا يا آغا، لأنني أعتقد أنها لم تنتبه... فحركتها البطيئة تؤكد أنها من نصيبك.

هي طرفة عين فصلت بين آخر حروف يوسف ودوي نار أربك طيورا لم تهاجر بعد، واختفى معها ظل رجلين ركضا بعيدا دون أن ينتبه إليهما أحد، لم يكن ذلك الصوت بعيدا عن مسامع الآغا محمود وتابعه بسام، حيث هرعا مباشرة إلى

مصدره، بعد السكون الذي اخترق ذبذبة الصوت لحظتها ترجّل يوسف مبتهجا وانطلق إلى صيد آغاه الذي خاطبه مازحا.

- أطلق سيدك وأصاب الهدف... لكن احذر يا يوسف فقد يكون أسدا.

ضحك الآغا حسن من فوق الجواد حتى جلجلت ضحكته محدثة صدى امتزج بصراخ يوسف وقد وضع يده على رأسه في خوف وسقط مرتعشا.

- آغا... لقد انتهى أمرنا.

توتر يوسف انتقل إلى حسن فاقترب ولا زال فوق حصانه.

- ما الذي يحدث عندك؟
- إنها طفلة صغيرة... لقد أصبت طفلة صغيرة.
- ما الذي تتفوه به يا رجل؟

ترجل حسن وهرع مسرعا، وعندها اصطدم بالخطأ الجسيم الذي اقترفه، اصطدم بالجريمة التي ارتكبها في حق تلك الطفلة الصغيرة، بل في حق عائلته بأكملها، لعل القدر هو من تحكم بتلك الرصاصة الظالمة، إلا أن رعبه كان من عادات كان أحد مدونيها، تلك الدساتير التي أحكمت قبضتها على أفكار الجميع، هو يعرف نهاية مثل هذا الخطأ، وإن كان مجرد خطأ غير مقصود، لم تحمل دساتيرهم الفرق بين هذا وذاك، بين ما يفعله الشخص بنية مسبوقة وبين ما يرسله القدر

فيقع في المكان الذي يريده والزمان الذي يؤقته، وقف حسن جامد الخطى متأملا منظر الفتاة، ثم انهز بدنه عندما سمع صوت محمود، وقد قفز من الحصان وسقط على ركبتيه رافعا رأس ابنته.

- **مستحيـل... ابنتي... ما الذي حدث لك؟ هيا يا بسام دعنا نأخذها للطبيب... ابنتي لم تمت.**

على الرغم من ضخم المصيبة التي وقعت فإن بسام بقي يدقق النظر في ملامح يوسف، امتلأت عيناه حقدا ترجمته أنفاسه الثائرة في جوفه وهو يقول.

- **لا أصدق... في نهاية المطاف وجدت فريستي... لن أتركك تعيش بسلام يا يوسف.**

تمالك بسام نفسه ودنا من الطفلة ليكتشف أنها ماتت بمجرد أن جس نبضها، ثم قال.

- **آسف يا آغا لكن الصغيرة ميتة... ولا بد أنهما قتلاها للتسلية... بالتأكيد أحدهما أطلق عليها النار.**

ارتبك حسن فرد محاولا تبرئة نفسه.

- **لكننا كنا نصطاد ولم نقصد استهداف ابنتك يا آغا... نحن لم ننتبه لوجودها.**
- **لقد ساح دمي على الأرض يا حسن... ستدفع ثمن ما اقترفت يداك أيها المجرم... دم ابنتي لن يذهب سدا.**

كان يوسف يراقب بصمت وبمجرد أن سمع صوت الزناد حتى أرجع يده خلفه وأمسك بدوره سلاحه مصغيا إلى كلمات بسام تتابع.

- يجب أن يموت مَن هدر دمك يا آغا... لن نعفو عنه أبدا.

وجه بسام سلاحه إلى الآغا حسن، لكن يوسف تدارك الوضع وأطلق النار مصيبا قدم بسام وقد تذكر صورا مشوشة لشجار في مكان جبلي، وسقوط أحدهم متأثرا برصاصة في ذات المكان الذي أصيب فيه ذلك اليوم وبنفس الطريقة، بينما أرغم يوسف سيده على ركوب جواده وانطلقا بسرعة.

فاقت صدمة الآغا حسن وخوفه حينها صدمة الوالد محمود على ابنته، لأنه يعي جيدا تلك القوانين التي نفذها بنفسه على غيره من قبل، فيما ظل محمود يصرخ وابنته بين أحضانه.

- أينما ذهبت يا حسن، فسأنتقم وأثأر لابنتي... سأجعلك تبكي دما وتحترق بدل المرة ألف مرة.

أما عن بسام فأمسك جرح قدمه وسحب أنفاسه ليقف عليها متجاهلا ألمه وخاطب نفسه.

- أنت الذي جنيت على نفسك يا يوسف... لن تعرف أنني أحمل الموت بين يدي، عرفانا مني للمعروف

الذي قدمته لي منذ سنوات سأجعل ثائرة محمود تتسلط على كل من تعرفهم... ولكن قبلها ستأخذني إلى أحمد... لأن الألم الذي أشعر به الآن لن ينافس الوجع الذي تركني عليه صديقك الجزائري تلك الليلة..

اتجه محمود إلى قصره ليجمع رجاله وقد قرر مهاجمة حسن للانتقام، وبينما كان يوجه إليهم التعليمات إذ كان ابنه مراد ينصت في خفية، لقد بكت عيناه عندما أدرك أن أُخته ومؤنسة وحدته ماتت، وفي الجهة الأخرى من الغابة، وصل الآغا حسن إلى القصر ليصرخ يوسف آمرا الحراس.

- ليستعد الجميع... وخذوا أماكنكم لأننا سنتعرض لهجوم ...

نظر يوسف إلى أحد الرجال وأشار إليه بيده فاقترب منه مخاطبا.

- بسرعة توجه إلى الآغا الكبير... وأخبره أن كارثة ستحل على العشيرة إن لم يتدخل... أعتمد عليك ولكن لا تسلك طريق الغابة.
- لكن طريق الغابة هو المختصر.
- نفذ ما قلته... اذهب من الطريق المعاكسة... ولكن بأقصى سرعة...

دخل حسن المنزل فارتعبت نجمة لما رأت حالته واقتربت منه سائلة.

- **ما الذي حدث يا حسن؟... ولماذا خطف لون وجهك بهذه الطريقة؟**

ألم حسن تضاعف بلمسة من أنامل ابنه رضا من الخلف، أمسك الطفل بيديه فالتفت ليخاطبه مبتسما.

- **هل تعلم يا أبي أن أمي كانت تحكي لي عن أختي؟... وقد اخترتُ لها اسما بنفسي... وهذا الاسم أعجب أمي كثيرا... فهل سيعجبك اسم نيفين؟ لأن الاسم الذي اخترته لأختي هو نيفين.**

لم يتحمل حسن وسقط على ركبتيه محتضنا ابنه في ألم شديد، أمسكت السيدة نجمة بطنها وحبست أنفاسها، ولما دخل يوسف اقتربت منه دامعة.

- **ما الذي حدث يا يوسف؟... هيا أخبرني الحقيقة الآن... إياك والكذب.**

بعد صمت هزت نجمة جسد يوسف متوسلة فرد وقد دمعت إحدى عينيه.

- **للأسف يا خانم... لقد حلت المصيبة علينا... لأن الآغا أطلق على ابنة الآغا محمود أبو دياك بالخطأ عندما كنا نصطاد ...**

- هل ماتت الصغيرة؟
- مع الأسف نعم... ونتوقع هجوم رجاله على القصر للانتقام.

ركضت نجمة نحو رضا وسحبته إلى صدرها ثم صرخت كالمجنونة.

- أفضل الموت على ترك ابني... وإن كان يريد الأخذ بثأره فليقتلني أولا... لأنني لن أتنازل عن روح ابني.
- إهدئي يا سيدتي...سنجد طريقة ما نقلل بها الخسائر.
- لكنني أعرف جيدا القوانين التي ساعد سيدك على وضعها ونفذها في حق الجميع... لقد وقع بنفسه على الكثير من الاتفاقيات الظالمة وقتل الكثير ظلما بسبب التقاليد... فليواجهها بنفسه ولكن لن أسمح بإقحام ابني ضمن اتفاقية جديدة.

وهنا سمعوا صوت إطلاق النار المتبادل بين رجال الآغا محمود والآغا حسن، أثناء المعركة أصيب عدد كبير من الطرفين، لكن رجال الآغا محمود نجحوا في اختراق أبواب القصر وعندها ارتبك يوسف وخاطب السيدة.

- هيا يا سيدتي خذي رضا واخرجا من الباب الخلفي... لم يبق الكثير وسيكون الآغا الكبير هنا، وإلى ذلك الحين علينا كسب الوقت.

استدارت نجمة فلم تجد رضا، لذا وقفت بتهور باحثة عنه ولولا حسن الذي ركض ودفعها في آخر لحظة لأصيبت برصاصة طائشة، مما جعله يصرخ مخاطبا.

- هل جننت؟... ألم تسمعي ما يحدث في الخارج؟
- أتركني يا حسن... فرضا ليس هنا... جد لي ابني.

عندها سُمع صوت رضا من الخارج، لقد حمل عصا وراح يلوّح بها واقفا وجها لوجه أمام محمود.

- انقلع من بيتنا... سأقتلك إذا اقتربت خطوة واحدة أخرى.
- (هه) لقد قدمت بنفسك أيها الولد.

أمسك محمود رضا وصوّب مسدسه إلى رأسه، بينما كانت نجمة تركض مسرعة مع حسن بنفس منقطع، لما أراد يوسف اللحاق بهما انتبه لوجود حركة ما خلف الباب الخلفي فذهب ليتفقده بحذر، أخذت صرخات نجمة المنهارة تتعالى.

- أرجوك يا آغا أترك ابني... لن أستطيع العيش من دونه، أتوسل إليك أن ترأف بي... أليس بقلبكم رحمة... أتوسل إليك بأغلى ما تملك يا آغا.
- زوجك لم يرحمني عندما صوب على صغيرتي... مستمتعا...
- وما أدراني أن ابنتك خلف الحشائش يا محمود؟

- أغلق فمك أيها الخائن... لن أترك دمي على الأرض ولن أسامح من هدر دم طفلة صغيرة لم تذنب، لذا سيرمي موته في قلبك الآهات التي تلتهب في صدري... يجب أن يموت.

استعد محمود ليضغط على الزناد، متجاهلا صرخة نجمة التي هزت أركان القصر، وفي تلك اللحظة استدار الجميع إلى خطاب يوسف محكما قبضته على الطفل مراد.

- أظن أن عندك غير التي ماتت، وهذا الولد غالي بقدر الصغيرة التي فقدت يا آغا... لكنك إذا لمست رضا بأي أذية فسألحق ابنك بأخته... لهذا فكر جيدا.

وجه رجال محمود المسدسات إلى يوسف فيما صرخ محمود.

- مراد!... لم أعتقد أنك ستحط من قيمتك وتخطف ابني لتنقذ ابن سيدك من حكم وضعه فيه والده ...
- أنا لم أخطف ابنك... ولكنه لحق بك خفية... اختبأ في صندوق سيارتك... لهذا أذكرك بالقوانين... يجب أن يعقد الاجتماع قبل أي قرار سيُتخذ... فانسحب من هنا وإلا فلن تسمع صوت ابنك ثانية... خذ رجالك وانقلع من هنا لأنه لن يلومني أحد إن فعلتها.

نظرات التحدي بين يوسف ومحمود بترت بصوت ذو هيبة صرخ فيهم وهو يقلب بعينيه منظر الدماء والجثث المرمية هنا وهناك.

- ما الذي تفعله يا محمود؟ ليس هذا ما علمناك، وأنت أيضا يا يوسف... أترك الولد الآن.
- الحمد لله...

قال يوسف آخر كلماته مرتاح الأنفس أما محمود فصرخ بغضب.

- لقد علمتنا بأن لا نترك الدماء سائحة على الأراضي فتدوس عليها الكلاب والخنازير البرية، وقد قتل هذا الوغد ابنتي من دون أي ذنب ولن أسامحه مهما فعل، سأقتل ابنه كما قتل ابنتي.
- ستنفذ ما تريد يا آغا محمود... لكن تذكر أنه قبل اتخاذ أي قرار يجب أن ترجع لمن وضعك في هذا المركز ولا بد من الاجتماع للاتفاق على حل... ولهذا أترك الولد وتوجه إلى قصري بعد ساعة.

نظر الآغا الكبير إلى حسن وقد خارت قواه ثم خاطبه.

- وأنت أيضا يا حسن سأنتظرك في قصري... لكن لا تحاول الهرب... لأنك الخاسر في كل الأحوال..

رحل الآغا الكبير مع محمود بينما عاد رضا إلى والدته وهي لا تعلم متى تودعه ثانية، النظرات التي أرسلها محمود أكدت

لها أنها ستخسر ما يعادل في قيمته خسارته، أما حسن فتوجه إلى قصر الآغا الكبير مع يوسف وبمجرد دخوله حتى وقف كبار الآغوات وبينهم محمود، تذكر نفسه عندما كان ينتظر المحكوم عليهم ليظهر قوته وعدالته المهترئة عليهم دون سماع حججهم ولا حتى الظروف التي دفعتهم لارتكاب تلك الذنوب، لم يتوقع حسن أنه قد يقف ذات الوقفة في يوم من الأيام، راح يتصبب عرقا منتظرا القرار الذي سيصدره الآغا الكبير باتفاق مع البقية، وبعد أكثر من ساعة كانت خلالها نجمة تنتظر على أحر من الجمر، دخل زوجها وخلفه يوسف فركضت نحوهما في ارتعاش وسألت موقنة أشد اليقين أنها كالغريق المتعلق بقشة وسط محيط العادات والتقاليد.

- أرحني يا حسن... ما كان قرارهم؟

لم يرد الآغا حسن عليها وقعد على الأريكة منهار الخطى، وهنا انفجرت السيدة بكاءً وحضنت رضا تصرخ رافضة.

- لا... ليس ابني... لن أوافق مهما فعلتم.

سكن صوت حسن ممسكا رأسه بغيظ مؤلم ليقترب يوسف مخاطبا لوعتها بحزن.

- إهدئي لأن ابنك سيكون بخير.
- ذلك الجنون الذي أظهره محمود لن يمر بسلام... تكلم بوضوح ولا تكذب علي.

ارتبكت نظرات يوسف وأخبرها متأسفا.

- مع الأسف... لقد اختاروا المولودة التي لم تتنفس هواء الدنيا بعد... باعتبار حسن قتل فتاة فالقصاص لن يكون إلا من الفتاة التي ستولد ...الأنثى بالأنثى يا سيدتي.
- مستحيل... لا تقلها بهذه البرودة يا يوسف، إذا كان رضا ابني فهي ابنتي أيضا ولا تتوقع مني الموافقة، صحيح أنها صغيرة ولكنني أم ولن أقتنع بحججكم الواهية، أصغيا إلي جيدا... أخطأتما لو ظننتما أنني سأمنحكم ابنتي... ولا دخل لي بهذه القوانين يا حسن.

نزع الآغا حسن كوفيته ووضعها على الطاولة وصرخ بغضب.

- يكفي يا نجمة... من تظنينني ؟ (آه) لقد منحتهم روحي وعرضت عليهم كل ما أملك مقابل دماء تلك الصغيرة لكنهم لم يوافقوا... فعندما أقنعتهم بإبعاد رضا عن الاتفاقية اختار محمود الرضيعة لينتقم بذات الطريقة... فهو لا يريد إلا حرق فؤادنا يا امرأة.
- وأنا قلت ما عندي أيها الآغا، لن أسمح بأن ينفذ هذا القرار... وها أنا أعدكم بأن ابنتي ستعيش ومهما كانت الظروف... ولن أكترث بترهات سادتك... سأنقذ ابنتي من ظلم التقاليد الذي وضعت فيه من دون أي ذنب يا أبو غزالة.
- وما الذي يمكنك فعله ولم أستطع أن أفعله يا نجمة؟

قبل أي رد من نجمة تدخل يوسف بهدوء محاولا إقناعها.

- لكن يا خانم يجب أن تتقبلي القرار لأن الآغا وقع على الاتفاقية وانتهى الأمر... وإذا لم نسلم الفتاة بمجرد ولادتها ستحدث مصيبة أخرى وستتعقد الأمور.

عندها نظرت إليهما نجمة بكل ثقة متحدّية، امتلأت عيناها دمعا وخاطبت زوجها.

- لا... بل يوجد حل آخر... وسأجربه مهما كانت النتيجة... ولن أهتم إن مات جميع من في القصر، ويوسف سيشهد على ذلك.
- بماذا تفكرين يا سيدتي؟

ضرب حسن بقبضته الطاولة التي كانت إلى جانبه، ووقف ملتفتا إلى النافذة المطلة على حديقة القصر حيث لازالت بقع الدماء التي نتجت من المعركة متشبثة بالحشائش والأزهار، وبين الجدران ومياه النافورة صارخا بحزم.

- لن أسمح لك بتوسيخ سمعتي وإنزال رأسي بالأرض بين السادة يا نجمة، لذلك أنصحك بأن لا تتجاوزي الحدود وضعي في الحسبان أنني مستعد لمواجهة الموت بدلا من نقض بنود هذه الاتفاقية.
- ولكنني لن أهتم بغير سلامة أولادي، وسأبتعد عن هذه العشيرة لأعيش في أي بلد معهما.

- **وتعتقدين أن هذا هو الحل المناسب، صحيح أنك ستنقذين رضا والصغيرة لكن سيموت جميع من في القصر، فلماذا تفكرين بأنانية يا امرأة؟**

ابتسمت نجمة وردت ساخرة ويدها متشبثة برضا بشدة.

- **الآن صرت تفكر بغيرك؟ رائع... إذا قم أنت بحمايتهم أما أنا فسأسافر مع ولدي وابنتي ولن أعود ثانية إلى قصرك... إن أردت اتبعنا وإن لم تشأ فالقرار قرارك.**
- **لكن إلى أين ستسافرين؟... لا يوجد عندنا معارف خارج فلسطين؟.. الأمر ليس بهذه السهولة التي تعتقدينها.**

بين ضخم هذا الحوار كان الخادم يوسف يفكر في صمت، وأخذ يرسم مراحل خطة لم يكن يعرف نسبة نجاحها.

عادت اللحظات إلى الدكان حيث كانت دنيا تصغي إلى العم سمير بحيرة وألم، ثم استدارت إلى رضا حين خاطبها.

- بعدها أقترح علينا يوسف أنه بإمكان أمي التوجه إلى الجزائر حيث يقيم صديقه وكان واثقا بأن هذا الصديق المدعو أحمد بن زيان سيرحب بها ولكنه لم يخبرنا بكل ما كان يدور في عقله حينها.

قعد سي أحمد على كرسي إلى جانبه وجعل يسرد ما حدث في تلك الليلة مخاطبا الحاضرين.

- وقد كنا نياما عندما طرق الباب في منتصف الليل طرقا قويا زرع الهلع في قلوبنا... فتوجهت إلى الباب بأسرع ما استطعت.

عندما فتح سي أحمد الباب اصطدم برؤية صديقه القديم يوسف ومعه امرأة حامل في حالة يرثى لها، فرد بارتباك.

- **يـ... يوسف... لست أصدق هذا.**
- **خذ لي الطريق أولا يا أخي.**

لكن الشوق كان أسبق لصديق الشباب فحضنه ونادى زوجته النفساء، خرجت فاطمة بعدما سترت شعرها بخمار طالت أطرافه، فطأطأ يوسف رأسه وخاطبها باحترام.

- **ساعديها يا خانم... فهي حامل... الألم يتضاعف عندها بسبب تعب الطريق.**

أمسكت فاطمة نجمة وسارتا باتجاه الغرفة التي أهداها سي أحمد إلى دنيا في عيد ميلادها، ليخاطب الأب المحتار صديقه بارتباك.

- **دعنا نتصل بالإسعاف يا صديقي... لسنا ببعيدين عن المستشفى.**
- **لا يا أحمد... أرجوك جد طريقة أخرى ...**

ردت فاطمة وقد أدركت أن هناك خطبا ما.

- **حسنا يا أحمد... أنت أدخل الرجل وأنا سأساعد السيدة.**

اتجه سي أحمد مع صديقه إلى غرفة المعيشة ثم بادر بالسؤال.

- **ما الذي يحدث يا صديقي... لماذا ترفض الاتصال بالإسعاف؟**
- **سأروي لك القصة... وأرجو أن تساعدني فلا يوجد أحد أثق به أكثر منك.**

كان يوسف يحكي لسي أحمد عن الذي حدث معهم باضطراب تناغم مع الآلام المتعالية، آلام الطلق التي زاحمت نجمة بحسرة أسرت تفكيرها عند رضا، ودعاء جاب روح ابنتها البريئة، بينما سأل سي أحمد.

- **وما خطتك؟ سوف يخلق غياب زوجة سيدك عواقب وخيمة.**
- **إذا ولدت البنت بخير، سأتركها أمانة برقبتك يا صديقي وستعود الخانم للبنان... بالطبع إن وافقتَ ...**
- **ليست المشكلة في موافقتي ولكن هل ستوافق السيدة على ترك فلذة كبدها؟ لقد سافرت كل هذه المسافة من أجل أن ...**

قاطعه يوسف بحزم.

- هي سافرت لتعيش ابنتها، وسيتحقق حلمها... طبعا إذا ولدت بخير وعافية... ومهما بحثت فلن أجد شخصا جديرا بالحفاظ على هذه الأمانة أكثر منك يا أحمد ...

سمع الجميع عندها صوت بكاء صغيرة زادت أركان المنزل نورا، فتاة بدماء فلسطينية لكنها بين أحضان الجزائر الحبيبة، رسمت لها حياة مجهولة المنتهى لم يعرف أحد مصيرها، عندها كانت فاطمة أول من حمل الطفلة، أخذت تمسح وجهها بقطعة قماش بللت أطرافها ثم لفتها بلحاف صغيرتها التي كانت تنتظرها وماتت قبل أسبوع عند الولادة، كانت فاطمة أول من شمت رائحتها دامعة وهي لا تعلم بأنها ستكون أول من تخاطبها الطفلة بأمي، قدمتها لنجمة وقد خارت قواها ثم كلمتها بطيبة.

- مبارك عليك يا سيدتي... ما شاء الله... فقد رزقتِ مولودة غاية في الجمال.
- ابنتي نيفين... تعالي لحضن أمك يا حبيبتي... فأنا لن أسمح لأحد بلمس شعرة واحدة منك.
- لقد اخترت لها اسما إذا... اسم نيفين جميل جدا.
- لقد اختاره شقيقها... هذا البطل الذي لن يتخلى عنها وسيحميها في كل الظروف.

اكتفت نجمة بتأمل طفلتها فيما خرجت فاطمة لتطمئنهم بأن الأم والرضيعة بصحة جيدة، وبعدما اتفق سي أحمد

ويوسف على قرار يقللان به الخسائر وكذلك إنقاذ الطفلة نيفين ورضا من ظلم الاتفاقية، انتظرا في غرفة المعيشة حتى أعدّت فاطمة طعاما دافئا وقدمته لنجمة، ثم دخلا الغرفة فوجدا الطفلة نائمة بعمق وقد زانتها الشامة الواضحة قرب أنفها،... كانت الأم تمعن النظر فيها دون توقف بعدما انتهت من إرضاعها فتقدم يوسف وحمل الرضيعة مقبلا جبينها بينما وضع سي أحمد يده على رأسها بلطف وخاطب الأم.

- الحمد لله على سلامتك... لقد أنارت البيت بصراخها ووجهها البريء... أطال الله في عمرها.

تقدم يوسف وأرجع الطفلة مكانها ثمّ قعد بهدوء وما إن شرع يشرح خطته لنجمة حتى هرولت تحمل رضيعتها إلى صدرها بلهف صارخة.

- مستحيل... لن أتركها... تحملتُ أعباء الطريق لتخبرني بهذه الخطة الدنيئة يا يوسف؟ حقا أنت لا تختلف كثيرا عن سيدك.

- افهميني بهذا التصرف ستذبحين رضا والآغا بيديك ...

- الآن فهمت لماذا تعمدت إبقاء رضا في القصر أيها المخادع.

- سيدتي أنا لم أخدعك... ولكن مكانة الآغا يجب أن تبقى قائمة هناك... بإمكان محمود أن يغير اتفاقيته

ويستهدف ابنك وعندها لن نتمكن من فعل شيء، يجب أن تعودي إلى القصر من دون الطفلة، فنحن لا نملك من الوقت الكثير أما عن نيفين فستبقى هنا بين أحضان هذه العائلة، بمجرد وصولك إلى هناك أخبريهم أنك فقدت الفتاة عندما كنت تحاولين الهرب بها... والجميع هناك يعتقد أنك حامل في آخر أيام شهرك السابع حسب المعطيات الخاطئة التي قدمناها في ذلك الاجتماع... لذا ستوهمينهم بأنك أجهضت الفتاة وهكذا سيصدقونك أو على الأقل سيجبرون على ذلك.

- ماذا عنك؟ ألن تعود إلى سيدك؟
- لن أفعل... لأنك ستعودين بمفردك وستنجحين في ذلك... ابنتك ستبقى أمام عيني ولن ينقصها شيء... من حسن حضي أن أحمد أرسل إلي رسالة أخبرني فيها بأنه سيرزق بمولود... وفكرت في هذه الخطة بقصد نسبتها على أنها توأم الرضيع الذي سيرزقه الله إياه... ولكن شاءت الأقدار أن يفقد أحمد هذا الرضيع قبل أسبوع ولذا فإن الطفلة ستنسب إلى هذه العائلة ومن ثَمَّ ستكون جزائرية، لن يفكر محمود بالبحث عنها هنا... ما عليك سوى إبقاء قدومك إلى هنا سرا، أخبريهم بأنني هربت وتركتك وحيدة مما عرضك لحادث تسبب في إجهاض الطفلة...

- الجميع هناك يعلم شدة وفاءك لحسن... لن يصدقوا ...
- سيصدقوا... ولو صعب عليهم ذلك... وأنا سأجد طريقة أنقل بها جميع أخبار الطفلة إليك.

قال يوسف تلك الكلمات باللهجة الجزائرية في حزن ليؤكد جديته حين اتخذ القرار، وهنا حضنت نجمة ابنتها بقوة، فلا أصعب من شعور أم يجبرها القدر على التخلي عن فلذة كبد لتنقذ أخرى، فإما أن تبقى مع نيفين وإما أن تعود لتنقذ رضا... لذا خاطبت الصغيرة باكية.

- يبدو أنك ستعيشين بعيدة عني يا غاليتي... ستكبرين بأرض طيبة وسيمنحك أهلها الأمان، أمان لن يكون له وجود في قصر أبيك، لأن ذلك القصر قد بني على الظلم... وأنت لن تكوني آخر ضحايا تلك العادات الدموية... سينتهي هذا الكابوس في يوم ما فسامحينا... سامحي حسن لأن فراقك لن يكون بالأمر الهين عليه أيضا...

رفعت نجمة بصرها إلى يوسف سائلة.

- ماذا ستفعل يا يوسف؟
- سأعمل على تغيير هيأتي وسأكون جزائريا ...سأجد اسما ما أكمل به مسيرتي، فلا أحد يجب أن يعرف خبر عودتي إلى الوطن من الجيران تجنبا لأيّ طارئ.

انطلق بكاء الطفلة لتهدأ بمجرد أن ضمتها نجمة إلى صدرها، جعلت الأم توجه كلامها إلى سي أحمد وفاطمة بحرقة الفراق والشوق.

- **أخي أحمد... سيدتي الطيبة إذا عرفت نيفين بالحقيقة يوما ما فأخبراها أن كل دقيقة عشتها وسأعيشها من دونها ستكون كالجحيم وأن الله قادر على أن يصلح أمورنا حينما يأتي الوقت المناسب... علماها أن تقف مع الحق مهما حدث... فأخشى أن تلهث خلف دموع المظلومين فتقع في الفخ الذي وقع فيه والدها بسبب غروره.**

في المحل جفت دموع دنيا لتترك آثارا على مقلتيها، أخذت تدقق في وجه سمير ثم سألته بريبة.

- وأي شكل يختبئ تحت قناعك يا ترى؟

دون تردد نزع العم سمير لحيته الضخمة المضافة مع حاجبيه الثخينين، مسح شامة مزيفة أسفل عينه اليسرى أمام صدمة دنيا، رهف وحتى هيثم الذي وجّه خطابه إلى دنيا.

- يبدو أنك كنت هدية لأمي بعد موت رضيعتها، ولذلك فلا أحد يعرف أنك لست من عائلتنا... بل هم يظنون وكما أخبرهم والدي أنه تم خلط الرضع في المستشفى، أخبرتهم أمي أن الرضيعة التي قيل أنها ماتت لا تزال حية، وبالفعل انطلت عليهم الخدعة وعشت بيننا كأن شيئا لم يحدث.

هوت دمعة سي أحمد وقال.

- ذلك كان أمام الجيران والحقيقة يا ابنتي أنني أمام القانون مجرد كفيل لك... وكل هذه السنوات كنت أبذل جهدي لإبقاء وثائقك التي تؤكد قولي بعيدا عن فضولك .. حتى أنني وخوفا من فقدك جمعتها بملف تركته عند يوسف حتى لا يصل ليديك...

استدارت دنيا إلى زاوية المحل دامعة وخاطبت العم سمير باحتقار عصرته بقوة على كلماتها ومعانيها.

- حقا أنت لست بسهل... طوال هذه المدة لم تتصرف تصرفا واحدة يؤدي بنا للشك في هويتك، ولا في شكلك... حتى لهجتك لم توحي لنا أنك قدمت إلى الجزائر بعد سن بعيدة.

آلم رضا احتقار دنيا للعم سمير، لذا ودون أن يشعر خاطبها مدافعا.

- تصرُّف العم يوسف كان السبب في إعادة الأوضاع كما كانت عليه بين أهل العشيرة، على الأقل دون أن يموت أحد من عائلتنا... كان مصدرا لارتياحنا ولم يقصر في نقل كل ما حدث معك إلينا... فكنا ننتظر اتصالاته بفارغ الصبر ليخفف علينا الشعور بغربتك وعيشك بعيدة عنا.
- لم أحس يوما بالغربة بين أهلي... لا أنكر أن تعلقي بفلسطين بهذا القدر كان غريبا ولطالما أثار أسئلة في

ذهني، لكن الجزائر لم تقصر معي في أي شيء وفلسطين ليست إلا ماضي لم يتسن لي العيش في أحضانه ومستقبل مجهول المدى بالنسبة إليّ.

تنهد رضا مردفا.

- في الفترة التي غابت فيها أمي عن المنزل لم أتوقف عن البكاء... اعتقدت أنني لن أراها ثانية، صحيح أن العم يوسف وأبي منعاها من أخذي وخدعاها لكنها لم تكن لتتركني لولا مرضي الذي افتعله الاثنان في تلك الفترة التي كانت تخطط فيها للسفر إلى الجزائر.. كما أنها أجّلت رحلتها مرتين من أجلي ولكن عندما يئست لعلمها بطول الطريق ومشقته سافرت مع العم إلى الأردن ثم إلى الجزائر... بعد أيام من رحيلها فوجئت بيديها تلتفان حولي بحب لم أعهده من غيرها.

عادت أسهم الماضي مجددا لتجذب رضا بدموعه الندية لذلك اليوم الذي فاقت مصيبته مصيبة اليوم الذي أطلق فيه حسن النار على ابنة محمود، منذ انتشار خبر هرب نجمة الحامل مع يوسف فرض حصار بقيادة محمود على قصر حسن، لم يستطع أحد الخروج من القصر أو الدخول إليه إلا تحت رقابة صارمة من رجال محمود، وبينما التصق رضا بأحضان والدته باكيا.

- **لقد اشتقت إليك كثيرا يا أمي، ظننت أنك لن تعودي ثانية؟**

- وأنا أيضا... لو لم تكن هنا لما عدت مجددا، توقف عن البكاء فلن أتركك ثانية يا صغيري.

انقطعت أنفاس نجمة ورضا لما انطلق صوت من الخلف يخاطبها فوقفت تستمع إلى صراخ زوجها المفتعل.

- آه يا نجمة، لقد دمرت سمعتي بهربك رغم تحذيري... أين كنت؟

استدارت نجمة بهدوء وإذ بحسن يقف أمام الآغا الكبير والآغا محمود مع مجموعة من رجاله، سحبت رضا إليها بقوة ونظرت متحدية كلمات الآغا الكبير الهادئة حين كلم زوجها.

- يكفي يا آغا حسن... فالمهم أن حرمتك قد عادت بخير... والأجدر أن تسألها عن الرضيعة حتى نوقف سفك الدماء المرتقب.

صرخ محمود في نجمة متقدما خطوات عن حسن والآغا الكبير.

- لقد صبرت كثيرا يا سيدة، لذا أخبريني أين هي الطفلة؟ لن أهدأ قبل الأخذ بثأري... لذا أنصحك بإظهارها.

أمسك الآغا الكبير ذراع محمود وخاطب نجمة بحزم جلي.

- عهدناك امرأة تميل إلى الحق ونصرته يا سيدة نجمة... ونقدر مشاعر الأمومة التي دفعتك للهرب، ولكن عودتك دليل على أنك أعدت التفكير في قيمة التقاليد والقوانين هنا... فأين هي الصغيرة؟

ابتسمت نجمة مستفزة هدوء الآغا الكبير وردت متحدية بدموع تندفع من عينيها قهرا.

- **أين الحق فيما قررتم؟ صغيرتي انتحرت قبل موعد الإعدام الذي قررته يا محمود.**

نظر محمود بمقت إلى حسن، فتظاهر باستيائه من تصرف نجمة وصرخ محمر الوجه.

- **لكن لماذا فعلت ذلك يا نجمة؟ ما الذي كسبته من وراء عنادك؟... إن لم تستطيعي إنقاذ الطفلة فلماذا ضحيت بسمعتي؟**
- **على الأقل حاولت الدفاع عنها وأديت وظيفتي كأم... حتى تابعك الوفي اختفى ورحل عند أول فرصة، بسببه تعرضت لحادث فأجهضت ابنتي التي بقيت حرقة في قلبي... لقد فرقتموها عني... هل ارتحتم الآن؟**

راح محمود يهز رأسه غير مصدق كلمات نجمة ووجه مسدسه ليطلق النار على رضا دون تردد، لكن اصطدم الجميع بها تتصدى للرصاصة في ظهرها دون أي خوف، فعلت ذلك كأنها استقرأت ما دار بذهن محمود حينها، انغمس الصغير بين دماء والدته ودموع عينيه صارخا، ولما استعد محمود لاستهدافه ثانية، قفز حسن بحركة واحدة أمام سلاح محمود وجهز زناده هو الآخر إلى رأس عدوه صارخا.

- لقد تجاوزت حدودك يا محمود، ولن أسامحك على فعلتك... لن أسامحك إن فقدت نجمة.
- أتستهزئان بي؟... من المستحيل أن يخونك تابعك... سأقتل الجميع يا حسن، ولن أتوقف عند هذا الحد بل سأقتل ابنتك ولو ظهرت بعد قرن... سأذيقك من نفس الكأس.

كان لهيب الغضب يرسل شرارات مظلمة بين الطرفين، وكل إصبع مستعد للضغط على الزناد في أي لحظة، وبينما هما كذلك إذ أمسك الآغا الكبير بسلاحيهما وأنزلهما بقوة ثم قذفهما بعيدا ليقول غضبا.

- توقف يا محمود وأنت أيضا يا حسن، ألهذه الدرجة لم يعد لوجودي قيمة هنا؟ مهما كان السبب فإنني سأقطع اليد التي ستدمر سكينة المنطقة...
- لن أذهب إلى أيّ مكان، لم أقتل ابنته متعمدا ولكنه أطلق على زوجتي من دون أي ذنب... لن أتفق معه ثانية... وإن اقترب من ابني... أحرق سلالة أبو دياك ابتداء من حضرته.

دموع حسن حين حديثه امتزجت بغضب بركانيّ، لذا خاطبه الآغا الكبير ساحبا محمود.

- حسن... ألقاك بالقصر بعد ساعتين من الآن، أسعف زوجتك... فقد تستطيع إنقاذها... لا تجبرني على

إرسال الرجال لإحضارك لأنك ستعمق من خسارتك أكثر... ولا نريد إقحام رجال الشرطة في الموضوع...

بين أركان الدكان الصغير نزلت دموع رضا بغزارة، بينما ظلت دنيا تستمع باهتمام، وتكون كاذبة لو قالت أنها لم ترأف لحاله، استدارت إلى النافذة بسرعة علها بإدارة وجهها تخفي تلك الدمعة الهادئة التي نزلت لتترجم المشاعر المؤلمة التي في قلبها، أما رضا فاسترسلت كلماته في تلك الأثناء ليصدمها بخبر لم تتوقعه مما جعلها تمسك صدرها وقد جحظت عيناها ألما.

- ذلك اليوم كان آخر يوم رأيت فيه أمي تمشي على قدميها... لقد كان آخر يوم سمعت فيه أمي تتكلم بطلاقتها المعتادة، لأن الرصاصة التي أصابتها استهدفت العمود الفقري... ومع ارتفاع ضغطها المفاجئ... أكد لنا الطاقم الطبي إصابتها بالشلل، لقد ضحت بنفسها لتنقذ حياتي ولكن الموت كان أهون علي من رؤيتها كالجماد ما بقي من عمرها... أمي روح نام جسدها يا نيفين، وبعد تلك الحادثة نقلت والدتي لمستشفى خاص تعود ملكيته للآغا الكبير، أما أبي فاضطر للذهاب للاجتماع بعد ساعتين تجنبا لمشكلات أكبر، واتفقوا على أنه في حال تأكدهم بأن قصة موتك مجرد حيلة للتهرب من الاتفاقية فإن...

سحب رضا نفسا ونظر إلى حيث تقف دنيا مردفا.

- فإن الآغا محمود سيقتلك وسيختار شخصين آخرين من العائلة ليلحقهما بك... اضطر أبي للموافقة ليؤكد لهم قصة موتك، ليتوقفوا عن النبش خلفك وبالفعل نجحنا في ذلك وبقي سر انتقال يوسف برفقتك إلى الجزائر في حلق أمي حتى هذا اليوم، أو هذا ما ظنناه وأراحنا لأكثر من سنتين... فبعد هذه الفترة اكتشفوا أن ليوسف صديقا جزائريا والأدهى من ذلك أنهم عرفوا أن والدته جزائرية من مصدر مجهول... ففتحت القضية من جديد وأرسل اليد اليمنى للآغا الكبير وبسام الرجل الذي يثق به محمود إلى الجزائر، كثفا البحث بين شوارع العاصمة إلى أن وصلا لهذا الشارع بعد أكثر من شهرين من البحث...

قاطعته رهف سائلة في حيرة.

- ما الذي تقوله؟ وماذا حدث في ذلك اليوم؟

تنهد سي أحمد ونظر إلى انعكاس وجه ابنته المتحسر عبر الزجاج، ثم رد على رهف.

- ليس هذا الشارع يا رهف، فقد اضطررنا للانتقال دون إعلام أي شخص... وذلك منذ وصول أولئك الأشخاص لحينا القديم، لم نبتعد كثيرا عنه لأننا توقعنا أنهم إن أعادوا البحث فلن يبحثوا قريبا منه.

نظر هيثم إلى العم سمير وسأل محاولا استرجاع بعض الذكريات.

- وكيف عرفا العم سمير مع هذا التنكر؟ لأنني أتذكر قليلا من تلك الأحداث، ولكن والداي لم يخبراني حينها بالسبب الرئيسي.
- هما لم يتعرفا علي أنا يا هيثم بل تعرفا على أحمد، كانت لديهما صورة قديمة له عندما كان معي بجبال غزة بفلسطين، وإلى اليوم يشغلني سبب وجود تلك الصورة بحوزتهما.

بدأ العم سمير وسي أحمد يفكان الغموض على الأولاد باسترجاع الذكريات مجددا، فبينما كان العم سمير يحتسي الشاي مع أحد الجيران القدامى لسي أحمد قرب الدكان، ودنيا تلعب وعمرها لم يتجاوز حينها الثلاث سنوات، إذ وصل رجلان إلى الشارع، رؤيتهما جعلت العم سمير يقف مذهولا مرتعد الأوصال، كان بسام اليد اليمنى لمحمود ينظر تارة بحقد بينما تخلط ملامحه بالمكر والخبث تارة أخرى ليتبين أنه من أخبر سيده والآغا الكبير عن احتمال وجود يوسف بالجزائر، كان يدرك العلاقة الوثيقة بينه وسي أحمد الجزائري، مع كل خطوة يجر فيها بسام قدمه المصابة مستندا على الأخرى، كان العم سمير يتذكر كيف أطلق عليه النار في ذلك اليوم، ويبدو أن أثر الإصابة جعلت مشية بسام تتثاقل، لأن

الرصاصة أصابته بعجز في قدمه اليسرى حيث استقرت، حين لاحظ الجار تغير ملامح العم سمير خاطبه مستفسرا.

- ما الذي حدث لك؟ لماذا انتفضت واقفا وكأنك رأيت شبحا؟

أمسك العم سمير يد دنيا التي كانت تلعب قربه وردّ بارتباك.

- لا شيء... أصغي إليّ يا دنيا اذهبي إلى المنزل... هيا بسرعة.
- ماذا هناك يا رجل؟

قبل أن تتحرك دنيا خطوة واحدة وصل الرجلان إليهما فاضطر العم سمير للسكوت كي لا يشك الجار أكثر وخاطبهما خادم الآغا الكبير الذي بدت على ملامحه الجدية والاتزان.

- حياكم الله يا سادة.

رد الجار بكل احترام واقترب منهما أكثر.

- أهلا بكما... كيف يمكننا مساعدتكما؟
- نحن نبحث عن صديق والدنا الذي افترق عنه منذ سنوات ونريد لم شملهما قبل موته... فهلا ساعدتمانا؟

قدم الرجل التابع للآغا الكبير إليهما صورة لسمير أو لنقل ليوسف من دون تنكر فبدأ الجار يدقق في ملامحه، بينما شرد

العم سمير بأنظاره إلى دنيا التي بقيت تلعب قرب الباب وعندما طال سكوت الجار ضاقت نظرة بسام وسأل.

- ما الأمر؟ هل تعرفه؟
- وجهه مألوف لديْ ولكنني لا أتذكر بالتحديد أين رأيته... ربما هو مجرد شبه... يا ليتني أتمكن من مساعدتكما إذ يبدو أنكما من أصحاب الخير.
- لكن حاول ثانية... فقد تتذكره لأننا بحاجة إلى هذا الرجل... اسمه يوسف السليمي.

زاد ارتباك العم سمير فحاول قطع النقاش مخاطبا مساعد الآغا الكبير.

- ربما هو مجرد شبه يا سيدي.... آسف لأنه لا يمكننا تذكر ما تريد.
- حسنا... نعتذر عن الإزعاج... لكن سنترك عندكما رقم الهاتف في حالة تذكره أو الالتقاء به.

عندما استدار مرافق الآغا الكبير راحلا اقتربت منه دنيا وأمسكت بطرف سرواله ضاحكة الوجه ويدها ممتلئة بالطين، أرسل الرجل إليها نظرة رصينة ثابتة بينما تقدم العم سمير مسرعا وسحبها.

- دنيا تعالي إلى هنا يا صغيرتي... أعتذر منك يا سيدي.
- لم كل هذا الخوف يا أستاذ؟ هل هي ابنتك؟
- لا... ابنة جاري الصغيرة ولكنها مشاكسة قليلا.

- جيد... اعتني بها، أما الآن نستأذن منكما.
- وفقكم الله... مع السلامة.

لما ابتعد بسام ومن كان معه قعد العم سمير على الكرسي مرتاحا، لكن ارتبكت أنفاسه حين رأى بسام يقترب منهما مجددا، ليظهر صورة أخرى قديمة، وكانت دهشة العم سمير كبيرة عندما رآها، فقد تذكر لحظة التقاطها مع سي أحمد في جبال غزة، وعلى الرغم من مرور السنين فإن الجار تعرف على أحمد باعتباره جاره منذ سنوات أطول، ثم تذكر صديقه القديم الذي قدم معه بعد عودته من الأراضي الفلسطينية وأجاب بسام بالخبر الذي كان يتوق لسماعه، ضغط العم سمير بقبضته على يد دنيا منصتا بارتباك.

- أظن أنه السي أحمد عندما كان شابا فهذه وقفته بكل تأكيد، كما أنني تذكرت الرجل الطيب الذي قدم مع أحمد بعد عودته من الحرب الفلسطينية... ولكن انقطعت أخباره منذ مدة طويلة أظن أن اسمه يوسف... كيف لي أن أنسى رجلا بتلك الشهامة؟

ابتسم بسام ابتسامة العطشان الذي ارتوى بعد سنوات من التيه في الصحراء ورد مبتهجا بلهف.

- أجل، هما... وأين يسكن أحمد؟ دلنا لو سمحت.

لم ينتظر العم سمير أي حركة من بسام بل مدّ يده وسحب عصا من جوف دكانته بينما أشار الجار إلى منزل سي أحمد،

عندها عاد بسام بسرعة ليخبر رفيقه أنه وجد منزل صديق يوسف، ولكن غايته لم تكن مساعدة سيده على الانتقام بقدر تصفية حسابات قديمة معهما، وما إن سحبا سلاحيهما وهما يرمقان منزل سي أحمد بنظرات ترصّد حتى تقدم العم سمير بسرعة حاملا بيد دنيا وبيده الأخرى عصاه، بدأ الجار يشعر بالريبة فلحق العم سمير مستفسرا وقد كان الأخير يطرق الباب بقوة مخاطبا فاطمة بعدما دس دنيا في حضنها.

- لا تسمحي لها بالخروج... واتصلي بأحمد... أخبريه بأن يحضر حالا.
- ما الذي يحدث هنا؟
- اتصلي بالشرطة يا سيدة بن زيان... سيكون كل شيء بخير، لا تقلقي.

كان العم سمير والجار واقفان بين بسام وباب سي أحمد لذا فوجئ تابع الآغا الكبير وسأل بحدة.

- ما سبب حملك للعصا يا رجل؟

ضغط العم سمير على العصا وصرخ فيهما فيما ظل بسام يحدج الباب بنظرة خبث.

- ولماذا تحملان مسدسات إذا؟
- نعم... سمير على حق لقد قلتما أنكما تبحثان عن صديق أبيكما، ومن يبحث عن الصديق لا يحمل بيده سلاحا.

رد مساعد الآغا الكبير على تساؤلات العم سمير والجار القلقة بنبرة هادئة في محاولة لإقناعهما بالتراجع.

- لا نريد أذيته يا سادة... ولكننا سنسأله عن رفيق والدنا... لذلك نادوه ليخرج ولن يحصل شر إن تجاوب معنا.
- هو ليس بالمنزل.

وبجرأة تقدم بسام من الباب مكذبا الجار فخاطبهما ببرودة استفزت العم سمير.

- إذا سنفتش البيت... ابتعدا عن الطريق.
- أخطأت يا سيد، لا تملكان حق تفتيشه ولن يقترب أي شخص من المنزل مهما حدث.

كان خطاب سمير الأخير لبسام حادّا وهو يحرّك العصا بيديه، فغضب بسام ورفع سلاحه مهددا.

- لا تجبرني على إطلاق النار عليك يا سيد، انسحب من الموضوع لأنه لا يعنيك... وأنت أيضا ابتعد من هنا.

بينما بسام يلوّح بسلاحه خاطب سمير نفسه.

- أنا الذي ورطت أحمد ورميت بعائلته وسط الخطر... لن أسمح لك بالتقدم يا بسام ولو اضطررت لقطع قدمك هذه المرة.

رفع العم عصاه في وجه بسام فتوقف مجبرا ثم صرخ فيه.

- لقد اتصلت بالشرطة ولن تسلم إن اقتربت أكثر.

مع إصرار العم سمير اقترب الرجل التابع للآغا الكبير وسحب بسام هامسا.

- دعنا نذهب... يبدو أن رجال الحي لن يفسحوا لنا المجال للتحرك بحرية... سنعود في وقت لاحق.
- لن أذهب قبل إجباره على الاعتراف بكل شيء... بالتأكيد هو يعلم مكان يوسف والطفلة ...
- تذكر أننا خارج منطقتنا... لا سلطان لنا على أهل هذا الحي... واقتحامنا المنزل في وضح النهار سيوقعنا في مشكلة.

سحب مرافق الآغا الكبير بسام عنوة إلى السيارة وقبل انطلاقهما وصلت سيارة سي أحمد، رغم تلاعب تلك السنوات الفائتة بكثير من ملامح الأخير إلا أن بسام عرفه بمجرد أن التفت إليه، تذكر كوخا يحترق وصرخات تتعالى، ومع ذلك الحريق التهبت نظراته فنزل وركض متثاقلا، قطع طريق سي أحمد حاملا سلاحه فاضطرّ للتوقف رافعا يديه، وسأل مرتبكا.

- ما الأمر؟ من تكون؟ وما الذي تريده مني؟
- بالتأكيد ستعرف من أكون يا أحمد؟

عندما سمع سي أحمد اللهجة الفلسطينية ارتبك أكثر وراح يبحث عن العم سمير، بينما اقترب منه بسام متثاقل

الخطوات، حاول سمير والجار التحرك لكن رفيق بسام وجه سلاحه إليهما فتوقفا مرغمين وإذ ببسام يصرخ متجاهلا تجمع رجال الحي وشبابه حوله.

- لا تتحركوا، وإلا سأحرقكم معه... لأن وقت تصفية الحساب قد أعلن أخيرا أيها المخطط الذكي.

في غفلة لم تتجاوز الثانية رفع العم سمير عصاه وضرب ذراع تابع الآغا الكبير حتى أسقط مسدسه فأسرع سمير يلتقطه، ثم وجهه إلى رأس المرافق المتمدد على الأرض ممسكا ذراعه.

- بل أنت الذي ستحترق إن لم تفلت سي أحمد... سأفجر رأس رفيقك إن لم تبتعد من هنا.

استهدف سمير المرافق متعمدا لعلمه بمكانته بين أهل العشيرة، من المفترض أن عودة بسام من دونه ستضعه أمام الموت الحتمي بالنسبة إلى الآغا الكبير، لكنه لم يتوقع تجاهل بسام له ولهفته المحيطة بسي أحمد دون غيره وهو يهدد.

- لن يمنعني أحد من أخذك يا أحمد... سينتهي كل شيء... أما أنتم فعودوا إلى منازلكم فورا ...

زاد توتر مرافق الآغا الكبير فكلم بسام متسارعا.

- بسام... ستوقعنا بمشكلات كثيرة بهذه التصرفات...

من جانب آخر تراجع شباب ورجال الحي، خشي سي أحمد على عائلته ورفيقه لذا خضع لتهديد بسام وتقدم معه نحو السيارة، تأكد حينها أنهما يبحثان عن يوسف ودنيا فحاول حمايتهما مضحيا بنفسه، وفي تلك اللحظة صرخ أحد الرجال من الخلف.

- **المصيبة ستقع على رأسيكما إن لم تخرجا من الحي.**
- **أترك سي أحمد... وإلا كسرنا عظامك.**

بعد لحظات عاد أولئك الرجال حاملين عصيا، مجموعة من السكاكين وبندقيات صيد لإخافة بسام، أرخى سمير سلاحه مبتسما عند وصول الشرطة مما جعل مرافق الآغا الكبير يركض محاولا الهرب، أما بسام فبقي يسحب سي أحمد بإصرار، لكن فات الأوان لأن رجال الشرطة طوقوا السيارة وتدخلوا ملقين القبض عليهما.

في الدكان سكت سمير، بدأ جبينه يتعرق مستمعا إلى سؤال هيثم بتعب جليّ.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

بعدما رأى سي أحمد أن تلك الذكريات وكثرة الكلام أنهكت العم سمير أجاب عنه.

- لقد أنقذني يوسف ورجال الحيّ يومها، ولما حققت الشرطة مع ذلك المدعو بسام لم يعترف بشيء، بل قال أن له عداوة معي لم أعرف سببها... أظن أنه حاول إخفاء

السبب الرئيسي وهو البحث عن يوسف ودنيا، وأنا أيضا لم أستطع مواجهته حماية لعائلتي ولصديقي، ظلا في السجون الجزائرية لأكثر من أربع سنوات... خلال تلك الفترة انتقلنا من المنزل في الخفاء ولم نعلم أهل ذلك الحي، ثم أطلق سراحهما بعدما منعا من الدخول إلى الجزائر... علمنا فيما بعد أنهم أرسلوا رجالا غيرهما لكنهم لم ينجحوا في الوصول إلى العنوان الجديد وطويت تلك الصفحة يا بني إلى أن علمت بحضور هذا الشاب.

تنهد رضا وأضاف.

- عجز أولئك الرجال عن إيجاد العنوان متوقع، لم يعرفوا من أين تبدأ عملية البحث لأن مساحة الجزائر كبيرة... كما أنهم ليسوا بالخبرة التي عرف بها مساعد الآغا الكبير ولا بدهاء بسام وخبثه... ولهذا اجتمع الآغا الكبير مع الجميع ليعلن إيقاف عمليات البحث... إلى حين ظهور أي دليل آخر.

مع تلك الكلمات استدارت دنيا ونظرت مباشرة إليه وقالت ساخرة.

- ما فهمته من كلامك أن ظهوري سيحي الخطر من جديد، فلماذا جئت؟ لا تقل لي بأن المدعو محمود قد صفح عنكم.

- لا لم يصفح... ولكن والدتنا أصيبت بالسرطان وحسب تقرير الطبيب فإنها تعدّ أيامها الأخيرة... لذلك قررت تحقيق حلمها برؤيتك ولو مرة واحدة قبل موتها... هذا الحلم الذي يدفعها لمقاومة الآلام والبقاء حية حتى اليوم، أنا لم أستطع حمايتها من الرصاصة قبل سنوات، وأدرك أنني لن أتمكن من إبعاد الموت عنها لكنك أملي يا أختاه، لقد ضحت نجمتنا بالكثير... لذا رؤيتها لك ستنسيها كل الأوجاع التي لاقتها في غيابك.

انفجرت دنيا محمرة الوجه وهي تقول مصممة.

- مستحيل... كيف لي بهجر الجزائر وقد تربعت على عرش المشاعر داخل نجواي... لن أعيش بعيدة عن أهلي وصديقاتي... أعتذر منك لأنك ستعود خائبا يا رضا، فأنتم رسمتم أولى خطوات حياتي هنا ولن تكون النهاية في غيره مكانا.
- القدر من رسم هذه البداءة... ولولاه ما كنا قادرين على إنزال دمعة واحدة من عينيك... أنفاسنا لم تعرف مكانا غير قلبك أثناء غيابك... لقد كبُر عليَّ أن أؤخر لقاءها المنتظر بك لأجَل أبعد ...

عندها وقفت رهف وصرخت في وجهه ممسكة ذراع دنيا ودموعها تنهمر دونما توقف.

- حتى إذا قبلت دنيا فنحن لن نتركها... وخصوصا أن الموت يحوم بها من كل ناحية.

- لم يعد الموت مشكلة بالنسبة إليّ بعد الذي سمعته يا رهف، ولكن أن أكون سببا في موت غيري فهذا ما لن أستطيع احتماله أو السماح به، ففي أي لحظة عرف أولئك الأشخاص أنني عدت من جديد سيموت شخصان... لا ...لا يمكن أن أسمح بهذا.

وقف رضا وأمسك كتفيها مؤكدا في توسل.

- لن يتمكن الآغا محمود من معرفة ذلك يا حبيبتي وقد جهزت كل شيء لأخفي أي شك قد يدور حولك... أنظري... إني في الجزائر ولم يعرف أحد بالأمر لأنني استخدمت جوازا تحت اسم آخر ولي صديق يساعدني لأتجاوز الرقابة وإنقاذي من الانكشاف، هذه ليست أول مرة أزور فيها الجزائر.. كما أن الآغا الكبير رجل عادل ومؤمن ببراءة والدنا من القتل المتعمد... هو يعرف خصال الآغا حسن أكثر من الجميع لولا قيد العادات التي يترأس كل اجتماعاتها... أرجوك يا نيفين.

أفلتت دنيا كتفيها وصرخت.

- اسمي دنيا فتوقف عن مناداتي بهذا الاسم...

ابتلع رضا ريقه في استياء ثم استقام وقال.

- افعلي ذلك من أجلها... لا تحرمي نجمتنا هذه اللحظة.

سكتت هنيهة ونزلت دمعتها لتقول في عناد.

- قلت لك لا... والموضوع انتهى يا رضا... دعينا نذهب يا رهف.

لما تجاوزت دنيا باب منزل سي أحمد مع رهف لحقها مناديا بألم..

- إلى أين ستذهبين؟... أمك ستموت إن لم تعودي معنا ...

خطأ جعل هذه الزهرة تعيش حياة فندت حقائقها بكلمات معدودة، حياة عاشتها بسبب ماضي جائر تحكمت به قلوب قاسية وقرارات مجردة من المشاعر تحت ما يسمى بالانتقام، صحيح أن حسن سفك دم محمود لكن لم يكن يعلم، وعلى الرغم من ذلك فإن الذنب كتب عليه، دفع الثمن دجيات أمل انطفأت بالنسبة إلى دنياه، عرفت دنيا أنه قد حفر لها قبر قبل رؤية نسائم الحياة ولكن بفضل الله ثم تلك الأم المضحية جُعل القبر أجوفا، نعم فالماضي مرّ وبطعم الحنظل ولكن بأي طعم سنصف الحاضر؟ وهل يوجد أمرّ من الحنظل طعما؟ بدأ نسيج الكذبات منذ سنوات، فهل سينتهي عند هذا الحدّ؟ أم أن هناك المزيد؟ وما هو الدور الذي ستلعبه نيفين في حياة دنيا؟ لقد قالت دنيا لرضا

" لقد رسمتم حياتي بين ربوع الجزائر ولا بد لها أن تنتهي هنا "

فهل سيحدث ذلك حقا؟ أم أنه لا بد لها من لعب شوط في مكان آخر؟ وربما سيكون لنور كلمات قد تمنحنا تتمّة أخرى.

الفصل التاسع: السكوت الظالم** الذنب الدفين.

لم تستطع دنيا الالتفات إلى كلمات سي أحمد رغم رغبتها الشديدة، فالألم أصبح أثقل على كتفيها، لم تعرف كيف تتصرف في قلب ذلك الحصار الذي قذفت إليه، كانت تريد التهرب منهم، ما إن اتخذت سبيلها حتى أطلت أسماء من المنزل مستوقفة هروبها بندائها المتذمر.

- أنت هنا... أنا أبحث عنك يا أختي... أمي قلقة عليك أشد القلق.

لم تع أسماء من كل تلك الحقائق، غير حقيقة تتلخص في كلمة واحدة هي أختي، هذا ما أكدته خطواتها وهي تركض إليها ممسكة يدها مما جعل رضا يشد على قبضته وهو يراقب منظرا جعله يشعر حقا بصعوبة مهمته، جثمت دنيا مكانها دون أي حركة، تقاوم محاولات أسماء في جرها إلى المنزل، مما جعل رهف تتدخل مخاطبة سي أحمد بأسى.

- لا بأس يا عمي دعها تبقى عندي الليلة... سترتاح وتعود إليكم بأفضل حال، أنت أعلم منا بتصرفاتها في مثل هذه المواقف.
- أبي إلى أين ستذهب دنيا؟

- أنا أحتاجها من أجل المراجعة للامتحانات يا أسومة وستبيت الليلة عندي.
- وأنا سأذهب معكما يا رهف... أبي لن يرفض ذلك.

نظرت رهف إلى سي أحمد، ثم رسمت ابتسامة مرتعشة وأمسكت أنامل أسماء الصغيرة في محاولة لسحب يدها من يد دنيا لكن دون جدوى وقالت.

- ألن تسمحِي لي باستعارتها ليلة واحدة يا أسماء؟ وأنا أعدك أنها ستعود عندما ننتهى من المراجعة.

نظرت أسماء إلى دنيا فوجدتها شاردة كئيبة، لذا أطرقت رأسها مستوعبة أن خطبا ما بقلب أختها، فأرخت يدها مستسلمة لتخاطبها بحروفها المتثاقلة.

- حسنا يا دنيا يمكنك المكوث الليلة، فلا داعي للبكاء... ولكنني لن أسمح لك بالابتعاد عني ثانية.

وبمجرد أن حررت يدها حتى رمت نظرة سريعة في وجه أسماء وانطلقت مبتعدة، نعم... رغم مكابرتها إلا أن وجه أسماء لا يمكن لها أن تعصب عينيها مدعية عدم رؤيته، حروفها البريئة جعلتها تصر على الهرب أكثر وأكثر، نبضات أتعبتها دموع تعمدت حبسها ولو لدقائق انتهى مؤقتها، تركت رهف أسماء ولحقت بها ولكن قبل ابتعادها عن الشارع لحق بهما رضا موصيا.

- لو سمحت يا رهف، لا تتركيها بمفردها... ولا تأمني صمتها.

لم ترد رهف عليه وأكملت دربها وقد بدا عليها القلق الشديد لتحاكي نفسها في توتر واضطراب أثناء سيرها خلف دنيا.

- يا إلهي ستكتشف دنيا سري الذي أخفيته عنها طوال هذه الفترة .. يا ويلي إن عرفت المعاناة التي أمر بها... لقد تأخر الوقت وبالتأكيد لن أجد استقبالا هادئا منها.

من جانب آخر ركضت فاطمة تفتح الباب مرتعشة، كيف لا وقد تجاوزت الساعة الثامنة مساءً ولم تعد دنيا بعد، لما رأت سي أحمد وهيثم مع أسماء جعلت تقول متسارعة الأحرف.

- ها قد وصلت يا رجل لماذا لا ترد على اتصالاتي؟ لم تعد دنيا حتى الساعة... أنا قلقة عليها.

لم يرد عليها سي أحمد وقعد على الكرسي بصمت فيما دخل هيثم ورمى بنفسه على الأريكة مضطربا، كانت أسماء تعلق معطفها عندما سمعتها تخاطب ابنها بحدة.

- ما هذه التصرفات؟ أخبرني يا ولد... أين هي أختك؟

أمسكت أسماء أنامل أمها بهدوء وتدخلت قائلة.

- لقد ذهبت... مع رهف لتبيت عندها... من أجل الامتحان، لكن لا ...تقلقي لقد... استأذنت مني... فلا تغضبي منها يا... أمي.

نظرت فاطمة حيث قعد سي أحمد وهيثم ثم حوّلت بصرها إلى أسماء مخاطبة.

- فهمت يا عزيزتي... والآن اذهبي إلى غرفتك وغيري ملابسك... سألحق بك بعد لحظات.

بعد أن انطلقت أسماء راكضة اقتربت فاطمة من ابنها مرتعشة، أمسكت يده عله يرأف بها ولا يكذب عليها ثم سألته دامعة.

- لماذا ذهبت دنيا إلى منزل صديقتها؟
- كما سمعت من أسماء، عندها مراجعة مع رهف يا أمي؟
- قد استطعت خداع أسماء ببراءتها، لكنك لن تفعل معي لأنني أعرفك جيدا، منذ متى تترك أختك تبيت في غير منزلها؟ حتى لو تعلق الأمر برهف وأمل... فأنت لم تسمح بذلك من قبل.

عندما علا صوتها غضب سي أحمد ورد مزمجرا.

- كفى أسئلة يا امرأة... لو سمحت.
- لن أتوقف قبل أن أسمع أجوبة تريح قلبي... أنا أمها ولا يمكنك إسكاتي يا أحمد.

صراخ فاطمة جعل أسماء تعود مفضلة استراق السمع خلف الباب، فعلى الرغم من صغرها فإن قلبها لم يطمئنها على ما يحدث لأختها، ليكلم حينها سي أحمد زوجته بعدما ضرب الطاولة بقبضته.

- ما الذي تريدين سماعه؟ ارتاحي... فقد كانت كل شكوكك في محلها... دنيا عرفت كل شيء... عن أصلها وعائلتها وكل الذي حدث في الماضي... شقيقها مصر على أخذها معه.
- مستحيل... كيف عرفـَت؟
- لا يهم كيف عرفـَت يا أمي لأن دنيا أدركت كل شيء ويبقى القرار قرارها، فإما أن تبقى وإما أن تختار الرحيل، لذا أغلقي الموضوع... فلم يعد بإمكاننا فعل شيء.

من غير وعي ابتسمت فاطمة بثقة وردت عليه وقد غالبته دموعه فمسحها بسرعة مطرقا رأسه.

- لا داعي للقلق يا بني، امسح دموعك لأن دنيا لن تتركنا ولن تفعل ذلك من أجل أسماء، فهي تدرك تعلق أختها بها وأما إن كان في قلبها غضب علينا فلن يكون باستطاعتها ترك أمل ورهف، وهذا شيء مستحيل بالنسبة إليها، فعلى الرغم من كل شيء فإنها ابنتي أيضا... لقد أرضعتها من ذات اللبن الذي شربتما منه وهذا يؤكد أنها أختكما مهما حاول الغير قطع علاقتها بنا.

- لا تخدعي نفسك يا فاطمة... والدتها تصارع الموت... وبالتأكيد ستختارها لأنها أكثر شخص ضحى بين أفراد تلك العائلة... طول السنوات جعلنا ننسى أنها أمانة وسنردها لأهلها يوما ما... لن نقف ضد أي قرار تتخذه... كما أنني لن أسمح لأي شخص بالتدخل...

بينما هو يتذكر رجاء سمير في الدكان عندما واجهه بالحقيقة دخلت أسماء وانفجرت فيهم صراخا وبكاءً بطريقة أفزعتهم.

- أبي... هل حقا دنيا... ليست أختي؟ لن أصدق... فهي لن تتركني... أليس كذلك يا أمي؟

ابتسمت فاطمة ثانية وسحبت أسماء من ذراعها إلى الهاتف الثابت محاولة استغلال العلاقة الطيبة بين الأختين.

- لن تتركك يا أسماء... لن تردك إن طلبت أنت منها البقاء، وستسمع منك... أنا متأكدة... خذي الهاتف وكلميها.

حملت فاطمة السماعة ولكن سي أحمد أمسكها قبل أسماء بغضب لم يسبق أن شاهدته فاطمة عليه من قبل، وسحب شريط الهاتف فتمزق أمام ذهول هيثم الذي وقف مسرعا.

- لن تفعلي ذلك يا امرأة، ولن أسمح لأحد بأن يؤثر في قرارها.
- لكن قد تتركنا... افهمني يا أحمد.

- لقد قلت ما عندي... وأرجو أن لا يحدث خلاف ذلك... لأنني عندها سأكون غير الذي ترين الآن يا فاطمة... إن اتخذتْ دنيا قرارا وأيّا كان فيجب أن تكون مقتنعة به.

أمسك هيثم والده محاولا تهدئته ثم خاطبه.

- يكفي يا أبي لا تتعب نفسك أكثر... دنيا عاقلة وستختار القرار الصائب، وكلنا ندرك هذا فيها... أرجوك فأسماء تراقبنا الآن.

مع تلك الكلمات انتبه سي أحمد لتصرفاته، ولدموع فاطمة فربت على كتف ابنه بألم وهوى على ركبتيه يزحف مسافة متر واحد حتى قعد إلى جانبها، لقد صعب عليه تحريك قدميه رغم قربها منه، ضمها بذراعه مهدئا.

- ... كوني قوية يا فاطمة... لقد كنا سنواجه هذا اليوم... عاجلا أم آجلا...

قرب باب منزل الصديقة وقفت دنيا ورهف وكانت الأخيرة مترددة في طرق الباب خوفا من ردة فعل رؤيا القاسية، ولما انتبهت لشرود صديقتها وصمتها المخيفين أمسكت ذراعها وقالت.

- اتفقنا على أنك أتيت إلى هنا من أجل المراجعة... خففي عقدة حاجبيك قليلا حتى لا نبعث الشك في قلب الخالة... ثم...

نوت رهف التلميح إلى دنيا بشيء من معاناتها عندما سمعت باب المنزل يفتح، فابتلعت ريقها بخوف... لكن... صوتا حنونا هادئا كلمها فاستدارت لترى وجه رؤيا المبتسم.

- أهلا حبيبتي رهف... لماذا تأخرت... لقد أقلقتنا عليك؟

كانت رهف جد مستغربة لحضن رؤيا المفاجئ، راحت تنصت إلى الكلمات الرقيقة ترسل بسخاء إلى دنيا الواقفة عند الباب.

- أرى أن معك صديقتك، أهلا يا دنيا... لماذا أنت واقفة عندك؟ اُدخلي... فالبيت بيتك.

عندما دخل الجميع المنزل رأت رهف والدها جالسا على الطاولة يدقق في مجموعة من الملفات والأوراق، إذ أنه لم يسافر كما أخبرها من أجل التحضير لرسالة الدكتوراه، أصيبت رهف حينها بفرح جنوني جعلها تركض إلى حضنه كأن نورا قد حل عليها وسط ظلام حالك، أدركت سبب الاستقبال الحافل الذي حظيت به وصديقتها أمام الباب من رؤيا، فقال والدها مستغربا.

- ما هذه السعادة يا زهرتي؟ هل تحاولين النصب علي... حتى أتناسى تأخرك حتى هذه الساعة... خيرا ما السبب يا ترى؟

- آسفة ولكننا كنا عند أمل في المستشفى، أجرت اليوم عملية خطيرة وانتظرنا علنا نراها تفتح عينيها ولكن لم نستطع مع الأسف... هل تعلم أن دنيا ستبيت عندنا الليلة من أجل الامتحانات...؟

التفت عمر مرحبا بدنيا التي لم تكن مدركة لكل ما يدور حولها.

- المنزل منزلها يا عزيزتي... رؤيا هلّا حضرت العشاء؟ بالتأكيد هما جائعتين ...
- شكرا يا عم عمر... لكنني حقا لست جائعة.

و هنا أجابتها رؤيا وقد وقفت مبتسمة.

- لا تقولي هذا الكلام يا دنيا اذهبي إلى غرفة رهف وارتاحي وعندما أنتهي سأناديكما.
- سآتي لأساعدك يا خالتي.
- لا داعي لذلك قد تحتاج صديقتك شيئا لذا رافقيها ريثما أكمل عملي يا رهف... لكن لا تبدآ المراجعة بمعدة فارغة... فهمتما؟

توجهت دنيا مع رهف إلى الغرفة المجاورة، كانت عينا رؤيا مثل البركان الذي على وشك الانفجار حمما، وبمجرد انفرادها بنفسها في المطبخ لطمت فخضها بغضب.

- ما الذي تفعله تلك البلهاء وصديقتها يا ترى؟ لا بأس... سنرى ماذا سيحدث؟ يأمرني بتحضير العشاء وكأنني خادمتهما... ابتسم لك الحظ اليوم يا رهف.

في منزل فخم غلت أفرشته ورسمت بأجمل الإبداعات الفنية بين كل زاوية وأخرى، كانت نور جالسة إلى جانب سريرها الوثير تتذكر ما حدث في الدكان مبتسمة.

- الآن أدركت من أين لك بتلك الهمجية وعرفت الحقيقة التي تخفينها عن الجميع خلف كلماتك المعسولة... لكنني سأعلمهم ولن يبقى طيّ الكتمان... بل سأجعلهم ينبذون سيرتك ويبتعدون عنك قدر المستطاع... ومهما كلفني الأمر... تعتقدين أن هذا الجرح سيخيفني ...

ثم حملت المرآة التي إلى جانبها وأردفت بحقد.

- لا... والله ما نجحت بهذه الخطوة... سأجعل كل قطرة دم نزلت منه تنهمر دمعا من عينيك أيتها المتوحشة... لقد كان بإمكاني إجراء العملية وإخفاء آثار هذا الجرح ولكنني لم أفعل رغم إلحاح أبي... مثلما وعدتِ رنا بجعلي أتذكر ما حدث ذلك اليوم فإن وجهي سيبقى لعنة تحرق روحك كلما رأيته... سأحفر هذا الجرح عميقا داخل قلبك .. ومهما كان الثمن... والآن إلى الخطة الثانية.

ألقت نور المرآة جانبا وأطلقت ضحكتها المسمومة متصلة بحميد لتبدأ خطتها الجديدة، وما إن فتح الخط حتى ردت مباشرة.

- غدا أريد هديّة... فانتبه في اختيارها.

كان حميد جالسا عند عتبة بيته يدخن سيجارته عندما ابتسم ورد بخبث.

- ولكن الهدية ستكون لمن نجح في عملٍ ما... فما هو إنجازك يا فتاة؟
- لم أنجز ولكنني غدا سأشرع في تنفيذه... وأريد هدية تشجيعية لأن هدية النجاح لن تكون سهلة عليك...
- أتقصدينها؟
- ومن غيرها؟... أجل... هي التي ستخرج من حياتنا قريبا بل من حياة ابنتك أيضا... فاطمئن.
- إذا كان الأمر كذلك... فلك مني الهدية الأثمن يا نور.

رمى حميد السيجارة وداس عليها، ثم دخل المنزل مبتهجا وقد تراقصت مشيته مع النغمات التي كان يدندن بها.

قعدت دنيا تبكي بصمت، مطلة ببصرها على زجاج النافذة المغلقة وإذ برهف تدنو منها حتى استقرت إلى جانبها وكلمتها بحنان.

- كفى يا صديقتي... فلو كان الدمع إنسانا لقتلته حتى لا يصل إلى عينيك ...أعلم أن الحقيقة آلمتك لكن القدر فوق الجميع وعلينا أن نتقبل كل ما يحدث لنا برِضًا... أليس هذا الكلام الذي كنت تساندينا به دائما؟ أرجوك فلكل مشكلة حلّ ...فضفضي لي آلامك كما اعتدنا ودعك من كل هذا الصمت المخيف؟
- آسفة... لكنني لا أستطيع أن أستوعب ما حدث؟ لماذا أنا؟ أريد جوابا لهذا السؤال... الجواب يهرب كلما اقتربت منه... أول مرة في حياتي أشعر بالخوف والوحدة.

أمسكت رهف يد دنيا بقوة وردت بلوم.

- ما هذا الكلام؟ أي وحدة ونحن معك... لن نتركك مهما حدث، فلطالما كنت إلى جانبنا ورسمت البسمة على ملامحنا على حساب سعادتك، لذا اطمئني سيجازيك الله بما أحسنت لغيرك.
- شكرا لك على كل شيء يا عزيزتي... صحيح أن والدتك ماتت رحمها الله، إلا أن الله عوضك بهذه الأم؛ لأن الله علم ما بقلبك من طيبة.

حينها صمتت رهف وطأطأت رأسها لتخاطب نفسها المظلومة بحسرة.

- تعويض... وقلب طيب؟ أحقا أن المعاناة التي أعانيها لأن قلبي أسود؟ أيجب ربط الظروف بقلوب البشر؟ لو تعلمين الحقيقة يا أختاه لما قلت ما قلت.

تجاوزت الساعة منتصف الليل ولم تستطع دنيا النوم فراحت تنظر إلى صور تجمع أفراد عائلتها، وقد كانت تحتفظ بها في محفظة صغيرة مستعينة بنور الهاتف من تحت الغطاء، لكن بعد هنيهة من الزمن أطفأت النور بسرعة عند سماع خطوات تقترب منها ثم تجاوزتها حيث سرير صديقتها، وإذ بها رؤيا ترفع الغطاء عن الأخيرة قائلة في همس مسموع دون أن تنتبه لاستيقاظ دنيا.

- هل استحليت هذا الدلال أيتها الغبية؟

فتحت دنيا عينيها فزعة حابسة أنفاسها مصغية إلى رد رهف الخائف.

- خيرا يا خالة ما الأمر؟
- ما الذي تفعله صديقتك معك؟ أليس لها مأوى يأويها؟
- أرجوك اُسكتي فقد تسمعك... هذه المرة فقط... أرجوك.
- منذ متى تأمرينني بألفاظك أيتها الوقحة... استمتعي هذه الليلة... لأنني غدا سأريك الدلال الحقيقي.

بعد أن أفشت رؤيا شيئا من غلها وعادت إلى غرفتها، أخذت رهف تتفقد دنيا علّها سمعت الحديث، لكن الأخيرة لم تشعرها باستيقاظها فانفجرت ببكاء كان صداه مسموعا، حينها استغربت بطلتنا، فشتانا بين رؤيا التي رأتها عند وصولها ورؤيا التي كانت

تصغي إلى صوتها الجهنمي قبل لحظات، نسيت دنيا همها ومشكلتها وغرقت بتفكيرها في سبب عزوف رهف عن إخبارها بالحقيقة، ثم بدأت تعد الثواني والدقائق منتظرة بفارغ الصبر صباح اليوم الموالي...

في الصباح كانت رهف ترتب الملابس في شرود لم يعد غامضا على دنيا بعد الذي سمعته في الليل، جعلت تراقب بهدوء دخول رؤيا مدّعية اللطف في خطابها.

- صباح الخير يا بنات... كيف كانت ليلتك يا دنيا؟

لم تتردد دنيا في الرد على رؤيا بمعاني تترجم غيظها الذي يلتهب داخلها.

- جيدة، لكن بعض العقارب مغصت أحلامي بصوتها المسموم يا خالتي.

- سلامتك يا دنيا من العقارب، أما أنت يا رهف فلا داعي لتكملي الترتيب وارتدي ملابسك كي لا تتأخري.

ادّعت رؤيا الذهاب للمطبخ فيما بقيت تنصت قرب الباب وقد أدخل جواب دنيا الشك في قلبها، لتوجه الأخيرة كلامها إلى رهف بصوت أتعبه البكاء.

- لماذا يا رهف؟

رفعت رهف رأسها وهي تفتح الخزانة.

- هل قلت شيئا؟

- لم كل هذا الصمت؟ وإلى متى؟ ولا داعي لعلامة الاستفهام التي على ملامحك لأنك تعلمين ما أقصده.
- ألم تقصدي نور بكلمة عقرب قبل قليل؟
- بل قصدت خالتك، أمثال نور في كل مكان... كيف تسمحين لها بمعاملتك بتلك الطريقة؟

فوجئت رهف فبقيت جاثمة لحظة ثم استدارت وسحبت معطفها متجاهلة.

- ليس أمامي خيار... فغيّري الموضوع.
- لا أصدق أنك جبانة لهذه الدرجة... أنت لست رهف التي أعرفها.

لم تنتظر رؤيا أكثر ودخلت عليهما متكئة على حافة الباب باسمة الملامح فالتفتت رهف مرتعبة...

- أحسنت الكلام يا دنيا فصديقتك ستبقى جبانة، طالما يمغص الماضي حياتها... كما مغصت العقارب ليلتك البارحة ...
- قد أكون غريبة عن المنزل... لكنني لست بغريبة عن صديقتي يا رؤيا.
- هل طارت كلمة خالتي؟

شدت رؤيا حاجبيها في غضب وهي تسمع رد دنيا المستفز.

- لهذه الكلمة قيمة... لا تقال لمن لا يستحقها.

- لا داعي لإضافة كلمة واحدة وإلا أريتك ما يمكنني فعله... وستكون رهف أول من يدعم أفعالي.

نزلت دموع رهف خجلا من دنيا، وردت موقفة الالتحام الذي حدث بينهما.

- يكفي يا دنيا... الأمر لا يستحق... لأنني تعودت هذه الحياة.

فتحت رؤيا ذراعيها وأمالت رأسها لتقول ساخرة.

- هذا رائع يا رهف... الآن أصبحت غير راضية بالحياة التي تعيشينها...

انطلقت رؤيا إلى رهف محاولة التهجم عليها فوقفت بدنيا حاجزا بينهما دون تردد ممسكة ذراعها الظالم بقوة، عندها جنّ جنونها وهي تنصت إلى كلمات الصديقة المتحدية.

- لست أعلم الماضي لكنني لن أسمح لأحد بأن يهاجم صديقتي بوجودي، يمكنني الوصول بجنوني لحد لا يمكنك توقعه ولن أخشاك... لذا لا تجربيني.
- كيف تجرئين؟ أنسيت أنك مجرد ضيفة هنا... ويمكنني الرّمي بك إلى الشارع في أي لحظة.
- لم أنس... وليكن في معلومك أن عملي هو اصطياد العقارب... وبخاصة إن تعلق الأمر بمن تحاول لدغ من أحب.

سكن الهدوء بينهن عندما سمعن باب الزقاق يفتح، ليستأذن عمر قبل دخول الغرفة ثم خاطب رهف ودنيا.

- أنا ذاهب إلى الجامعة بعد ربع ساعة... إن كنتما جاهزتين... فانتظراني لأوصلكما في طريقي.

رغم ذلك السكون إلا أن الغليان ملأ نفوسهن حتى غدا حمما تنتظر فقط الفرصة لتنفجر في وجه من يقف أمامها، تظاهرت رؤيا كأن شيئا لم يحدث ولم يكن تجاهل مثل هذه المواقف أمرا صعبا عليها فردت مقتربة من زوجها.

- هما جاهزتان منذ دقائق... يمكنكم الانطلاق فورا.

- جيد... سأنتظر وصول بعض الملفات من صديقي ثم ننطلق...

جمدت الدماء في عروق رؤيا ورهف لما استوقفت دنيا السيد عمر بنية فضح أعمال زوجته، وقبل أن يلتفت إليها أمسكت رهف ذراعها بقوة مشيرة برأسها رافضة بتوسل، فيما سأل عمر بكل طيبة.

- أتحتاجين شيئا يا ابنتي؟
- لا... لا شيء، في الحقيقة... لو سمحت... سنذهب إلى الثانوية مشيا... إنها قريبة ويمكننا اللحاق بأول الحصص.

بتردد كبير، تراجعت دنيا عن الاعتراف لعمر بحقيقة معاناة ابنته إلى حين معرفة التفاصيل التي لا تعلمها، بينما خاطبهما عمر مرتابا دون أن يبعد ملامح ابنته عن بصره.

- كما تريدان لكن انتبها للطريق ...

ثواني بعد رحيل دنيا ورهف استفرد عمر برؤيا مخاطبا.

- خيرا يا رؤيا... ملامح رهف الحزينة وارتباك صديقتها يوحي بأن هناك أمرا دار أثناء غيابي.

لم تبد رؤيا أي ارتباك وردت في برود مكملة طريقها نحو المطبخ.

- هما حزينتان من أجل صديقتهما التي ترقد في المستشفى لا أكثر... ثم إنك تعرف أحاسيس ابنتك المرهفة يا عزيزي.

في الطريق لم تشأ دنيا فتح الموضوع، لكن رهف فهمت رغبة رفيقتها في معرفة الحقيقة، وسبب طلبها من السيد عمر الذهاب مشيا إلا أنها تجاهلت الأمر.

لما وصلتا إلى الحي تذكرت دنيا ما حدث معها في الليلة السابقة، توقفت تمعن النظر حيث وقف رضا يتحدث عبر الهاتف، راحت تتذكر مقتطفات من القصص التي جاء بها لتنزل دمعتها، ثم أسرعت تمسحها عندما آتاها صوت أسماء يناديها من بعيد وهي تركض إلى أحضانها، مما جعل رضا يلتفت إليها

ويتقدم بخطوات هادئة، كانت حركاته توحي بمزيج من الحزن والحذر المترقب، أما دنيا فلم تبعد أنظارها عنه لما اقترب منها كأنها لا ترى غيره، جثمت ترتعش إلى أن سحبتها أسماء من ملابسها باكية تقول.

- هل حقا لست أختي الحقيقية؟ بالتأكيد لن ترحلي وتتركينا... أرجوك قولي الحقيقة.

تبادلت دنيا نظراتها مع رهف، ثم حولتها إلى رضا الذي أصبح واقفا على بعد متر منهن وانحنت إلى أسماء ثم خاطبتها معاكسة له، لا... في الحقيقة كانت تعاكس مشاعرا ولدت داخلها منذ ساعات قليلة.

- ومن قال ذلك يا غاليتي، ثم لا وجود لدنيا من دون أسماء... دعي عنك هذه الأفكار وابتسمي لأرى ابتسامتك الجميلة.

- لقد أخبرتهم أنني متأكدة من بقائك معنا.

أطرق رضا رأسه هنيهة مغمضا عينيه ثم كلّم أسماء واضعا يده على رأسها مداعبا.

- أصغي إليّ يا حلوتي... بالتأكيد ستبقين أختا لدنيا ولن ينكر أحد ذلك، لكن هذه الأخت تشبه القمر الذي يضطر للاختفاء في النهار ليطل بنوره في مكان آخر أكثر ظلمة.

- ما الذي تريد قوله أيها العم الفلسطيني؟ لم أفهم شيء.

سحبت دنيا أختها إليها وخاطبتها.

- لا داعي لفهم كل شيء يا أسماء، إذهبي إلى المدرسة فقد تأخرتِ... ولا تحدثي أحدا بما قلتِه توا وإلا حزنت كثيرا .. لتكن هذه الحقيقة سرا بيننا... اتفقنا ...

ثم رتبت هندام أسماء وانحنت مقبلة جبينها، بعدها ذهبت متجاهلة نداء رضا عندما حاول الحديث معها لكنها تهربت من محادثته خوفا من البوح بصدق مشاعرها اتجاهه، فخاطب نفسه في حزن وهو يتحسس شكل النجمة التي نقشت على غلاف هاتفه الصغير.

- أنا حقا آسف، لم أرغب يوما في إلحاق الضرر بك... وها قد أصبحت سبب حزنك... كم هي غريبة هذه الحياة؟

حوالي التاسعة صباحا بدأت الممرضة بإشراف الطبيب تنزع ضمادة بيضاء ملفوفة على عيني أمل حتى رأسها، أمام توتر صرخت به نبضات قلب غير منتظمة ورسمته قطرات عرق تتصب على الجبين بوضوح، ترددت أمل لحظات قبل فتح عينيها لتبدأ صورة والدتها الواقفة أمامها تتجلى بهدوء، كانت فرحتها برؤية سامية كفيلة لتغمر قلبها بفيض من المشاعر المختلطة، لقد حوصرت بين فرحة النجاة وخوف انهارت

أعمدته الواهية مع ذلك البريق، لذا نزلت دمعة ترجمت شوقها وهي تقول بحروف ضعيفة.

- لست أصدق أنني أستطيع رؤيتك أماه... لقد خفت كثيرا ...

ابتسم الطبيب مرتاحا في حين أمسكت سامية أنامل ابنتها لتحدثها برفق.

- الحمد لله، تقبل الله رجاءنا ورأف بحالنا أخيرا.

اتسعت ابتسامة أمل تتأمل فرحة والدتها ثم التفتت إلى الطبيب حين خاطبها.

- الحمد لله... خبر كهذا يريح قلبنا... ستخضعين لبعض الفحوص الآن... فقط لنتأكد من سلامتك التامة... وإذا تحقق ذلك ستنتقلين إلى غرفة عادية.

استأذن الطبيب من سامية وطلب منها الخروج فلبت طلبه واكتفت بمتابعة الفحوص من خلف زجاج نافذة الغرفة محاولة الاتصال بدنيا ورهف لكن لم يكن هاتف أي منهما مفتوحا، فانتابها القلق متسائلة عن السبب الذي أغلقتا لأجله هاتفيهما...

بعد الحصص الأولى وأثناء الاستراحة كانت دنيا واقفة قرب إحدى الشجيرات مع رهف، أخذت نور تراقبهما من نافذة القسم مبتسمة بمكر وتطل على الساعة بين الفينة والأخرى كأنها تنتظر حدثا مهما، أما رهف ففوجئت بخالها يناديها من

داخل الساحة، اتجهت إليه بارتباك فيما ظلت دنيا تتبعها ببصرها دون أن يصل إليها مدى الصوت حين سألت رهف خالها محتارة.

- خيرا يا خالي... لم أعتد منك الحضور إلى الثانوية.
- لقد اتصلت رؤيا تشك ومن تصرفاتك السيئة معها... وأخبرتني أنك على صلة بفتاة تريد أن تحرضك ضدها...
رمق الخال دنيا من بعيد وأردف متوجها إليها.
... أهي تلك التي كنت قربها؟

لمحت رهف رضا خلف أسوار الساحة فحاولت حماية دنيا من خالها الذي أرسلته رؤيا ليخيفهما، وقالت.

- لا، ليست هي يا خالي... لأنني قطعت علاقتي بها وانتهى الأمر... عندما أعود سأعتذر من خالتي.

تجاهل الخال ذلك الرد ونادى بأعلى صوته باسم دنيا فالتفتت إليه، ثم تقدمت بهدوء أمام ارتباك رهف ومراقبة رضا الخفية، ابتسم بخبث وتوجّه إليها حتى استقرا وجها لوجه، ولما تسارعت خطوات رهف نحوهما تقدم الأخ مباغتا الحارس بخطوات شديدة السرعة، أما الخال فرد بتهكم.

- أتظنينني قدمت إلى هنا دون استعداد... أخبرتني خالتك عن اسم صديقتك... ويبدو لي كيف قطعت علاقتك بها.

نظرت دنيا إلى رهف وسألت.

- خيرا يا رهف... عن ماذا يتحدث خالك؟

أمسك الخال يد رهف بقوة وأعادها خلفه ثم خاطب دنيا.

- سأشرح لك بنفسي كل شيء... اسمعيني أيتها الفتاة... من الآن وصاعدا ستقطعين علاقتك برهف... ولن تلتقيا ثانية... وإلا ...

لم يكمل الخال تهديده حتى قاطعه رضا متحديا وقد وقف بينه وبين دنيا حتى أضحت خلفه فأطرقت رأسها تصغي إليه يكمل مدافعا عنها.

- وإلا ماذا؟... أكمل ما كنت تريد قوله... هذا إن كنت تريد تحطيم أسنانك...

لم يقل الخال أي كلمة وعقد حاجبيه متأملا ملامح رضا الغاضبة، في حين ارتعبت رهف وسحبت خالها ثم ردت عليه متوسلة.

- أرجوك يا خال لا تفعل هذا... نحن في الثانوية... وسنواجه مشكلة... أعدك أنني سأعتذر من الخالة عندما أعود إلى المنزل... لكن ارحل.

- لن أرضى بغير ابتعادك عنها... وإلا سيكون العقاب مني هذه المرة... لقد فتح والدك عينيك كثيرا.. ما هذا التسيب؟

استدار راحلا بغضب متجاهلا نظرات رضا لكنه لم يستطع تجاهل كلمات دنيا حين خاطبته مستوقفة رحيله.

- لن يحدث شيء مما تقوله... رهف وأنا لن نفترق وإذا اقترَبَت أختك منها وآذتها ولو بكلمة واحدة... فأخبرها بأن نهاية لعبتها ستكون على يدي... ضع هذا في حسبانك.

_ فجأة _ غضبت رهف وخاطبت دنيا باكية.

- يكفي يا دنيا أرجوك... فالوقت ليس مناسبا لعنادك... لا تتدخلي في هذا الموضوع ...

سحبت رهف خالها بعيدا في حين احمرّ وجه دنيا لتخاطب نفسها بقلق.

- لماذا كل هذا الخوف يا رهف؟ ليتني أعرف... ليتني.

عندها وصل حارس الثانوية إليهم فأمسك ذراع رضا مخاطبا دنيا بحزم.

- ما الأمر يا بن زيان؟ هل تعرفين هذا الشاب؟

نظرت دنيا إلى الحارس وردت عليه ملوحة بيدها دون مبالاة.

- لا أعرفه... هو شخص يحاول حشر أنفه في أمور لا تعنيه.

ثم ابتعدت عنهما تاركة رضا واقفا يعاني مرارة الخيبة، بينما كانت رهف تحدث خالها عند الباب، ولحظة مروره قربهما أبطأ خطواته ليسمع كلمات الخال وهو يقول لابنة أخته.

- جيد... فتاة مطيعة... ولكن أخبري والدك أن فضلي عليه كبير... ولولاي ما قبل في وظيفته أستاذا في أفضل جامعة جزائرية، وبإمكاني أن أرميه خارجا متى أردت... لو أحسن تربيتك لما فضلت صديقتك على خالتك التي تركت كل شيء لمنحك أمومتها.

رمى الخال سيجارته من فمه ليدوس عليها رضا الذي استمر في طريقه منصتا باهتمام لأخر كلمات رهف حين قالت لخالها...

- مشكلة خالتي معي وليس مع أبي... لذا لا تقحموه في المنتصف يا خالي.

لحظتها حولت دنيا بصرها فزعة في حين التفتت رهف إلى خارج أسوار الساحة ليرتعب رضا بسبب اجتماع عدد من الأطفال خلف البوابة وهم يركضون في الطريق ويكررون نفس العبارة التي كتبت على أوراق بالخط العريض.

- دنيا بن زيان...ليست إلا فتاة لقيطة ...

لقد زينت تلك اللافتة بصورة واضحة لاجتماع دنيا والبقية عند دكان العم سمير، انفجر رضا غضبا فركض نحو الأطفال محاولا تفرقتهم بدموع فضحت ألمه لكن دون جدوى، وضعت رهف يدها على فمها بألم وهي تنظر إليه حين أخذ يمزق شيئا من تلك اللافتات صارخا حينا ومتوسلا في أحايين، لم يدخر جهدا لما واجه أولئك الأطفال، اختنقت دموع دنيا عندما التفت إليها جميع من يعرفها داخل المؤسسة، لم تستطع استيعاب غير اسم واحد لخص أجوبة جميع الأسئلة التي كانت بذهنها... إنه اسم نور التي كانت حاضرة أثناء كشف الحقائق، ارتعدت أوصالها لما رأت الحال التي كان عليها رضا... آلمها تعثره عند حفرة الوحل... سقوطه لم يمنعه من الوقوف ثانية، واستطاع بمساعدة حارس الثانوية تفريق الأطفال بعد أن جفّ حلقه، ثم أخذ يبحث عن دنيا ليجدها قد انطلقت راكضة في حالة من الغضب والارتعاش إلى مبنى الأقسام بأسرع ما أوتيت من قوة، ركض محاولا الدخول خلفها ولما منعه الحارس خاطب رهف متوسلا.

- إلحقيها يا رهف... افعلي شيئا أرجوك.

دخلت رهف باب الثانوية تركض خلف دنيا، ليهوي رضا على ركبتيه منكفئ الوجه، مستسلما مناديا نجواه المتعذبة.

- أنظري ما حل بنا يا نجمتي... لقد تعبنا يا رباه... لقد تعبنا.

وصلت دنيا إلى قسمها لتصطدم بنور قد توسطت فتيات تحدثهن عن أمرها، ولما رأينها ابتعدن عن نور وهنّ يتهامسن ويرمقنها بنظرات مختلفة المعاني لتستفزها عدوتها دون خوف...

- وأخيرا قدمت... لقد كنا نتحدث عنك أيتها الفاضلة.

عندها جن جنون دنيا فرمت الطاولة لتبعدها عن طريقها وانطلقت إلى مقلمة إحدى الفتيات وسحبت منها مدورا بسرعة ثم التفتت إلى نور الجالسة بتعجرف خلفها وأرتها إياه، ارتعدت أوصال نور فوقفت محاولة الهرب وهي تتذكر اللحظة التي أصيبت فيها قبل أشهر، ولكن دنيا كانت الأسرع فقد قطعت طريقها وأمسكتها من عنقها، حاصرتها عند الجدار بعنف جعلها تصرخ محاولة إفلات نفسها، في حين ركضت سمر نحو الخارج طالبة المساعدة دون أن تتجرأ على نجدتها بنفسها وتركتها تصرخ على دنيا.

- أفلتيني أيتها المتوحشة... سأختنق.
- أيتها الحقيرة... يبدو أنك تحتاجين إلى درس يذكرك بخطر اللعب معي.
- قلت لك أتركيني... أكاد أختنق... فلن تستطيع ممثلة مثلك غير افتعال الكذبات من هنا وهناك...
- أغلقي فمك... أقسم أنني قادرة على تقطيع لسانك هذه المرة.

ضحكت دنيا باشمئزاز وقربت المدور من خد نور السليم مردفة.

- أعلم أنت تسعين خلفي... لا والله لن تفلتي هذه المرة من دون ألم.

ضغطت دنيا على عنق نور بقوة ورفعت المدور بتهور مستهدفة وجهها لكن تمكنت رهف من الإمساك بقبضتها في آخر لحظة وخاطبتها متوسلة.

- يكفي يا دنيا... أتركيها، أرجوك يا صديقتي دعك منها، ففتاة مثلها لا تستحق أن تورطي نفسك بالمشكلات بسببها.
- ستبقى المشكلات تلفّ بي طالما بقيت هذه الخائنة أمامي.
- فكري في غضب العم أحمد إن كررت فعلتك... لن يسامحك وكلامه كان واضحا... فكري فينا... ما الذي سيحدث لنا من دونك؟... لقد تركت رضا يتعذب في الخارج... نحن لا نستحق منك هذا التجاهل... أرجوك... ارحمي نفسك... أعطني المدور... هيا لا تمنحيها ما تريده.

تمكنت رهف من أخذ المدور قبل دخول الأستاذة سليمة ورمته خفية، أما دنيا فأمسكت نور من ملابسها وألقتها بعيدا حتى سقطت عند أقدام سمر متجاهلة وجود الأستاذة وانحنت

إليها مشيرة بسبابتها مخاطبة بهمس تناغمَ مع دموع فضحت ألمها...

- إن كنتي تسعين خلف رحيلي فلن يكون رحيلي من دون عودة... أقسم أنني حينها سأكون بوجه يختلف تماما عن الذي ترينه أمامك الآن.

أصاب نور نوبة من السعال الحاد نتيجة الخنق الذي تعرضت له فأمسكت صدرها وخاطبت نفسها بصعوبة.

- هذه حقيقتك أيتها المتوحشة... إن عجزت عن مواجهتها فسأواجهك بها بنفسي وليس هذا فقط... بل سأواجه الجميع بحقيقة تؤكد أنك مجهولة الأهل والنسب.

استقامت دنيا وحاولت الخروج حين أمسكتها الأستاذة سليمة وصرخت فيها.

- إلى أين يا بن زيان بعد الذي ...؟

لم تكمل الأستاذة سؤالها حتى بترته دنيا رافعة راحة يدها موقفة ثم قالت دامعة.

- لم يعد هناك داعي لاستجوابي... لأنه عندما تكتشفين حقيقة الفتاة المرمية خلفك ستكونين أول

المتحسرين... كما أنه لم يعد هناك داعي لتتفنني في اختيار عقاب بحق دنيا بن زيان... بعد اليوم.

- كيف تجرئين على قطع كلماتي؟

- إن كنت ستطردينني... فإنني راحلة... لا تتعبي نفسك.

كانت دنيا تعلم بأنها ستكون الضحية ولن توقع العقوبة إلا في حقها، ستنسكب الاتهامات جملة واحدة على قلبها، فتوجهت بصمت حاملة أدواتها ثم رفعت أنظارها إلى فتيات القسم لكنهن انسحبن إلى مقاعدهن يرمقنها بنظرات قاتلة...

نعم، فنور صاغت كذبتها هذه المرة بحيث لا يُترك مجال أمامهن للتكذيب، لكن هل يعقل أن يغير الإنسان علاقته مع الغير بمجرد حدوث تغيرات على حياته الشخصية؟ فمهما كانت صعوبة الموقف الذي مرّت به عندما واجهها العم سمير بالحقيقة، فتلك اللحظة كانت أصعب بكثير، قضت تلك النظرات القاسية على ما تبقى فيها من قوة، فنظرت إليهن باحتقار ثم خرجت من القسم، فيما حملت رهف حقيبتها وخاطبتهن مستصغرة فعلهن.

- أسفي عليكن... أنكرتن كل الذي فعلته دنيا لأجلكن بسبب كذبات هذه الفتاة... وأخيرا تبيّن أمامها العدو من الصديق... ولكن ليكن في علمك يا نور أن دنيا بن زيان

ليست وحدها... وأنا وأمل لن نتخلى عنها... لن نتخلى عنها مهما حاولت.

خرجت رهف لتخاطب نور نفسها متمالكة أنفاسها.

- أنت لن تتخلي عنها يا رهف... ولكن ماذا عن أمل؟ لن أرتاح حتى أكون أول من يزف لها هذا الخبر؟ وعلى طريقتي الخاصة.

وقفت نور مستجمعة تعجرفها وخاطبت سمر.

- بسرعة... لنذهب يا سمر...

حاولت الأستاذة إيقاف نور وسمر ولكنهما رحلتا دون مبالاة، لتفرغ شحنة غضبها على بقية الفتيات.

- ما الذي يحدث هنا؟... ماهذا التسيب؟ عدن إلى أماكنكن وأنا لي تصرف آخر مع تلك المجموعة ...

مسحت دنيا دموعها قبل وصولها حيث قعد رضا يشرب الماء، ويدلق بعض ما بقي في القارورة على رأسه وما إن رآها حتى وقف بسرعة يتأمل كل منهما الآخر بصمت، تذكرت ركضه في الشارع خلف أولئك الأطفال من خلال الغبار المنتشر على ملابسه قبل أن تسأله بهدوء ممزوج بالألم.

- هل أنت بخير؟

لم يصدق رضا حينها أنه يسمع ذلك السؤال منها فرد مربتا على كتفها.

- الآن صرت بخير... ماذا عنك؟

تراجعت دنيا عنه وردت حين وصلت رهف.

- يجب أن أقابل أمل... هيا يا رهف.

وقف رضا متنهدا بينما انطلقت دنيا ورهف إلى موقف الحافلات لتركبا أول حافلة متجهة إلى المستشفى، وفي إحدى الغرف جلست أمل تحدث والدتها.

- ترى لماذا لم تصل دنيا ورهف حتى الساعة؟ توقعت أن تكونا أول من أرى عندما أستيقظ.

ارتبكت سامية ونظرت إلى هاتفها ثم قالت متلعثمة.

- لقد اتصلتا كثيرا.. لا بد أنهما في الثانوية يا عزيزتي ...لا تقلقي.

ابتسمت أمل وشردت بتفكيرها مخاطبة والدتها.

- لقد رأيتها تبتسم لي يا أمي... نعَم... لقد رأيت رنا رحمها الله باسمة.

استغربت الأم في حين أكملت أمل.

- لقد توسلت إليها كي تسمح لي بلمسها فقط، لكنها هزت رأسها رفضا، بعدها أشارت إلى نجمتين في السماء

واستدارت راحلة، تجاهلت النجمتين وحاولت اللحاق بها فسمعت صوتهما... التفتت حيث تحول بريق النجمتين لجسدي دنيا ورهف... نعم، رهف ودنيا كانتا تلحان علي للتوجه إليهما و...

انخفض صوت أمل في شكل أنين دفن آخر الحروف، لذا سألتها والدتها.

- وماذا بعد؟
- بعدما ذهبتْ رنا التقيت بهما... لقد اخترتهما... ولكن... بدأت دنيا تتلاشى إلى أن اختفت في وضع مخيف ثم ظهرت بعيدة عنا ..... ظهرت في غير الجهة التي ذهبت منها رنا... راحت تسير بصمت وتتبع خيطا بلون الدم، خفت عليها كثيرا عندما تجاهلت نداءنا... ما تفسيرك لهذا المنام يا أمي؟

بعث المنام الذي روته أمل قشعريرة مخيفة في جسد الأم ولكنها أخفت مشاعرها وردت محاولة طمأنة ابنتها.

- تفسير؟! بل ما هذه الأفكار؟... هي مجرد أحلام وهلوسة بسبب مفعول المخدّر فلا تقلقي وارتاحي... وأنا سأخرج لأحضر قارورة ماء فقد جف حلقي يا ابنتي.

بعد دقائق من خروج سامية حملت أمل هاتفها واتصلت بدنيا لتجيبها الأخيرة وسط زحام الحافلة وقد غلبتها فرحتها بسماع صوت صديقتها بخير.

- وأخيرا أجبت... لماذا تأخرتما وأنا التي كنت أريد رأيتكما قبل الجميع؟

نظرت دنيا إلى رهف وردت مخفية حرقة بقلبها.

- الحمد لله... الحمد لله أنني أسمع هذه النبرة المرتاحة بين أنفاس حروفك... لن نتأخر أكثر فلا تشغلي تفكيرك... لأننا على وشك الوصول يا أمل.

ابتهجت ملامح رهف بفخر لما تمالكت دنيا آلامها من أجل صحة أمل فأمسكت يدها بقوة، فجأة تغيرت ملامحها وأخذت تنصت لصوت أمل المنهز حين رأت نور تدخل غرفتها والمكر المتعفن يطفو على جفنيها بهدوء...

- أهذه أنت ؟ خيرا ما الذي جاء بك؟
- لقد جئت لأطمئن عليك يا صديقتي القديمة... جيد أن دنيا ورهف لم تصلا بعد؟
- ومن طلب منك القدوم... انقلعي من هنا فورا يا نور ...

أصيبت دنيا بالهلع بمجرد سماع الاسم، أدركت نيتها فصرخت مرتعشة.

- أمل أطرديها من أمامك حالا... لا تحدثيها أرجوك.

نظرت أمل باستغراب إلى نور وقبل النطق بأي كلمة خطفت العقرب البشري الهاتف من يد أمل وقفزت مبتعدة وهي تكلم دنيا ببرودة.

- عزيزتي دنيا لا تقلقي وتريثي بمشيتك فلن تحسّ أمل بالوحدة معي... لأنني سأخبرها بكل شيء... وآمل أن يرى بصرها الجديد الحقيقة التي نراها نحن ...
- أمل مريضة ...فلا تفعلي ذلك الآن أيتها الحقيرة... أنت تعرفين مدى همجيتي ولن ينقذك مني أحد هذه المرة.. لن تسلمي بفعلتك... إن أصاب أمل أي مكروه... أعدك بذ...

أغلقت نور الهاتف قبل أن تسمع آخر كلمات دنيا، وعندها وضعت بطلتنا يدها على فمها في حيرة وخوف على أمل إن أخبرتها نور بالحقيقة التي اخترعتها، ما إن توقفت الحافلة حتى نزلت دنيا مع رهف وانطلقتا ركضا إلى المستشفى، أما في غرفة أمل فحملت نور كرسيا وقربته من حافة السرير متجاهلة صرخات أمل.

- أعطني الهاتف أيتها المختلة... واخرجي من أمامي.
- لا بأس سيبقى الهاتف في حوزتي لبعض من الوقت، لأن كلامي أهم من كل شيء.
- يا لك من وقحة أعطيني إياه قبل أن أغضب... ولا تستغلي مرضي، لأنني لا زلت قادرة على نتف شعرك شعرة شعرة ...

بُتر تهديد أمل بدخول حميد لذا خاطبته نور.

- لقد وصلت في الوقت المناسب... الموضوع يهم والدك أيضا يا حلوة، وأفضل أن أتحدث بوجوده كي يكون شاهدا على كل كلماتي... لذا أقعد وأنصت إليّ يا عماه.

بدأ الخوف يسري داخل أمل بسبب أسلوب نور البارد واقتراب والدها من حافة سريرها.

- إن كان كلامك لإبعاد دنيا ورهف عني فاعلمي أنك ستفشلين... لذا لا تدخلي مضمارا ستخرجين منه خائبة... أخرجي ما بحوزتك من قذارة وارحلي... هيا.

بدأت العقرب تصوب أسهمها المسمومة مستعينة بصور الشجار الذي جمع هيثم برضا، صور أخرى حملت تجمع الجيران حول دكان العم سمير، لم تحتج لوقت طويل لتشرح لها خيوط الكذبة التي نسجتها فيما أنكرت أمل غير مصدقة، دمعت عيناها ممسكة طرف الفراش بقوة، أما حميد فابتسم ثم رد بغضب مخاطبا ابنته.

- ألم أقل لك ابتعدي عنها؟ ها قد كنتُ محقا حول سُمعتها... أعطيتها قيمة لم تكن تستحقها يوما.
- لا أصدق ذلك... فأنت تكرهينها يا نور... ولكن أن تصل بك القذارة لقول هذه الترهات فقد تجاوزت حدودك؛ لأعلن حقا أنك مختلة.

رمت أمل نور بالوسادة... فتجنبتها وابتعدت ترمق دموعها بجفاء، وكأنها تتلذذ بتلك اللحظات ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تنظر بعينيْ أمل.

- انتبهي إلى صحتك يا عزيزتي... أعلم أن هذا صعب عليك، ألم الخداع لا يمكن وصفه ومن يدري... ربما هي تعلم هذه الحقيقة وتخفيها عنكنّ منذ زمن طويل

في هذه الأثناء كانت دنيا ورهف تركضان في الرواق لتمنعا نور من قول الحقيقة، أو على الأقل لتدافع عن نفسها أمام صديقة طفولتها، لتصطدم بهما سامية على تلك الحال فلحقت بهما بخوف، وعندما فتحت باب الغرفة استقام حميد واقترب منها بهدوء.

- وتتجرأ على القدوم إلينا... من أي معدن صنعت؟.. نظراتك الدامعة لن تخدعنا ثانية يا فتاة... ارحلي فورا...

سكتت دنيا برهة من الزمن ثم رمت نور بنظرة جعلتها ترتعد مكانها، عقدت حاجبيها متحدية، رويدا رويدا أخذ فتيل الغضب يشتعل بين خطواتها التي تقترب بصمت غريب مخاطبة بمقت.

- لقد أخبرتِها أيتها الحقيرة... لقد قلت لك شيئا قبل إنهاء الإتصال أتتذكرين؟ سأذكرك...

أرادت دنيا الهجوم على نور ولكن حميد وقف حاجزا أمامها ودفعها حتى ارتطم جسدها بالجدار بقوة، وهنا ركضت سامية التي لم تفهم شيئا بعد، أمل ورهف في خوف ليصرخ حميد.

- في الوقت الذي تمدين فيه يديك على غيرك من بنات الأصول... أنصحك أن تذهبي باحثة عن أصلك، ومن أين قدمت يا ابنة الشارع؟

أنفاس اضطربت حين تلقى حميد لكمة قوية على وجهه في حين مسحت دنيا دمعتها ووقفت مرتعبة لما أظهر رضا سكينا واستعد لطعنه، بينما التصق جسد نور بالنافذة التي خلفها باحثة عن منفذ للهرب.

صمت دفين أدلى الستار على حقيقة الحياة التي تعيشها رهف، والنظرات التي رأتها رؤيا في عينيْ دنيا جعلتها تخاف من تدمير ما حافظت عليه خلال سنوات طويلة، فهل ستوافق رهف على إخبارها بتفاصيل حكايتها؟.. يبدو لنا أن العائق الخفي الذي يمنعها من البوح بسرائرها أقوى منها، فهل ستكون بطلتنا ندّا له؟

ظلم الليل الحالك لا يريد الإنجلاء بل يفضل صحبة العائلة، فمتى ستبتسم الحياة لأبطالنا؟ أعين كثيرة وقلوب متعددة وأحلام متفاوتة ونيات خفية لا تظهر كما هي عليه الآن، بل هناك حقائق لا بد لها من الظهور فليست الحقيقة المتخفية الوحيدة هي الماضي الذي عاشته دنيا أو السكوت الذي اعتادته رهف بل هناك المزيد فكيف سيكون ظهورها يا ترى؟

لفصل العاشر: الهمسات المؤلمة** سأمسح دمعك بدمعي

رفع رضا سكينا محاولا طعن حميد في لحظة غضب ليصطدم بدنيا قد أمسكت ذراعه بقوة مخاطبة إصرارا ملأ ذهنه...

- لا تفعلها... أترك السكين...أرجوك...

- كيف تطلبين مني التراجع... لن أفعل بعد الذي سمعته؟ .. أتركي يدي ...
- لا يهمني ما يقوله... لم يعد كلامه يؤثر فيّ يا رضا ...

- لكن كلامه طال نجمتنا... أنت ابنة ناس عز شرفهم وحفظت أعراضهم ولا يمكن لأحد أن يخطئ في حقك وأنا أتنفس... لذا أتركيني أقطع رأس هذا الوضيع وتلك المتمادية ليرتاح قلبك ...

أخذ حميد يتلوى في مقاومة تجعله يفلت من قبضة الشاب وصرخ حتى اجتمع طاقم من الأطباء والممرضين حولهم داخل الغرفة.

- إن كنت أنت هو... شقيقها الذي قصدته... نور... فخذ المصيبة التي رميتموها على حياتنا وسينتهى كل شيء...

- ألا زلت تتحدث... أغلق فمك... نعم هي أختي ولن أنكر ذلك... قلت لك أتركي ذراعي يا نيفين... فهو لا يستحق العيش.

دمعت عين دنيا لخطاب حميد القاسي عندما وصفها بالمصيبة لذا قربت يدها حتى أمسكت بسكين رضا وقالت.

- هما لا يستحقان العيش لكن لا تورط نفسك... أترك السكين يا رضا لأنني لن أسامحك إن فعلتها... سيتدخل رجال الأمن ...

هدأ صوت دنيا وهمست في أذنه ممسكة كتفه.

- نجمتك تنتظرك... فلا تطل اللقاء بها أكثر... أرجوك أتركه.

نظر رضا إلى قسمات وجهها كأنه يلتقيها أول مرة، ترك السكين وابتعد عن حميد ليجدها محكمة قبضتها على ذراعه دامعة شاردة الأفكار، في تلك الأثناء تسللت نور من الخلف مستغلة الفوضى التي انتشرت وانطلقت إلى الخارج بأقصى سرعة امتلكتها، في حين وقف حميد يهدد مستعينا بشهادة الحاضرين ...

- سأجعلك تندم... قبل أن أرسل نذير الشؤم أختك إلى الجحيم سأجعلك تتعفن داخل السجون... ليكن حديثك مع رجال الشرطة.

انطلق حميد مبتعدا هربا من رضا وقد أراد اللحاق به لولا قبضة دنيا التي لفت حول ذراعه، ارتبك البقية بعد أن أخذت الأخيرة _ فجأة _ تركض خلف حميد بكاحل ملتوي نتيجة ارتطامها بالجدار بقوة بعد أن خاطبتهم بحزم.

- لا تلحقوا بي... لي حديث معه...

أراد رضا قول شيء فأردفت.

- لن يحدث شيء... أقسم أنني سأتحدث معه فقط ...

توقف حميد على نداء دنيا داخل أحد الأروقة وما أن رآها حتى صرخ فيها.

- ما الذي تريدينه؟ إن كان لديك حديث فقدميه إلى رجال الشرطة خلال الساعات القادمة ...

- بل حديثي سيكون معك... سأعرض عليك عرضا لا أعتقد أنك ستتجاهله... لذا أنصت إليّ ...

لاذت دنيا بالصمت لحظات أمسكت فيها صدرها بألم قبل أن تخاطب فضول حميد مردفة...

- أنتَ... أنت تريدني أن أبتعد عن أمل... أليس كذلك؟... أجبني ...

نظر حميد بتعجرف ورفع أحد حاجبيه بمقت ثم قال.

- سيكون ذلك أسعد يوم في حياتي ...

- لك هذا ...

ضاقت عينا حميد بحذر كأنه يترقب هجوما في أي لحظة، في حين أكملت دنيا مختنقة الأنفاس.

- امنحني يومين وسأبتعد عن أمل لمسافة ستجعلك تعيش هذه السعادة... ولكن في المقابل ستتراجع عن الشكاية برضا لرجال الشرطة...

- ولماذا سأفعل ذلك؟ في كل الأحوال لن يكون لك وجود داخل حياتنا...

ابتسمت دنيا متحدية عجرفة حميد.

- لا داعي لأذكرك بعنادي... أقسم أني سألتصق بأمل أكثر مما ترى اليوم إن أوصلت أخبار هجوم رضا عليك بالسكين إلى رجال الشرطة... ولن تتمكن لا أنت ولا تلك العقرب البشري ولو اجتمعت جميع خططكما الخبيثة معا من تحقيق ما تتمنيانه... وسأترك لك الخيار...

أطلقت دنيا نظرة أربكت حميد فتراجع خطوة وقال ملوحا بيده.

- لن أنتظر أكثر من يومين... وها قد بدأ العد منذ هذه اللحظة.

ما إن أدار حميد ظهره ورحل حتى انقلبت ملامح القوة إلى ضعف لم تشهده قسمات وجهها من قبل، استدارت عائدة بخطوات وهنت حركاتها، و لما ظهرت أمل متكئة على ذراع رهف وخلفهما رضا هوت دمعتها وهي ترمق هرع الجميع إليها، لم تتحمل وجثت باكية مرّ البكاء علها تطفئ نارها، شعرت حينها أنها ضحت بأنفاسها، لقد اضطرت لتمزيق العهد الذي قطعته على قبر رنا مقران بيديها، فهل يستحق رضا هذه التضحية؟ انحنت رهف وأمل بالأحضان على كتفيها والدموع تجتمع بينهن، بل أمسك الشاب رأسه في عراك مع جفنيه حتى لا تسقط دموعه تأثرا بألمهن ورمى بكتفيه على أقرب جدار يراقب وينصت إلى عذاب دنيا، ورغم كل القرارات التي اتخذتها أمسكت يد أمل بقوة محاولة شرح موقفها.

- لم أكن أريدك أن تعرفي الآن بسبب وضعك الصحي، لم أشأ إزعاجك بهمومي... لكن صدّقيني لم أكن أعلم الحقيقة كما أنها ليست مثلما روتها تلك المخادعة بل...

وضعت أمل يدها على فم دنيا وردت بألم خدشته أسلاك من اللوم الباهت.

- صمتا يا دنيا... فلا داعي لتبرّري لي أي شيء... لأنني أعرف جيدا من تكون صديقتي... لو اجتمع كل العالم

ليطعن في أصلك ما صدقت... فكيف سأصدق من دمرت ماضينا الجميل؟ فمن تحمل قلبا مثلك يجب أن تعتز مهما كانت الحقيقة... المهم عندي أن تبقي إلى جانبي... أنت ورهف النور الذي لن أبصر من دونه.

ارتعدت دنيا متذكرة اتفاقها مع حميد، فحضنت أمل بقوة حابسة دموعها مكررة.

- سامحيني... أرجوك سامحيني يا أمل ...

ثم التفت متأملة وجه رهف ولم يعرف أحد لماذا اعتذرت من أمل بذلك الضيق، ساعدت الصديقتان أمل على العودة إلى سريرها وتهدئة أعصابها ببعض الكلمات والمزحات المصطنعة، بعد وقت قصير خرجت رهف ودنيا مودعتين أمل ليدخل رضا مستأذنا من السيدة سامية، التقى حاجبا أمل ليخاطبها بهدوءه المعتاد.

- لا تخافي... لقد جئت لأشكرك على وقوفك إلى جانب نيفين... الآن عرفت سر تعلقها بكما...
- لا أعلم تفاصيل حكايتكما بعد... ولكنها لا تستحق كل تلك الأوجاع...

أطرق رضا رأسه ثم رد عليها.

- إن بقيت متشبثة بهذا الحب النقي لها... ومهما كانت الأحوال التي هي عليها... ستنتهي أوجاعها بكل تأكيد... أنا حقا آسف ...

بقيت أمل تنظر إليه محتارة ليضيف مخاطبا نفسه بصمت.

- أجل... آسف لأنني لن أتركها إلى جانبكما... يبدو أنني في آخر المطاف... من سيبعدها عنكما...

خرج رضا من بوابة المستشفى فوجد دنيا ورهف واقفتين قرب سيارته، ابتهجت مقلتاه وسارع خطواته نحوهما بعدما كان متيقنا برحيلهما، اقترب منهما وخاطب أخته بكل احترام.

- قدمك مصابة وسيكون من الأفضل لو أوصلكما في طريقي... هيا يا عزيزتي.
- لم أنتظرك كي تقلّني يا رضا...

سحبت رهف ذراعها خجلة في حين وضع رضا يده على جيبه وقال.

- انتظرتني كي تصبي علي جام غضبك كما اعتدت إذا؟

ابتسمت دنيا في خفة ثم أردفت.

- انتظرتك لأنني على يقين بلحاقك بي مجددا... أرجوك توقف عن ملاحقتي... فلم يبق لديّ قوة لتحمل المزيد... امض في طريقك بعيدا عني... فقد بت أختنق كلما رأيتك بقربي ...

رأت دنيا في رضا السبب الرئيسي لفراقها عن من تحب... لم تعلم لماذا احتفظت به وضحت بصداقة أمل، هل أصبح يعني لها شيئا ما رغم كل الكلمات القاسية التي تمزق بها صدره، عندها

نظرت رهف إليه وقد عادت ملامحه المنزعجة، ولحقت بصديقتها ليخاطب نفسه راكبا سيارته.

- يبدو لي أنك خلقت لتكوني هدفا للخطر في كل مكان وليس بين عشيرتنا فقط... وسأبقى مثل ظلك إلى أن أتأكد أن تلك الفتاة صاحبة النظرة الثعلبية وذلك الأخرق لن يقدما على مهاجمتك مجددا...

في الطريق شردت رهف بأفكارها محاولة إيجاد حجة لمواجهة خالتها، فهي تعلم أن كبرياء دنيا لن تسمح لها بالعودة معها إلى البيت بعد الكلام الذي سمعته صباحا، ولما انتبهت لها بطلتنا سألتها بحزن مترجية.

- ألن تحكي لي ما بقلبك يا صديقتي؟

بعد صمت صرخ أنينه ردت رهف متهربة.

- لستِ بحاجة إلى هموم فوق همومك يا دنيا، لذا لا تشغلي بالك بمشكلاتي.
- ليس لي هم سواكما أنت وأمل... على الأقل فضفضي لي يا عزيزتي، ما سبب كل هذا الصمت والخوف؟

طأطأت رهف رأسها وقعدت على مقعد محطة الحافلات، وردت أمام استغراب دنيا.

- أرأيت والد أمل؟
- وما سبب ذكر ذلك الاسم البغيظ؟

- لقد كان مثله تماما يا صديقتي.

فتحت دنيا عينيها صارخة.

- مستحيل... أتقصدين العم عمر؟
- أجل... لكن أسهم أخطاءه اخترقت صدر والدتي رحمها الله فقط.

ارتعشت أنظار دنيا وقعدت إلى جانب رهف تنظر كأنها تتعرف على صديقتها من جديد، الغموض الذي التف بالسكون المرعب جعلها ترمي ما تعرفه عن رفيقة دربها خلفها لذا سألتها غير مصدقة.

- كيف تماثلين ذلك الرجل بوالدك الذي يعتبر رمزا للحنان والأبوة الصارخة.

ابتسمت رهف ساخرة كأنها تحتقر نفسها وردت دامعة القلب.

- لم يكن يحب شيئا في الدنيا غير ابنته فقط، أبوته طغت على كل شيء، أما عن والدتي فكان دائما يشاجرها من أجلي... فهو لا يحتمل موقفها وهي تصرخ عليّ أو تؤنبني... جنونه جعله يشكك في معاملة أمي لي كأنه يخشي علي منها... ولكن يا ليته ما فعل.

قبل ثمان سنوات تقريبا.

في منزل عمران دخل عمر ليجد رهف تبكي لأن والدتها - السيدة هنادي وادي – أنبتها بشدة بسبب اتساخ ثيابها

بالطين أثناء لعبها مع أطفال الحي، لذا حملها ثم صرخ على زوجته.

- وماذا فعلت لتؤنبيها بهذه الطريقة؟
- ألم تر ملابسها كيف وُسخت بالطين... لقد غيرت ملابسها ثلاث مرات اليوم وهاهي رابع مرة... ثم ألا تعرف ابنتك... فهي تبكي بمجرد أن ينظر إليها أحد بغضب.
- وأنت ألا تعرفين سن ابنتك؟... دعيها تلعب مع أقرانها كما شاءت... وإذا اتسخت الملابس اغسليها ولينتهي الأمر.

استفزت زمجرة عمر زوجته فردت غاضبة.

- وما دخلك؟ هي ابنتي أيضا وأنا أعلم طريقة تربيتها.
- أتربينها بهذه الطريقة ؟..لا والله أخطأت الاختيار فابنتي لا يضربها أحد طالما أنا حيّ وحتى لو كنت أمها... هيا يا رهف لنخرج ولنلعب سويّا بالطين.

لما أمسك عمر يد ابنته واتجها إلى الباب سحبت هنادي رهف بقوة من ذراعها وصرخت على زوجها وقد تضخم العناد في رأسيهما باعثا أشواك الغضب التي صنعت عقدة صمت لاحقت الطفلة حتى اليوم.

- لن تخرج معك وإن أردت اللعب فالعب وحدك أيها المختل... أفلت الفتاة.

اسود العالم أمام عمر بسبب عناد هنادي، فرفع يده وبحركة واحدة أسرع مما توقع دفعها بقوة لتتلقى حتفها بمجرد أن لمس رأسها حافة عتبة غرفة المعيشة، عندما طال سكونها على الأرض أرخى عمر قبضته على معصم ابنته وأطل، لقد أخذ مسار من الدماء يرتسم على الأرضية، وبعد نداء لم يلبَّ انحنى إلى هنادي، وما إن أدار رأسها حتى وجد عينيها مفتوحتين دون حراك وقد نزف أنفها دما فعرف أنها فارقت الحياة، لطم عمر وجهه في هلع عظيم محتضنا رهف مديرا وجهها إلى الجهة المعاكسة كي لا تصاب طفولتها من وحشية ذلك المنظر، والمسكين لا يدرك أنها حفظته وأصبح من المستحيل لذلك المشهد أن يتركها طالما كان بروحها نفس، ظل المسكين يكرر دون وعي.

- هنادي... هنادي... ما الذي فعلته بك؟

تلك الحادثة أصابت عمر بحزن شديد، لم يفارقه ألم تأنيب الضمير الذي خنقه كلما نظر إليه أحد، هذا الشعور كان معشعشا بقلب رهف أيضا، على الرغم من صغر سنها فإنها حملت نفسها مسؤولية ما حل بوالديها؛ لأنها - كما اعتقدت – كانت سبب الشجار في كل مرة.

بعد أسبوع من الحادث ذهبت رنا، دنيا وأمل لزيارة رهف فوجدنها منزوية بنفسها فوق أحد سلالم منزلها، قعدن قربها بحزن واكتفين بتقليد صمتها، سكونها، وحتى دموعها التي

انهمرت حينا لتجف في حين آخر، لما طال صمتهن خاطبتهن رهف.

- لم يأت لرؤيتي حتى الساعة... لا بد أنه غاضب مني لأنني ...

اغرورقت عيناها وأردفت في نفسها مطأطأة الرأس.

- ...لا يجب أن أقول لأي أحد أن أبي قتل أمي وإلا سجنته الشرطة، عندها سأبقى وحدي.

رفعت رهف رأسها حيث انطلق رد دنيا البريء.

- إذا لم يأت هو إليك... يمكنك أنت الذهاب لرؤيته؟... فلعلـّه ينتظرك أيضا... تماما كما تفعلين الآن.
- دنيا محقة يا رهف... والدك ماكث الآن في منزل أحد أصدقائه الفارغ، إنه يقع في حينا... أعرفه جيدا.
- ماذا قررت؟ إن أردت سنذهب معك لرؤيته وأمل سترشدنا؟

غمزت دنيا رهف بحركة خفيفة ثم حضنتها، و عندها أمسكت كل واحدة منهن يد الأخرى وانطلقن إلى الخارج.

استقر عمر يصلي في إحدى زوايا غرفة منعزلة يبكي بحرقة ويدعو الله عله يغفر إثمه الكبير، كانت هذه هي الحال التي

أصبح عليها منذ وفاة هنادي، حمّل روحه كل الذنب، ذنب يتّم ابنته في صغر سنها، سيوف القهر تنسل من مكان لتطعنه في مكان آخر وهو يناجي ربه.

- أستغفرك يا رباه فأنت وحدك تعلم أنني ما قصدت قتلها، لم أرد سوى إخافتها لأنها .....

لزم الصمت هنيهة دون أن يجد سببا مقنعا يكمل لأجله كلماته، فلطم وجهه واستطرد بحرقة.

- بسبب حماقتي يتـّمْت رهف... والآن ستبقى وحيدة عندما أسلم نفسي للشرطة، صبرني على بعدها عني يا رب... أسألك أن لا تعاقبها بذنب اقترفته يداي.

توقفت أمواج اللوم القاسية بطرق متواصل لجرس المنزل الذي بقيت زواياه الفارغة تكرر صداه وبذات النغم، مسح وجهه وجمع شيئا من قوته المتبقية وراح يفتح الباب ففوجئ بصديقات ابنته قادمات برفقتها، قبل أن يقول أي كلمة قفزت رهف إلى حضنه مشبكة ذراعها على عنقه تبكي، لم يستطع عمر كبت مشاعره ليبادلها دموعه خصوصا عندما سمعها تقول بألم تهدج أنينه.

- لماذا تريد أن تتركني وحدي؟ لقد انتظرتك ولم تطلب رؤيتي؟ لماذا؟

نظر عمر إلى الفتيات بارتباك لذا خاطبته دنيا وقد فهمت أن هناك أمرا ما يفضل مناقشته بسرية مع هذا الأب والبنت.

- لقد أحضرنا لك رهف يا عم عمر... لأنه لا أحد غيرك يمكن أن يمسح دموعها... أما نحن فسنزور أمينة.

كان عمْر أمينة أخت أمل حينها سنة، لذا انطلقت الفتيات إلى منزل أمل لرؤيتها فيما أدخل عمر ابنته وقعدا معا حيث الزاوية التي كان يصلي عندها، أرخت رهف رأسها على صدر أبيها وخاطبته برقة مزقت صبره فارتبكت دموعه بين جفنيه.

- أبي لم تكلمني لأنك غاضب مني أليس كذلك؟ لقد كنت سبب كل شجار بينكما.
- لا... يا عزيزتي... كل ما في الأمر أنني لم أقو على النظر في عينيك الدامعتين... فلا تتحدثي بهذه الطريقة.

مسح عمر دموعها مبعدا أنظاره عنها حين أردفت...

- لن أخبر أحدا أنك من دفع أمي، لا تقلق يا أبي لأن الشرطة لن تعلم بأي شيء.

حرك عمر رأسه غير مصدق لما سمعه، تأكد حينها أن رهف فهمت كل الذي حدث، انفجر بكاءً من كلمات ابنته اليائسة لترفع خنصرها الصغير مضيفة.

- أتعدني أنك ستبقي ذلك سرا بيننا؟ لن أحتمل البقاء وحدي... لأنه عندها لن يدافع عني أحد... أرجوك لا تتركني يا أبي.

تاه عمر يومها بين إراحة روح زوجته المغدورة بتسليم نفسه للشرطة وبين التخلي عن وحيدته التي تعلقت روحه

بروحها وهي في عمر الزهور، لتعيش بين وحوش قد تستغل هوانها في غيابه، تردد كثيرا ثم أغمض عينيه برهة من الزمن وأشبك خنصره بخنصرها وابتسم ابتسامة يدرك العاقل إن رآها أنها لم تكن نابعة من القلب وأكد وعده بهزة من رأسه، وفي نفس الوقت كان يقطع وعدا أكثر سرية لروح زوجته حين قال دامعا.

- لعل أكثر ما يمكن لي أن أكفر به ذنوبي في حقك هو حماية ابنتك يا هنادي... لن أسمح لأحد بإنزال دمعتها ومهما كان السبب...

منذ ذلك اليوم بقي السر طيّ الكتمان إلى أن اختار عمر الزواج بأخت هنادي وهي رؤيا وادي التي لمس في تصرفاتها المخطط لها الحنان على ابنته وهو لا يعلم أيّ امرأة تزوج، كانت رؤيا تعرف سبب وفاة أختها، امرأة لا تتحكم بأعصابها إن غضبت، اجتاحت العقد النفسية فؤادها حتى سيطرت عليها كليا، غيرة، حقد غريب...

عدم قدرتها على الإنجاب كان السبب الرئيسي في طلاقها وفشل زواجها الأول، اضطر زوجها لتركها وبدء حياته من جديد بمجرد أن عرف بعقمها الخلقي، إلا أنها توسلت له بشدة لإخفاء هذه الحقيقة فبقيت سرا بينهما، أقنعته رؤيا يومها بأن الأمر مرتبط بمكانتها أمام المجتمع، أرادت - حسب كلامها - أن تعيش بسلام بقية حياتها، كان طلاقها أمرا غير

متوقع بالنسبة إلى عائلتها، إلى أن تزوجت عمر بعد ثلاث سنوات من طلاقها، ثم توالت الأيام لتظهر حقيقتها شيئا فشيئا.

بعد رحيل هنادي زاد اهتمام عمر برهف، لم تعد رؤيا تحتمل هذا الاهتمام فعظمت غيرتها؛ لأنها ظنت أنها ستسيطر عليه بعد الزواج، لكنه كان من النوع الصعب، شديد الغضب، مذنب تائب آمن بعظم الخطأ الذي اقترفه في الماضي، وغالبا ما كان يساعد ابنته دون الاعتماد على رؤيا بنية لم تتجاوز عدم الإثقال عليها، دون أن يشعر بالغلّ الذي كانت تبنى دعائمه خلف ابتسامتها المخادعة، تصرفاته مع رهف لم تمنعه من منح رؤيا الكثير من وقته أيضا، لم يرفض لها أي طلب كأنه يحاول تحويل أسلوب الشك الذي اتبعه مع هنادي إلى ثقة في غير محلها مع أختها، بقي يدور في ذات الدوامة حتى حلّ ذلك اليوم حين لاحظ أن شعر رهف غير مسرح فناداها.

- **تعالي يا رهف لأسرح شعرك.**
- **دعني أحْضر الدبابيس من غرفتي أولا.**

بمجرد أن خرجت رهف من الغرفة خاطبت رؤيا عمر بتعجرف بينما كانت ترتب الوسائد على الأريكة.

- **أليس لك عمل غيرها؟ يمكنني أن أسرح شعرها عندما أنتهي من عملي.**

رد عمر مازحا واضعا ملفات على طاولة إلى جانبه.

- إذا تعلق الأمر برهف فكل وقتي مكرس لخدمتها يا رؤيا.

استفزت مزحة عمر هدوءها فرمت الوسادة التي كانت بيدها أرضا وقالت.

- تتحدث كأنها كل شيء في حياتك... لم أعد أحتمل تجاهلك لوجودي هنا.
- ما الذي تقصدينه؟ وبماذا قصرت معك؟

تجاهل عمر شجارهما عندما دخلت رهف حاملة دبابيس الشعر التي اختارتها وخاطبها.

- تعالي لأرى ماذا اختارت أميرتي الصغيرة؟

- أتستفزني بكلامك هذا؟
- رؤيا ...أجلي حديثنا لأنني اكتفيت من تلميحاتك...
- وماذا ستفعل إن لم أؤجله... هل ستقتلني مثل ما فعلت مع هنادي؟

ارتبك عمر ووقف محمر الوجه موجها أنظاره إلى رهف ثم خاطبها.

- اذهبي إلى غرفتك يا رهف... سأسرح شعرك فيما بعد...

أرادت رهف الخروج امتثالا لرغبة والدها بحزن جابه خطواتها، لكن رؤيا أمسكتها من ذراعها وردت بتهور غير مبالية ببركان الغضب والألم الذي اشتعل في قلب عمر.

- لماذا تخرجها؟ لقد شهدت المسكينة موت أمها... فدعها تشهد موتي أيضا...
- هل جننت؟ أتركي الفتاة فورا ...

قال عمر كلماته صارخا ورمى الطاولة بعيدا فتبعثر ما كان عليها من ملفات وأضاف هامسا في أذنها بعدما سحب رهف الباكية إلى حضنه وأغلق أذنيها.

- إن كنت تعرفين سبب وفاة أختك، فلا تحاولي اللعب معي... لم أحتمل تأنيب أمها لها وقد كان في محله فلماذا سأحتمله من غيرها؟.. إلعني الشيطان واذهبي إلى غرفتك... سنتحدث فيما بعد.

أعاد الشجار ذكريات موت هنادي أمام رهف فارتعبت خوفا، لتصرخ زوجته في وجهه.

- إذا سأترك المنزل... عش مع ابنتك... فلست ملزمة بتحمل ذنوبك... وأنا حقا أتساءل إن كان بإمكانك تعويضها عن حنان أمها التي قتلتها.

ابتلع عمر ريقه بمرارة وأغمض عينيه ثم قال بحنق.

- انقلعي... إذا... ما الذي تنتظرينه؟
- سأنقلع ولكنك ستدفع الثمن... ستدفع ثمن ما فعلته بهنادي.

احمر وجه رؤيا وكزت أسنانها مهددة ثم توجهت إلى غرفتها وبدأت تجمع ملابسها داخل حقيبة، في حين ارتمى عمر على الأريكة يائسا يتأمل دموع رهف تنسكب على خديها، لم تزل ذاكرتها متوقفة عند آخر كلمات رؤيا، ارتعبت وهي تعلم أن الثمن الذي قصدته لم يكن سوى الدخول إلى السجن، أما عمر فاقترب منها مهدئا من روعها.

- لا داعي للبكاء... سيكون كل شيء بخير.
- سألـَتني خالتي يوم موت أمي عن الذي حدث ولأنني كنت منهارة أخبرتها بالحقيقة... أقسم يا أبي أن ذلك تم قبل اليوم الذي وعدتك فيه بـ...

تنهد عمر وقبّل جبينها ثم ضمها إلى صدره وقال مستسلما ...

- أنا لست غاضبا منك... لنترك قدرنا لخالقنا يا بنيتي.

فجأة انهز جسد رهف عندما سمعت صوت الباب يفتح، راحت تصرخ باكية في توسل أربك عمر.

- أرجوك أعدها إلى المنزل يا أبي... اِلحقها... ستبتعد أكثر... أوقفها أرجوك ...
- اِهدئي يا صغيرتي... ما الذي حدث لك؟
- ستخبر رجال الشرطة وعندها سأعيش وحيدة؟ ...أعدها إن كنت لا تريد تركي... أرجوك.

تردد عمر قبل اللحاق برؤيا، أما رهف فأمسكت صورة والدها التي سقطت بين تلك الملفات بيدها الصغيرة وخاطبت نفسها.

- **كما في كل مرة أنا هي سبب المشكلات والغضب الذي يهجم على أبي... لن يتكرر الماضي ولن تدفع المزيد من الثمن... لا مزيد من الفراق والحزن... لا مزيد...**

كان عمر يركض مناديا وقد استحى أمام الملأ عندما تجاهلت رؤيا نداءه واستمرت في طريقها، تجاوزت خطوات رهف خطوات والدها حتى تمكنت من إمساك يد رؤيا في توسل، أفلتت الخالة يدها من أنامل رهف ورفعت يدها محاولة دفعها، لتتفاجأ في ذات اللحظة بسيارة قادمة نحوهما بسرعة، ركض عمر ليجد نفسه أمام خيارين إما ابنته وإما رؤيا، وبأسرع من قدرته وثب إليهما ولكن...

عادت اللحظات بدنيا تسأل رهف بفضول.

- ما الذي حدث؟ بل من اختار العم عمر؟

تنهدت رهف بألم وهي تقول.

- لقد اختارني يا دنيا ولكن ...

أطرقت رأسها ثم أضافت تسرد ما مرّ بهم.

- بعد الحادث تركني أبي عند جارتنا وأخذ الخالة إلى المستشفى على عجل، بقيت أنتظر بخوف لن أستطيع وصفه مهما فعلت يا صديقتي... فبعد حوالي ساعتين عاد أبي ليأخذني... والغريب أنهما منذ تلك الليلة لم يتكلما عن الحادث، قلّ حديث أبي بشكل ملحوظ ولكنني لم أسأله... لأن الأهم عندي أن أبي قريب مني... مرت الأيام حتى اليوم الذي سمعت فيه الخالة تتحدث عبر الهاتف مع الطبيبة.

دمعت عينا رهف ووقفت مبتعدة حين لحقتها دنيا وقالت بحزن.

- يكفي... يمكننا أن نكمل في وقت لاحق ...

توقعت دنيا أن تستغل رهف الفرصة وتتجنب إكمال القصة، لكن رهف التفتت إليها وأردفت.

- ما فهمته من ذلك الحديث أن الخالة اتفقت مع الطبيبة لتجعلا من ذلك الحادث الذي تعرضت إليه سببا لإصابتها بالعقم بينما كانت خالتي تعاني من عقم خلقي ...

عقدت دنيا حاجبيها وقالت.

- ومع هذا الإيهام أصبح العم عمر مجبرا على إبقاءها زوجا له حتى لا يؤنبه ضميره مجددا.

أومأت رهف برأسها إيجابا معلنة استسلامها لاستراتيجية خاطئة لفتها حول نفسها تحت ما يسمى بالتضحية، كبرت غير أنها دفنت شخصيتها بقبر ضاقت زواياه، مع الأسف كان عمر هو الشخص الذي بدأ في الحفر لتنتقل المجرفة ليد ابنته ولكن بمفهومها المعاكس، بعد تلك الحادثة تجنب النبش خلف النبرات التي يسمعها خوفا من إنفلات أعصابه لسبب تافه قد يدمر جزء جديدا من قلب ابنته واستدار محاولا تغيير نمط الحياة التي كان يعيشها، فيما خاطبت رهف دنيا حينها قائلة.

- لم أقو على إخبار أبي بكل آلامي... فلو لم أكن في حياته لما تشاجر مع الخالة ولما وجدت سبيلا لبعث هذا الوهم داخله مستغلة حادثة كنت أنا وحدي السبب الرئيسي فيها ...غضب أبي واندفاعه لأجلي جعله يخسر الكثير.
- كان عليك إخباره بالحقيقة بدلا من كبت وجعك داخل قوقعة من الوهم.
- لا أستطيع فعل ذلك... هل نسيتي علم الخالة بالحادثة التي أودت بحياة أمي؟
- لقد مرّ عليها سنوات كما أنها لا تملك أي دليل، هي فقط تستغل الجبن الذي لمسته في شخصيتك... يمكننا إثبات عكسه... رهف أرجوك أعيدي التفكير.

- أعلم ذلك ولكن المشكلة هي أبي... لا يجب أن يصل ما حدث إلى رجال الشرطة لأنهم إن استجوبوه سيعترف مباشرة... كما أنه لن يتردد في معاقبتها إن عرف الأسلوب القذر الذي تتعامل به معي وأخشى أن...

تراجعت دنيا خطوات إلى الخلف مخفية يدها داخل جيبها واستطردت.

- بل أنت خائفة من غضبه عليك أيضا... لأنك أخفيت عليه معاناتك وخدعته طول هذه السنوات.

سحبت رهف أنفاسها دون رد لترد دنيا بنبرة غير مبالية ...

- لا بأس يا عزيزتي... دعك من كل هذه الأفكار السلبية... مع الأيام ستتوصلين لحلّ ما.

ثم نظرت إلى معصمها وصرخت بتوتر أفزع رهف وأنساها قصتها.

- يا إلهي... لقد سقط مني سواري الذي به خريطة الجزائر.
- ربما أوقعته عندما دفعك والد أمل.
- هلّا عدت للبحث عنه من أجلي... أرجوك فكاحلي يؤلمني.
- لكن الحافلة وصلت... لنتصل بأمل علها تلقي نظرة عندها.

- لا بأس إن انتظرنا الحافلة التي تليها... لكن ذلك السوار يحمل بطولات كفاحنا ضد الاستعمار الفرنسي وأبي حملني مسؤولية المحافظة عليه... أمل مريضة ولن أتعبها... سأعود لأبحث عنه بنفسي ...

راحت دنيا تعرج عائدة في طريقها عندما أمسكتها رهف وقالت.

- حسنا يا دنيا أعلم أهميته بالنسبة إليك... سأحاول إيجاده من أجلك... أقعدي هنا ريثما أعود.

ساعدتها رهف على الجلوس وانطلقت عائدة إلى المستشفى، وقبل أن تبتعد استوقفتها الأخيرة وتنهدت من أعماقها ثم سألت.

- لماذا لم تخبريني بهذه الآلام من قبل؟
- لأنني أعلم أنك لن تسكتي إن أخبرتك... وستخبرين أبي أو ستبذلين جهدك من أجل تغيير الحالة التي اعتدت عليها... وأنا لا أريد إيقاعك بالمشكلات... كما أنه لا أحد غيرك سيقدر التضحية التي أقدمها.

رحلت رهف مسرعة لتبتسم دنيا حين سحبت السوار من جيبها مخاطبة نفسها بكل ثقة.

- معك حق فأنا لن أسكت... آسفة يا حبيبتي لكني لن أتركك في دوامة الظلم تلك مع آخر ساعاتي معك... سأسقط مخططات رؤيا... وأكشف حقيقتها أمام العم

عمر... حتى لو تغيرت نظرتك حول شخصيتي اليوم... ستفهمين فيما بعد بأنه التصرف الصحيح.

امتلأت عينا دنيا دمعا ولما انتبهت لسيارة رضا بالقرب منها مسحت دموعها وانفجرت غضبا متناسية أمر السوار وقد تدلى بوضوح من يدها، ثم صرخت.

- ما الذي ستجنيه من وراء اللحاق بي؟ توقف عن هذه التصرفات... لا أريد رؤيتك.

شد رضا شفتيه ورد.

- لا داعي للصراخ... تعطلت سيارتي... وقررت أن أستقل الحافلة... ألديك مانع يا خانم؟
- هكذا إذا... حسنا سأريك نتيجة استغبائي... ها قد تركت لك كل المحطة ...فليس لدي وقت من أجلك الآن.

ثم أوقفت سيارة أجرة وأخذت طريقها مبتعدة فيما تساءل رضا عن سبب عودة رهف دونها، ترك سيارته مكانها وعاد مشيا إلى المستشفى القريب من المحطة، عله يجد عند رهف جوابا عما يختلج أفكار أخته وهو لا يدري أنها أيضا لا تعي شيئا.

في منزل عمر عمران

كان الكحل يرسم تفاصيل الشر بين عيني رؤيا وبريق الذهب يلمع حول رقبتها وقد توسطته خُمسة ثقل ميزانها، وتدلت من أذنيها مثيلاتها، أما معصمها فكان يصدر قرقعة الأساور كلما رفعت بذرة دوار الشمس إلى فمها الذي شعت حمرته وامتزجت

بلون السواك القاتم، كانت رؤيا تشاهد التلفاز مرتدية جبة من قطيفة حمراء اللون طالت أكمامها، وعند خصرها علقت حزمة كثرت مفاتيحها، كانت ترمي قشور البذور هنا وهناك دون مبالاة، وقد دلقت بعضا من القهوة على أطراف الطاولة التي زينت بصحن امتلأ بالفواكه المتنوعة، لمّا طرق الباب جثت على ركبتيها تجمع القشور في صينية نحاسية بينما تخفي ما صعب عليها جمعه تحت الأريكة ثم وقفت تنفض يديها مستعجلة، ولكن ما إن فتحت الباب حتى ارتخت على الجدار متذمرة.

- أهذه أنت؟ رهف لم تصل بعد... ولا تفكري في البقاء عندنا هذه الليلة.

أرجعت رؤيا الباب لإغلاقه ولكن دنيا مدت يدها وأوقفتها قائلة.

- أعرف ذلك... وقد جئت لسبب آخر.
- خيرا ...أي سبب قد يأتي بمتمادية مثلك... تكلمي وإلا فانقلعي.
- هل أتكلم عند عتبة الباب؟ إسمحي لي بالدخول على الأقل وأعدك أنني لن أتأخر.

بعد هنيهة فتحت رؤيا الباب وسبقت دنيا بخطوات متبخترة لتكلمها باحتقار.

- ماذا تريدين؟
- بصراحة... لا أدري من أين أبدأ؟

- ولماذا يا ترى؟

ردت دنيا ساخرة.

- ربما نحتاج إلى رشفة قهوة ساخنة؟

ضحكت رؤيا ثم قعدت على الأريكة وحملت صحن بذور دوار الشمس قائلة.

- لا تنتظري مني هذا... إن كنت قادمة للاعتذار بطلب من صديقتك... فاعتذارك مرفوض من الآن... ورهف ستدفع ثمن تطاولك عند عودتها هذا المساء.

ارتمت دنيا على الأريكة المقابلة وأطلقت نفس الضحكة ثم ردت.

- أعتذر عندما أخطئ... وطالما كنتُ على حق... فلا تنتظري أي كلمة اعتذار مني.

استفزت نبرتها هدوء رؤيا فاحمر وجهها سائلة.

- إذا ما الذي جاء بك؟

- لقد بت أعرف كل شيء حول ماضي رهف... وهذا لسوء حظك ...

تمعر وجه رؤيا لتضيف الأخرى في جرأة متحدية.

- نعم أتحدث عن الحادث الذي أودى بحياة والدة رهف... أقصد أختك هنادي رحمها الله، ثم قصة زواجك من عمر مستغلة براءة طفلة صغيرة... وصولا عند حادث اصطدامك بالسيارة وإنقاذ العم عمر لرهف بدلا منك.

أعادت رؤيا الصحن مكانه وأطلقت نظرة ترصد ثم ردت بتعجرف مزج بخوف كاد يفضحها .

- وأخيرا طال لسان رهف... لقد أخبرتك بكل شيء إذا.

أمام باب المستشفى وقف رضا ينتظر رهف وما إن رآها حتى ركض نحوها لتقول بارتباك.

- أهذا أنت؟ ...ماذا تريد؟... لقد تأخرت على دنيا...
- لكن لماذا انفصلت عن نيفين وعدت إلى المستشفى بمفردك؟
- لقد أضاعت السوار الذي أهداها إياه العم أحمد ولأن قدمها مصابة ذهبت لأبحث عنه ولكن دون جدوى... أعتقد أنها أسقطته في القسم عندما تشاجرت مع نور.
- هل تقصدين السوار الذي نقشت عليه خريطة وعلم بلادكم؟

ابتسمت رهف واقتربت منه سائلة.

- هل رأيته؟ أرجوك فهو كالكنز بالنسبة إلى دنيا.

قطب رضا حاجبه متذكرا كيف لوحت به عندما تشاجرت معه ورحلت، ثم قال محتارا.

- لقد كانت تحمله بيدها بعدما افترقتما مباشرة... هل أنت متأكدة أنها أضاعت ذات السوار؟
- أجل إنه ذات السِّوا...

توقفت رهف متذكرة نبرة دنيا عند آخر حديثهما، فهمت لماذا ألّفت قصة ضياع السوار، فاحمر وجهها وردت بتوتر أربك رضا.

- المجنونة... مستحيل... هل ذهبت لتواجه الخالة؟... أرجو أن أكون مخطئة... أرجوك لا تفعليها يا دنيا.
- ما الذي يحدث؟ إلى أين ذهبت نيفين؟

وهنا سحبته رهف سائلة وقد تصبب جبينها عرقا.

- أين سيارتك؟... لنلحقها فورا ...

انطلق رضا برفقتها مشيرا إلى مكان السيارة ملحا بسؤاله عن مكان دنيا وسبب الخوف الذي تملكها، لتتوقف صارخة.

- أختك تنوي تحطيم ما بنيته طوال هذه السنوات... ليتني لم أخبرها... أسرع قبل أن تقع في مشكلة خطيرة أثناء مواجهتها الخالة؟

ركبا السيارة وانطلقا بأقصى سرعة، وفي الطريق كانت رهف تشرح له كل شيء باكية، أما في غرفة المعيشة فخاطبت دنيا رؤيا.

- طال لسان رهف إلى درجة جعلتها تخبرني عن أكبر كذباتك... أصغي إليّ جيدا يا رؤيا... في كل الأحوال أنا راحلة من هنا... ولا أنوي ترك رهف في العذاب الذي وضعتْ نفسها فيه بسبب تهديداتك... ولذلك سأترك الحل بين يديك... إما أن تخرجي من حياة العم ورهف

بكل هدوء وإما أن أفضح أمر اتفاقك مع الطبيبة لإيهام العم عمر بأن العقم الذي تعيشينه منذ ولدتي كان سببه الحادث الذي تعرضت إليه قبل حوالي ست سنوات.

مع كل كلمة تقولها دنيا كانت حدقتا رؤيا تتسعان أكثر، هذا الموضوع الحساس هو خط أحمر بالنسبة إليها، لذا إتكأت على الأريكة محاولة إظهار شيء من الارتياح المزيف وقالت.

- أنت تعلمين أن قول مثل هذه الحقيقة ستجعل لساني ينطلق إلى الشرطة لأشرح لهم كل شيء عن موت أختي... وعندها سيكون موقفك أمام رهف سيئا للغاية... كما أنني لست من منعها من إخبار والدها بكل ما أفعله معها... فهي تخشى من غضبه أكثر من أي أحد آخر.

سكتت دنيا هنيهة تفكر لتستدير إلى النافذة وتقول في برود.

- وأنا لست رهف عمران يا رؤيا لأخضع لتهديد كهذا... تحاولين إقناع رهف بأنها سبب غضب العم عمر وجنونه... وهذا ما يجعلها ترفض إخبارنا ونحن الأقرب لها أي شيء عن قسوتك... الصداقة التي تجمعني برهف ستنبض في كل كيانها لترمم ما يمكن لتصرفي هذا أن يكسره اليوم... لذا فأنا لست قلقة إزاء موقفها مني أبدا... ستفهمني يوما ما.

- وأنا لن أبذل جهدا كبيرا عندما أحقق مطلبي... فبمجرد أن ألمح للشرطة عن حقيقة موت هنادي سيعترف عمر بكل شيء... ولكنك ستكونين في ورطة... الحادث الذي تعرضت إليه يومها أصاب رحمي فعلا وكل التقارير تؤكد ذلك... فمن أين لك أن تثبتي أن عقمي كان خلقيا يا عزيزتي؟

- إذا فأنت تعترفين بكل شيء؟

- لن يفيدك اعترافي بشيء لأنني سأنفيه فيما بعد يا صغيرتي... والآن انقلعي من البيت فـ......

لم تكمل رؤيا جملتها، حتى فوجئت بصوتها يتكرر وقد سجلت دنيا كل حديثهما على مسجلة صغيرة، أصيبت رؤيا بجنون مرق بين أفكارها الخبيثة مروق السهم وهي تنصت إليها تقول.

- الآن أصبح اعترافك يفيدني... لن أرحل من هنا قبل إيقاف آلامها ولو كان ذلك على حساب صداقتنا... ستبتعدين عن حياة رهف بكل هدوء وإلا...

قبل أن تكمل دنيا تهديدها قفزت رؤيا إلى سكين كان على الصحن وحملته مسقطة حبات الفواكه على الأرض ثم رفعته مضيفة.

- لن يكون لك متسع من الوقت لتُسمعي أحدا هذا التسجيل يا عزيزتي... أعطني المسجلة... لأنني لا أمزح ...

جعلت دنيا يدها التي تحمل المسجلة خلف ظهرها وهي تراقب حركات رؤيا الغاضبة تدنو منها، فيما أدار رضا سيارته إلى منعطف جانبي محاولا تجنب اكتظاظ السيارات وضاعف سرعته عله يصل إلى منزل رهف قبل الكارثة.

عبرات بريئة من عينيْ رهف زادت رؤيا تسلطا، ونفحات غاضبة من عيني عمر أسرت الطفلة بين قضبان الحزن والظلم، ليكون الجبن والخور هما المناوبين على الحراسة، فهل ستتمكن دنيا من القضاء عليهما واسترداد الكرامة والحياة الطبيعية لصديقتها؟

اتفاق قاتل أبرمته مع أحد ألد أعدائها لإنقاذ رضا من مواجهة رجال الشرطة كان ثمنه الإبتعاد التام عن أمل، ومن أجل تحرير رهف قررت التضحية بالشيء المتبقي من الصداقة التي اعتزت بها وواجهت الجميع لإبقائها راسخة.

يقال ما بعد صبر إلا فرج وها هو ذا رضا صابر على تصرفات أخته القاسية وكلماتها الجارحة، فهل سيجد سبيلا للفرحة بين ركام الفوضى ضمن الأحداث القادمة؟ أم أنها حقا لم تعد تريد التأخر أكثر عن نجمتها ....؟

الفصل رقم 11: الخيار الصعب* إختيار الكذب أم تحدي الحقيقة؟

في منزل رهف تراجعت دنيا محاولة استهداف الباب لكن رؤيا سدت عليها الطريق صارخة.

- أعطني المسجلة يا دنيا... ستجنين على نفسك بعنادك... لن تخرجي من هنا وبحوزتك ذلك التسجيل.

- لم أخاطر بالمجيء إلى هنا من أجل لا شيء... سيسمع العم عمر هذا التسجيل... ومعه سينتهي عذاب رهف...

استلت دنيا ستارة النافذة التي كانت خلفها مشتتة انتباه رؤيا وانطلقت إلى الباب، لكن ذلك لم يمنحها الوقت الكافي فقد سحبت رؤيا مئزرها المدرسي من الخلف مبتسمة، لتتفاجأ بدنيا قد خلعت مئزرها المفتوح ولكن أثناء ابتعادها عن رؤيا بخطوات إلى الخلف تعثرت قدمها بتفاحة مرمية على السجادة مما أفقدها توازنها فسقطت، لتدخل في عراك مع رؤيا التي هوت فوقها محاولة أخذ المسجلة، استغلت دنيا لحظة اهتمام رؤيا بيدها التي تحمل المسجلة وعضت الكف التي تحمل السكين مما جعل رؤيا تصرخ وقد أفلتته مرغمة، لم تنتظر الأخرى لحظة واحدة وقذفت بالسكين تحت الأريكة، إلا أن ذلك لم يمنع رؤيا من استجماع قوتها والضغط على عنق الأخرى صارخة.

- كنت أنوي أخذ المسجلة وتحطيمها، ولكنك تماديت كثيرا أيتها الحقيرة... سأجعل رهف تعيش الأمرّين، فمن جهة سيكمل عمر حياته في السجن ومن جهة أخرى ستدفن الصديقة التي لطالما افتخرت بها أمامي... ستدفنك لدرجة أنها لن تترحم على اسمك إن ذكر... كيف لا وقد حطمتي حياتها... وكنت سبب فراقها عن والدها.

كانت دنيا تقاوم بشدة لكن رؤيا تغلبت عليها بجثتها الضخمة، بدأت تضعف حركاتها حين سمعت طرقا متواصلا على الباب وخلفه علا صوت رهف الخائف.

- افتحي يا خالة أعلم أن دنيا بالداخل... أرجوك افتحي الباب.

تلك الكلمات المرتبكة ضاعفت قوة رؤيا فضغطت على عنقها أكثر وخاطبتها بنبرة فاقت الجنون.

- لا تظني أنك ستفرين مني بوصول تلك الصعلوكة.

خالت دنيا أن آخر أنفاسها ستتبع تلك الأحرف لكن قبل إغماض عينيها سمعت صوتا ففوجئت، التفتت حيث انطلق صوت رضا خلف الباب فنزلت دمعتها وابتسمت بضعف هوت بعدها أطرافها.

- أرجوك ردي إن كنت بالداخل يا أختاه... أتوسل إليك... دعك من العناد وافتحي الباب.

أظلمت الصورة أمام دنيا مرددة بضعف كلمتين " أخي... رضا "، ولعدم استجابة أحد لصوتيْ رهف ورضا توتر الأخير فسحب هاتفه لتخاطبه رهف.

- ما الذي تفعله؟

- سأتصل بالشرطة...

أخذت رهف الهاتف من يده وخاطبته باكية.

- سأخسر أبي إن تدخلت الشرطة... لن أسمح لك بالاتصال بهم...

بدأ الجيران يجتمعون حول الباب حين رد الأخ بغضب.

- ماذا عن أختي التي لم أعلم شيئا عنها بعد...؟ لا نملك الكثير من الوقت...

وهنا أدارته رهف إلى حيث لا يمكن لأحد سماعها وهمست.

- أنت أيضا دخلت إلى الجزائر بجواز سفر مزيف... لن يكون تدخل رجال الشرطة من مصلحتك... اكسر الباب... ودعنا نحل الموضوع بعيدا عنهم.

دون تردد رمى رضا بجسده القوي على الباب فكسره بعد محاولات متتالية، ليصابا بالدهشة وهما ينظران إلى جسد دنيا المرمي أرضا تماما في المكان الذي ارتمت عنده هنادي قبل سنوات، ذلك المنظر جمّد الدم في عروق رهف فمكثت مكانها،

وجود رضا مع رهف أفزع رؤيا فانطلقت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها متصلة بأخيها وقد علا صراخها.

أما رضا فركض نحو دنيا ورفعها من الأرض محاولا إيقاظها.

- أرجوك افتحي عينيك يا نيفين... هيا.

ثواني ثم فتحت عينيها بين أحضانه فسعلت بقوة سائلة على عجل.

- مسجلتي... أين هي ؟

لم يتمالك رضا مشاعره حين ضم أخته إلى صدره، بينما كان كل اهتمامها على المسجلة فتشبثت بها بقوة، ليخاطبها.

- غريب أمرك... كيف تطلبين مني التوقف عن اللحاق بك رغم كل المخاطر التي تلتف حولك؟ لقد خلت أنني خسرتك أيتها المتهورة.

ضحكت دنيا بصعوبة أو لنقل ابتسمت ابتسامة تلاها صوت باطني لم يفهمه السامع أهو بكاء أم ضحكة أم فقط تبعات الألم الذي أصابها أثناء الخنق، ثم قالت.

- ألستُ ابنة آغا؟ بعض من تهوّري هو منكم أيضا... شكرا لقدومك... أنا حقا ممتنة للحاقك بي هذه المرة.

لم ير رضا أمامه سوى تلك البسمة المرسومة على وجهها، ثم رد عليها بذات النبرة وساعدها على الوقوف.

- ومن حسن حظي أنني لحقتك في الوقت المناسب.

التفتت دنيا ورضا إلى رهف التي جثمت مرتعشة عند عتبة الباب، ليوقظها صوت العم عمر المرتعب من شرودها.

- ما الذي حدث هنا يا ابنتي ؟ لماذا يجتمع الجيران عند الباب؟ ثم أين رؤيا؟

لم ترد عليه رهف بأي كلمة في حين رد رضا بحزم.

- زوجتك حاولت قتل دنيا لولا وصولنا في الوقت المناسب.

ارتعب عمر وخاطب ابنته.

- ولماذا قد تفعل رؤيا هذا؟ ثم من تكون حضرتك ...؟

نظر رضا إلى دنيا دون أن يقول أي كلمة، وإذ بها تتقدم من عمر بخطى متثاقلة لتقول.

- لا تسأل كيف حدث هذا يا عم عمر... ولكنه ...

سكتت هنيهة لتردف بلسان لم يعتد قول ما سيقول.

- إنه أخي... لذا لا تقلق بشأنه ...

ابتهجت جوارح رضا حين سمعها تقول تلك الكلمات، لقد خفق قلبه فرحا وبرقت ملامحه بنور بهيج أما دنيا فاستدارت إلى رهف وأرتها المسجلة مردفة.

- أعلم أنك غاضبة مني الآن... ولكنه التصرف الصحيح... يجب أن يعرف العم عمر كل شيء عن حياة العذاب التي تخفينها عنه ...

أرادت دنيا تشغيل الحوار الذي سجل وما إن شغلته حتى ضربت رهف المسجلة من يدها لتسقط بعيدا، تدخل رضا ساحبا أخته في حين صرخت رهف.

- لماذا فعلت هذا... كان عليك أن لا تتدخلي؟ حياتي لا تخصك يا دنيا... لن أسامحك إن افترقت عن أبي .

لم تقل دنيا شيئا في حين رد رضا في حنق...

- رهف... انتبهي لكلماتك... ستندمين فيما بعد ...

سحبته دنيا رافضة تدخله، بينما عادت رهف أدراجها إلى غرفة رؤيا وراحت تخاطبها متوسلة.

- أخرجي يا خالتي... لا أدري ما الذي قالته دنيا ولكن كوني متأكدة أن حياتنا ستبقى على نغمها الذي كانت عليه... المهم أن لا تتصلي بالشرطة... يمكننا حل المشكلة بأنفسنا... أتوسل إليك ...

بترت رهف كلماتها بصفعة قوية من دنيا وهي تقول غاضبة.

- استيقظي... هل جننت؟... حتى لو وصلت الأخبار لرجال الشرطة فالعم عمر لم يتعمد فعل ما فعل... لقد كان حادثا لا أكثر... فلا تخافي من أحد... لم أكن أعلم أنك جبانة لهذه الدرجة.

فتحت رؤيا الباب مرتدية حجابها ليقف رضا عند دنيا خوفا من أي هجوم غادر في حين أمسكت رهف يد رؤيا وردت...

- الشخص الوحيد الذي كان علي الخوف من تهوره هو أنت يا دنيا... أكبر خطأ ارتكبته في حياتي هو أنني وثقت بقدرتك على كتمان سري... أيا كان الذي أعيشه... فأنا راضية بكل تفاصيله... أخرجي من أمامي لأنني لا أريد رؤيتك بعد اليوم ...

- رهف... أنت ...

- قلت لك أخرجي... ارحلي عني ...

طأطأت دنيا رأسها محاولة كبت دموعها وانطلقت خارجة من المنزل بخطوات متثاقلة، تراجع رضا عن اللحاق بها لما شعر بحجم الحرب التي تعيشها مشاعرها، ظل يراقبها تجري اتصالا هاتفيا وردت بعدما تنهدت بصمت.

- ... هلا قابلتني، أنا الآن قرب منزل رهف... أراك عند ساحة باب عزون... يا هيثم.

ثم أكملت مشيتها المترنحة مجابهة ألم كاحله، دمعة الفراق التي نزلت من عينيها كالجمر بدأت تروي قصة جديدة، فأي جديد سيحمله موعد عقدته دنيا مع هيثم الذي لم يسمع الكلمات جيدا واتجه إلى منزل رهف للقاء أخته.

قبل مغادرة رضا منزل رهف فوجئ برؤيا تخاطبها بنبرة مستفزة وقد سكن صوت عمر طوال تلك الدقائق مما جعلها تعتقد أنه لم يصل بعد.

- تلك الخرقاء ستدفع الثمن... أين هي المسجلة؟ يجب أن لا يسمع عمر ذلك التسجيل... هذا إن لم ترغبي في ابتعاده عنك.

ما إن دخلتا غرفة المعيشة حتى اصطدمتا بالمسجلة بيد عمر، ظل يصغي إلى ذلك التسجيل ويكرره غير مصدق، كأنه داخل سجن خانق مسوّر بالخيبة وقد داست أقدام المذلة على حاضره بعنف لا نهاية لألمه، بعد لحظات سكنت فيها أصوات الجميع وقف منهارا واتجه إلى رؤيا وقال دون تردد مغمضا عينيه...

- أنت طالق... انقلعي من البيت فورا.

تشبثت رهف بذراع والدها متوسلة.

- أرجوك لا تفعل هذا يا أبي... من أجلي ...

- يكفي يا رهف... لم تستشيريني عندما اتخذت قرارك الظالم في حق نفسك... والآن أنا لست مضطرا لأشاركك قراري... وليحدث ما يحدث... لا أريد أن أراها ثانية.

- كل هذا بسبب تسرعها... لا... هو بسبب حماقتي حين أخبرتها... لا أدري فيما كنت أفكر لحظتها ...

ظل رضا ينصت إلى كلمات رهف مستاءً ليخاطبها الأب مشفقا.

- ألهذه الدرجة صعب على لسانك نطق اسمها ؟
- لقد تسرّعَت بمواجهتها للخالة... وهي تدرك بأننا سنفترق بعدها.
- أكنت ستقولين هذا الكلام لو أن رؤيا نالت منها ووجدْتِها جثة هامدة؟.. أعيدي ترتيب أفكارك يا رهف... إذ يبدو أن دنيا حطمت جدران الصمت التي كانت تعيقك... ولكن لترتد ضدها بدلا من الوقوف إلى جانبها.
- لكنني لا أريد أن أفترق عنك أيضا ...
- لقد شككت عدة مرات بأن هناك مؤامرة ما تحاك خلف ظهري... لكنني لم أكن أملك الدليل لإيقاف رؤيا أمام كذباتك المتواصلة، لقد أجدتي الدور... وشاركتها

ألاعيبها ضدي... الدخول إلى السجن أهون علي من رؤيتك على هذه الحال.

- لكنني كنت راضية بتلك العيشة.. لقد تحملتَ الكثير بسببي... فأين الذنب إذا ضحيت ببعض من راحتي من أجلك؟

- ما تسمينه أنت تضحية يسميه من يحبك جبنا وهوانا.. أتخضعين لتهديد طال جرما أنا من اقترفه ...؟

حضنت رهف والدها باكية فمسح دمعتها كأن تلك الأنامل تسحب عبرات الندى من خدّ رهف لتسقي بها جفون الأب الحيران بين طمأنة ابنته وبين إمكانية تركها وحدها في الأيام القادمة وخاطبها.

- لا تقلقي... أعدك أنني سأبذل جهدي حتى لا نفترق... لكن دعيني أقرر القرار الصحيح وأكمل ما بدأته صديقتك... من حسن حظي أنها كشفت حقيقة رؤيا... حتى أضع حدا لكل هذه الأكاذيب.

رسمت على شفاه رضا ابتسامة إعجاب واحترام لهذا الأب، ليتفاجأ به يسقط أرضا بعد أن تلقى لكمة قوية على وجهه، فصرخت رهف وركضت باتجاهه ليلحقها رضا بتوتر، وإذ به الخال يصرخ.

- أيها المجرم... قتلت أختي قبل هذه السنوات والآن تطلق الأخرى... خسئت إن ظننت أن الرجال انقرضت من عائلتنا.

- ستدفعين ثمن ثرثرتك غاليا يا رهف...

خرجت رؤيا مع أخيها من البيت لتلحقهما رهف محاولة شرح حقيقة الموضوع.

- أبي لم يفعل ذلك متعمدا يا خالي... لقد كان حادثا لا أكثر.
- أغلقي فمك يا رهف... وتتجرئين على رفع صوتك في وجهي... لقد تسترتِ على قاتل أمك طول هذه المدة.
- قلت لك أبي لم يقتلها ...

لحق رضا وعمر رهف إلى الشارع، ولما لم يعتد الخال تلك النظرات الجريئة منها زاد غضبه فرفع يده ليصفعها مستغلا صمت عمر ولكن رضا أمسك يده بقوة، فاستدار الخال إليه ورد باحتقار.

- لا تتدخل... فلا شأن لك بالعائلة... ابتعد من أمامي... قلت لك أغرب.

أمر الخال رؤيا بركوب السيارة لترحل مبتعدة، وفي غفلة هجم رجلان قدما مع الخال على رضا وأحكما قبضتهما عليه بينما أمسك الخال ذراع رهف بقوة، في تلك اللحظات كان عمر يتذكر كلمات رؤيا في ذلك التسجيل عندما قالت لدنيا بأن أكثر ما تخشاه رهف هو غضب والدها فقرر التريث هذه المرة وترك عتاب الخال يستمر.

- أعلم أن كل هذا حدث بسبب رفقتك لتلك الفتاة... ألم تعديني بترك صحبتها هذا الصباح... ؟ تكلمي...

- مهما كان الذي أمرّ به... ومهما عظم غضبي عليها... لن أستطيع محو دنيا من حياتي... كل العهود والمواثيق تبطل إن تعلق الموضوع بصداقتنا.
- إذا إليك ما ستجنينه من وراء عنادك ...

رفع الخال كفه وصفع رهف حتى اصطدمت بالجدار بقوة، وما إن رآها عمر حتى وقف وقد ثارت ثائرته من جديد، أمسك الخال من رقبته صارخا.

- أترفع يدك على ابنتي أيها الوغد؟ لقد تجاوزت حدودك.
- إن أردت القتال فتفضل... لن أسكت أبدا... وابنتك تحتاج لمن يعلمها مبادئ الأخلاق ...
- ابنتي لم تفعل أي شيء سيء... واليد الظالمة التي ترفع عليها بحضوري أكسرها.

التحم الرجلان قتالا بالأيدي لم يستطع الجيران فكّه، وفي تلك الأثناء كان رضا يحاول فك نفسه من الرجلين، بينما حشرت رهف رأسها بين ذراعيها متذكرة كلمات رؤيا لما أخبرتها أنها سبب جنون أبيها وإجرامه فأضحت ترتعش بشكل مخيف، وهنا وصل هيثم ففوجئ بالمشهد العنيف، ظن أن دنيا وسط الضوضاء لذا ركض نحو الحشد بحثا عنها، عقد حاجبيه لما رأى رضا يتلوى محاولا فك نفسه، رغم التقاء نظراتهما إلا أنه لم يتدخل، ولما تغلب عمر على الخال وأسقطه أرضا ترك الرجلان رضا وتهجما على عمر لمساعدة رفيقهما، ما إن تحرر الأخير حتى ركض باتجاه

رهف الجالسة بخوف بين الأقدام الملتحمة لإبعادها عن الخطر، أبقاها عند عتبة باب منزلها ثم خاطبها.

- لا تقتربي منهم... سيدعسك الأوغاد، ثم لا تقلقي لأنني لن أترك والدك وحيدا... أعدك.

تهجَّم رضا على الخال ورجاله وقد استقووا على عمر بعددهم، وأثناء الاشتباك هجم عليه الخال من الخلف مباغتا فصرخ الملأ محذرين، ولكن المفاجأة أن هيثم تقدم وهاجم الخال بكل قوته، عندها وقف رضا وانقض على الآخريْن واستطاعا التغلب عليهم بعد انضمام هيثم، فعاد الخال ورفيقيه إلى السيارة، فيما انهار عمر على قدميه، لتركض رهف إلى حضنه خائفة، و يسأله رضا وقد سال الدم من فمه.

- هل أنت بخير؟
- أجل... لولا مساعدتكما... لما تمكنت منهم... شكرا لكما ...

حضن عمر ابنته مطمئنا، فيما سحب هيثم رضا وخاطبه على انفراد.

- أين دنيا، وما الذي حدث هنا؟
- القصة طويلة... لكنها رحلت قبل قليل وأعتقد أنها رجعت إلى بيتك ...

صمت رضا برهة من الزمن وأضاف.

- أشكرك على المساعدة... لقد أنقذت حياتي.

ابتعد هيثم رافضا الرد، وفي تلك اللحظة رنّ هاتفه فجمع رضا قوته لسماع حديثه من الخلف.

- أين أنت يا هيثم؟ لقد قلت لك قرب ساحة باب عزون... وقد تأخرت.
- ما الذي تفعلينه في ساحة باب عزون؟ لم أسمعك جيدا وظننتك عند رهف... سآتي حالا.

حينها عرف رضا أن هيثم ذاهب ليقابل دنيا فقرر اللحاق به، لكن رهف أوقفته متوسلة.

- لو سمحت يا رضا ساعدني لأنقل أبي إلى المستشفى... يجب أن تضمد جراحه.
- أنا بخير يا ابنتي... لا تتعبي الرجل فيكفي أنه تلقى ضربات موجعة بسببي.
- أي تعب يا رجل... ابنتك محقة، يجب أن تتلقى العلاج وفي النهاية... أنا أيضا سأمر على المستشفى.

ابتسم رضا بطيب خاطر وساعد عمر على الوقوف، لما شغل تفكيره سبب لقاء دنيا بهيثم تعمد المرور في طريقه على ساحة باب عزون، ليلمحها من بعيد واقفة عند شجرة و قد قطعت نظراتها الشاردة قلبه، فيما راح يتساءل عن القرار الذي ستتخذه أو ربما اتخذته؟

أطلّ المساء بألوانه القاتمة، سكونه وغموضه على الجزائر العاصمة، والحركة تنسل من الساحة إلى المضاجع أو تقعد

وتجلس بهدوء حول المدافئ وتلف حولها اللحاف في أحيان أخرى، لنطلّ معه على منزل سي أحمد حيث كانت فاطمة تبكي بحرقة وهي تتوسل لسي أحمد الجالس في زاوية مظلمة من الغرفة، وكتلة الغضب المشحون بالألم تتخبط داخله.

- اذهب يا رجل وابحث عنها، أخشى أن تصيب نفسها بمكروه... حديث قلبي لا يطمئن.
- مستحيل يا فاطمة... لن أؤثر على قرارها... لو رأيتِها كيف تجاهلتني البارحة؟... أحسست بألم لم يسبق أن أحسست به ...
- كيف تقول ذلك... تلقيها للحقيقة بتلك الطريقة أثر في مشاعرها... سأبذل جهدي كي تبقى معنا فقد أرضعتها من حليبي وهي ابنتي أيضا... حتى أنني رأيت هيثم يبكي بعيني وعندما رآني تظاهر كأن أحدا ما اتصل به وخرج مسرعا... ستظلم أركان بيتي إن رحلت دنيا إلى أولئك الذئاب، كيف سيطمئن قلبي والموت يلف بها من كل جانب... أخشى أن يتمكن منها ذلك الآغا الظالم.

لما طرق الباب ركضت فاطمة لفتحه بعدما مسحت دموعها وقالت متحمسة.

- دنيا...

تحسرت فاطمة وتركت مقبض الباب عندما رأت هيثم وحيدا.

- أهذا أنت يا هيثم؟ ظننتك هيَ.

بلغ بها الضيق أشده واستدارت لتطلّ عليها دنيا من خلف هيثم باسمة.

- وأنا أيضا هنا يا أمي.

وقف سي أحمد بمجرد سماع صوتها بينما حضنتها فاطمة باكية، أما بطلتنا فظلت تنظر بألم إلى دمع والدها، لما وجدت أسماء أختها عند الباب قفزت فرحا وعندها انحنت دنيا لحضنها، فيما وجهت فاطمة إلى سي أحمد كلمات تحدي مستفزة.

- ألم أخبرك يا رجل أنها ستعود إلى البيت؟ هي لن تتركنا مهما حدث.

زادت حرقة دنيا وخشخشت ضلوعها المتألمة، استمرت بخطواتها حتى بلغت والدها مقبلة يده ثم حضنته وهو الذي لم يبعد أنظاره عن قسمات وجه هيثم الحزينة، خبرة سي أحمد أكدت له أن هناك ما سيُقال... وبالفعل، خاطبت دنيا أسماء.

- هيا يا عزيزتي انطلقي إلى غرفتنا... وسألحقك بعد لحظات ....
- لماذا؟ دائما ...تجبرونني على الخروج... عند كل حديث مهمّ... فعمري أربع عشرة سنة... وليس أربع سنوات ...

ضمّت أسماء حاجبيها بغضب وقد احتارت دنيا في التعامل معها... لذا خاطبها هيثم بعدما وضع يده على كتفها مما أعاد الاضطراب مجددا على محيا فاطمة.

- دعيها يا دنيا... هي أيضا يجب أن تسمع قرارك... وما الذي تريدين قوله للجميع بعد اتصالك؟
- إذا هي من اتصلت بك... ظننتك تحاول إخفاء دموعك عني.

نظرت دنيا إلى هيثم فأحنى رأسه على صدره متهربا فيما شوشت تساؤلات فاطمة أفكارها، قعدت على الأريكة فتبعها الحاضرون بتوتر لتبدأ الحديث جامعة كل قواها.

- نعم أنا من اتصل به يا أمي؟ لأنني أثق به وبكل كلماته... لطالما كان وسيظل سندي في الحياة... لقد عشت برفقتكم ثمان عشرة سنة... عشتها في أحضان الجزائر وبين عائلة علّمتني كيف أكون مميزة بأخلاقي... بل كيف أكون بعزة نفسي مثلا يحتذى به.

قاطعها سي أحمد وقد بدأ الشك الذي لفّ قلبه ينتقل إلى ملامح وجهه.

- وما مناسبة هذا الكلام؟... نحن لا نريد مثل هذه المقدمات... فنفس الأخلاق التي شربت من أصالتها شربها هيثم قبلك... وسكبتها بنفسك في وعاء شربت منه أسماء بعدك.

مطـّت دنيا شفتيها متألمة وقالت.

- أرجوك يا قرة عيني... دعني أكمل... لو سمحت... فأنتم تعرفون جيدا أن روحي وعقلي وكل جوارحي معلقة بهذه الأرض وأهلها... كما تعرفون... ليس من طباعي نسيان من منحني كل شيء عنده من حب، مودة، تربية حسنة وقيم الدين المنصف، أنتم من غرس بقلبي حب البلاد... ربما تبيّن لي أنني لست جزائرية ولكنني لن أنساها وستظل أمي التي رعتني وأعطتني من خيراتها ما أعطته أبنائها دونما أي تفرقة ...نعم، أبي الذي كان يعمل من أجل تحقيق طلباتي ولم يبخل عليّ بأي شيء... أمي التي كانت تسهر عند مرضي وتميزني عن هيثم وأسماء... بل كانت رفيقة ألمي وأسراري... أما أخي فكنت ألمس حنانه وطيبة قلبه في كل مرة أواجه فيها ألما، كان يتحكم بكلماته عندما يغضب كي لا يجرحني بخناجر هذه الحقيقة... وربما كي لا يفقدني أيضا... أسومة التي عشت معها الفرحة والأمل... أختي التي كانت تقلدني في كل تصرفاتي...

ثم ابتسمت ماسحة دمعها وأردفت مازحة.

- لطالما كانت تنتظرني عند عودتي لتزفني بأخبارها وأخبار كل الحي.

ضحكت أسماء بينما حضنتها دنيا بذراعها والدمعة تنزل بأسى مكملة.

- سأشتاق كثيرا إلى تفاصيل هذا البيت وأهله... حقا لن أجد عائلة بمثل طيبة وأصالة هذه العائلة.

تنهد سي أحمد مرخيا عضلات وجهه، فيما فزعت فاطمة وردت مقتربة منها.

- لا تقوليها يا ابنتي... فنحن أيضا لن نجد ابنة بمثل حنانك... كيف سترحلين إلى أشخاص وصفتهم والدتك كأنهم في غابة يأكل فيها القوي الضعيف... ضحت والدتك لتنقذك من الموت... والآن تعودين لهم بقدميك ...إنه التهور بعـ ...

قاطع سي أحمد زوجته وقد فهم نهاية الكلام، لكنه أراد سماعه بصوت دنيا واضعا مشاعره على أحد جانبيه معلقا وعده للعم سمير بين حاجبيه وصرخ.

- يكفي كلاما يا فاطمة... أكملي يا دنيا.
- آسفة يا أمي... ولكنني لن أستطيع إكمال حياتي بشكل طبيعي هنا... لقد انتشر الخبر بين الجميع... صحيح أنني أعرف الحقيقة كاملة ولكن من سيصدقها؟ ربما أنا قوية وأستطيع تحمل الكثير لكنني لست قادرة على تحمل كلام الناس ونظراتهم القاسية.

ضرب هيثم قبضته بالطاولة مغتاظا وصرخ.

- إذا تهجّم أحد ما على عرضي سأقطع لسانه ليكون عبره لغيره... أعدك يا دنيا لأذبَحنَّه ولن أسكت أبدا وأنت تعرفينني جيدا... فممن أنت خائفة؟

ابتسمت دنيا وقد تأكدت أنها اتخذت القرار الصائب فصمتت هنيهة، ولكنها غالبت مشاعرها مكملة.

- من بين الأسباب التي جعلتني أختار الرحيل هو أنت يا هيثم... فأنا أدرك أنه لا بدّ أن يثرثر شخص ما أو يرمي بالكلام على العائلة التي ربتني... وأنت سريع الغضب وقد تصبح مجرما من ورائي... لا... هذا الذي لن أسمح به... كما أنني لن أستطيع الاستمرار مرتاحة وقد علمت بأمر تلك الاتفاقية الظالمة في حقي... سأكون الأمل الجديد لهذه القصة التي اختارني القدر بطلتها دون أن يستشيرني... وإن كان بعض ساكني المكان الذي سأذهب إليه كما وصفتم، فكونوا على يقين بأنني لن أكون ممن يضعف الحق فيهم وسأبقى قوية طالما كنت على حق... لقد واجهت بعضهم هنا ولن تكون مواجهتي لهم مختلفة... ثم إنني وبعد أن عرفت سبب بعدي عن التي أنجبتني وكيف ضحّت بحياتها من أجلي ورضا...

نظرت إلى والدتها وأمسكت يدها مرتعشة ثم قالت.

- بصراحة ...انتابني الفضول لمعرفة هذه المرأة... لا أدري ولكن جانب مني يريدني أن أقترب أكثر حيث هي... أكد

لي رضا والعم سمير قصة مرضها... ولن أسامح نفسي إن ماتت قبل رؤيتها...

ابتلعت دنيا ريقها متألمة وأردفت.

- أريد أن أشفي وجع فراقها الظالم ولو لأيام أو ساعات... ولكنني أعدكم بالعودة ...

أنزلت فاطمة رأسها فيما سأل سي أحمد.

- هل أخبرتهما بقرارك؟ أقصد صديقتيك.
- لا يا أبي.. ولن أفعل... سأضعهما أمام حقيقة رحيلي مباشرة... سيتفهّمانني فيما بعد...

وقفت فاطمة ممسكة كتفيها دامعة العينين.

- أنصتي إليّ جيدا يا دنيا أنت ابنتي وقد أرضعتك ذات اللبن الذي أرضعته لهيثم وأسماء... لذا ستظلين دائما معنا وصورتك لن تفارقنا... ولكنني أطلب منك طلبا أخيرا أرجوك ابقي معنا حتى موعد رحيلك لا تتهربي منا أكثر.

ابتسمت دنيا وحضنت والدتها بكل قوتها ثم قالت.

- وهل لي مكان آخر أذهب إليه يا أماه؟

ثم ذهبت إلى غرفتها تجمع أغراضا متعلقة بروحها، ومع كل قطعة تحملها تأخذها الذكريات لأجمل اللحظات، أخذت الدموع تنسكب من عينيها وتأبى التوقف إلى أن حملت السوار الذي نقشت عليه خريطة الجزائر فأخذت تنظر إليه متذكرة أيام الاحتفالات الوطنية مع صديقاتها، جعلته يحضن معصمها ثم

حملت الهدية التي أعطتها أياها أمل وتذكرت كيف سقطت من يدها وانفصلت الوزة التي بها حرف **D** عن الوزتين اللتين بهما حرفي **(A/R)** وفهمت أن تلك لم تكن سوى إشارة لفراقها عنهما، وفي تلك الأثناء كان رضا متسطحا على فراشه يرقب نافذة منزل سي أحمد العلوية التي كانت تقابله، تذكر كلمات دنيا عندما ابتسمت فابتسمت أساريره ولكن فجأة صدر صوت سعال حاد من العم سمير فأنار الشاب الغرفة على عجل وهنا ذعر عندما رأى الدماء تسيل من فم الشيخ فهرع إليه وأمسكه مخاطبا.

- ما الذي يحدث؟ هل أنت بخير؟
- أنا بخير... أعطني دوائي من الدرج الذي يجاورك.
- يجب أن آخذك إلى المستشفى.
- قلت لك أنا بخير يا آغا... قدم لي الدواء وسأرتاح.
- لكن الدماء تسيل من فمك... كيف ستكون بخير؟ قم ولا تمازحني يا رجل.
- لا تقلق فقد عضضت شفتي... والآن هلا أعطيتني دوائي ...

انحنى رضا بقلق إلى الدرج وأخذ الدواء ثم سكب الماء وقدمه إلى العم، ليعيد السؤال ثانية.

- هل حقا لست بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى؟

- سلمت يا آغا... ولكن لا شيء يدعوك للقلق... لذا لا تخبر أحدا بما حدث الآن.
- تقصد أحمد؟... تفكر فيه حتى بعد الذي سمعته منه البارحة؟
- وبمن سأفكر إن لم أفكر في رفيق دربي يا آغا... هيا عد إلى فراشك وسأكون بخير هذا الصباح.

من بين غيوم اسودت كثافتها سُمعت زهزقة للعقرب البشري أثناء حديثها عبر الهاتف مع حميد، كانت مصممة أشد التصميم على تفرقة الصديقات انتقاما من دنيا لتقول.

- ينبغي أن لا نقف عند هذا الحد، بل سنواصل المسيرة للأمام... المهم أن أبعدها من أمامي.
- منذ زمن وأنا أبحث عن سبب واحد لأبعد ابنتي عنها وها قد وجدتِه... أحسنت فعلا.
- لقد قلت لك اعتمد عليّ... أنا التي تعرف كيفية إبعادها... ليس من حياتنا فقط بل من الجزائر كلها.
- لها أخ قوي لا زال خدي يؤلمني... ولكن لماذا هربتِ؟
- لن أخاطر بحياتي بوجوده... نظرات تلك المتوحشة ترعبني فكيف إذا كان شقيقها بقربها... في كل الأحوال ما فعلته ليس هربا بل هو انسحاب مؤقت... ولكن أخبرني... لماذا لم تقدم شكايتك للشرطة بعد تهديدات ذلك الشاب... لقد كاد يدق رقبتك يا رجل؟

- لم أشأ المخاطرة وأنا في مواجهة عناد تلك المجرمة... فبعد أن خرجت لحقت بي ووعدتني أنها ستبتعد عن أمل إذا تراجعت عن التوجه إلى الشرطة... لن يطول بقاءها عندنا.

لم تقل نور أي كلمة وضمت شفتيها ساخرة حين صرخت أمل على والدها القريب من باب غرفتها...

- ما الذي تهذي به؟ من المستحيل أن ترحل دنيا وتتركنا ...

مط حميد شفتيه مللا وقال ملوحا.

- في النهاية اختارت إنقاذ شقيقها من السجن والمقابل هو التخلي عن صداقتك... لذا استيقظي وافتحي عينيك أمام حقيقة تلك الفتاة اللعينة يا أمل.
- لن أصدقك مهما قلت... دنيا ليست ممن يجعل من الصداقة مكيالا للمساومة ومهما كان السبب.

عادت أمل إلى غرفتها منزوية بنفسها، رغم كل اليقين الذي اكتسح قلبها حول زيف كلام والدها إلا أنها لم تعلم لماذا سيطرت عليها أحداث ذلك الحلم الذي رأته فجأة، لم تجد تبريرا لدموعها ولا لآلامها.

على الرغم من مرور الزمان فإن معتز أثبت أنه الأخ الروحي لمنير، بعد وفاة والدته وعمره لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة احتضنته عائلة معتز كأنه فرد من العائلة، وذلك بعد اختفاء والده وانقطاع أخباره منذ فترة طويلة، وقد اعتاد الشابان على

السهر عند زاوية الحي، ظل منير يحفر الأرض بطرف حذائه الرياضي ثم رمى حجرا بعيدا وقال بغضب.

- لا أدري لماذا؟ ولكنني تذكرت كل شيء دفعة واحدة.
- ما علاقته بهذه الأحداث؟ تتشابه الأسماء يا أخي... فلا تربط كل شيء سيء بهذا الاسم، ثم كيف تجرأت وذهبت إلى المستشفى؟... لا أحد يعلم بأنك معجب بها منذ فترة طويلة وسيعتقدون فيك سوءًا... آسف ولكنك أخطأت.
- لم أذهب وحدي... ثم إنني انتظرتها مدة لأتقدم لخطبتها ولكن ترسيمي في الثانوية ذاتها عقد مشكلتي... أظن أن والدها يسبب لهم مشكلات في المنزل لأن دنيا كانت ترد عليه بكل جرأة... هي تهتم كثيرا لمشاعر صديقتها وإن كان إيذاءه سيؤذيها ما تصرفت ذلك التصرف... كما أن تلك النظرة أعادتني دهرا إلى الوراء.
- ألا يوجد غيرها فتاة يا صديقي... ابحث عن غيرها... على الأقل أرح بالك...

قعد منير بيأس وطأطأ رأسه مكملا.

- بالنسبة إليّ... لا يوجد... لا أعلم ماذا يحدث لي عندما أراها؟... أشعر أن قلبي لا يريد غير أمل يا صديقي... ومهما كان الثمن.

ربت معتز على كتف منير وقال ناصحا.

- لكن عدني... لا تتدخل بوالدها؟... ابتعد عنه قدر المستطاع... لأنك قد تجرم في حق أي شخص يشبه بصفاته صفات والدك...
- لا تقل والدك أرجوك... لقد حطم كل شيء بذنوبه...

تململ منير مضيفا.

- أنت تعلم أن جميع الطلبات التي قدمْتـُها رُفضت بشكل غريب رغم أن معدلي كان ممتازا... وكان يجب عليّ أن أجد عملا ...ليس من اللائق أن يبقى والدك يصرف عليّ... يكفيه تعبا... لقد حواني وقد رفضني من يتوجب عليه هذه العناية.
- ما هذا الكلام يا منير؟ فوالدي يعتبرك ابنا له... لذا أغلق أبواب الماضي وافتح لك مجالا للسعادة... فرصة واحدة يا رجل.
- على كل تصبح على خير... غدا لدي عمل وقد تأخر الوقت.

رحل منير ليزيد صمت الليل من ألمه...

مضت تلك الليلة

باختلاف المشاعر التي ملأت القلوب...

جدران تبنى هنا لتهدم هناك ...

ويَدفِن الردم قرارات كثيرة

يضيق نفس أغلبها بلا استدراك...

فلا تنجو منها إلا التي واجهت كل الارتباك...

قرارات تختلف كل الاختلاف... تُعقد وتفكك ...

تردد اجتاح قاعدتها وأمل تربع على عرش مشترك ...

ليجد الرائي نفسه بينهما بعقل غير مدرك ...

الدرب محفوف بالمخاطر ومحاط بأسلاك من الشك...

هو متأكد أن محاولاته ستجعل قلبه منهك ...

يضحك مستسلما وينسحب... لكنه غير قادر على التحرك...

لا مفر من تلك الطريق إلا بالمضي إلى القمة ...

فإما أن يكون الملك ...

وإما أن ينهار به المسار

دون أن يجد حبلا بطرفه يتمسك ...

بعد السابعة صباحا استيقظ رضا على صوت طرق متقطع ليتبعه العم سمير وقد بان التعب على ملامحه، وقف الشاب مرتديا معطفه وسأل.

- من يمكن له أن يطرق بابك في هذا الوقت المبكر؟

نظر العم سمير إلى الساعة ورد مازحا.

- عن أي وقت مبكر تتكلم يا آغا... لم يحدث من قبل أن بقي باب دكاني مغلقا حتى هذه الساعة... لا بد أنه أحد الجيران...

نزل العم سمير الدرج ففوجئ بدنيا واقفة تحمل كيسا على استحياء، فقال مستعجلا.

- ... خيرا إن شاء الله... أقصد... أنني لم أعتد زيارتك في مثل هذه الساعة.

- ... أريد الحديث مع رضا... أما زال في البيت ...

أطل رضا من العلية ورد عليها مضطرب الصوت ...

- أنا هنا يا نيفين... تفضلي.

نظرت دنيا إلى العم سمير فأشار إليها بيده مرحبا لذا صعدت بهدوء حتى غدت داخل غرفة لم تدخلها منذ سنوات، راحت تتأمل الجدران ولحظات لعبها قرب العم سمير وسي أحمد وهما يتبادلان الحديث ويرشفان القهوة أحيانا والشاي أحيانا أخرى، ليسألها رضا بعدما طال صمتها.

- خيرا... لقد أقلقتني بصمتك... هل حدث شيء لم أعلمه بعد؟

خاطب العم سمير دنيا مستأذنا.

- سأفتح الدكان... وإن قبلت نشرب القهوة سويا؟

طأطأت دنيا رأسها دون رد ليخرج العم تاركا إياها تستجمع قواها، حركت فكها سرا لتتأكد أنها قادرة على التحكم بالأحرف التي ستخبر شقيقها بها ثم قالت.

- أصدقني القول يا رضا هل حقا ...

ابتلعت ريقها متلعثمة قبل أن تردف.

- هل حقا أن السيدة نجمة... أقصد والدتك تعد أيامها الأخير... أم أنها حجة افتعلتها لتستعطفني وتجبرني على الرحيل معك؟

التفت رضا يتأمل نقش النجمة الذي يميّز هاتفه فوق الطاولة ليقول بألم.

- يا ليتني كنت أكذب... لكنها الحقيقة المُرّة... مع الأسف بريق نجمتنا يكاد ينطفئ... ولا أدري... هل سيكون لي نصيب لرؤية آخر بصيص له أم ...؟

لم يستطع رضا إكمال تلك الكلمة حتى فوجئ بدنيا تضع الكيس فوق طاولة إلى جانبها وهي تقول.

- ستفعل... إن كنت لا زلت مصرا على هدفك الذي جئت من أجله... فأنا موافقة على الرحيل معك.

استدار رضا إليها ورد غير مصدق لما سمعه.

- هل أنت واعية لما قلته للتو؟

- قلت لك إن كان الهدف الذي جئت لأجله قائما يا رضا.

فلتت مشاعر رضا ليحملها بين أحضانه ملتفا حول المكان ناشرا سعادته في كل أرجاء الغرفة وهو يقول.

- الحمد لله... ظننت أن الأمر سيطول أكثر... الحمد لله.

جعلت دنيا تقارن فرحته بالانتكاسة التي بات عليه منزل سي أحمد، فهل كان اختيارها له صحيحا يا ترى؟ وضعها رضا وحوى رأسها بين كفيه ماسحا دموعها الهادئة.

- أعدكِ أن الأمور ستكون بخير؟ لن يصيبك مكروه طالما كنت إلى جانبك... شقيقك سيواجه العالم كله لأجلك.. ذلك الطفل الضعيف رضا لم يعد موجودا... وأنا هنا لأكون درعا يتلقى كل الآلام بدلا عنك .. المهم أن نجمتي ستتمكن من رؤيتك ثانية بإذن الله... كل ما أتمناه أن نلحقها يا عزيزتي... الحمد لله أنك وافقت...

على الرغم من الجفاء الذي كان يحيط صدر دنيا بشأن رضا، على الرغم من كل الخوف الذي كان يتغلغل داخل أفكارها الجريئة فإنها شعرت بالأمان، الوعود التي ظل لسانه يرددها جعلتها تتساءل إن كان قادرا على الوفاء بها بالقدر الذي يسكبه دون توقف أم أنه في النهاية سيفقد السيطرة على بعضها؟ سكتت هنيهة متذكرة اتفاقها مع حميد لتردف بكل جدية.

- هل تستطيع تأمين رحلتنا اليوم؟ جواز سفري وكل وثائقي أصبحت جاهزة... لكن لا تخبر أحدا بالأمر.

استغرب رضا وسألها بذات الجدية.

- لماذا كل هذا الاستعجال؟ ظننت أنك ستستغلين كل دقيقة للبقاء مع عائلة سي أحمد وصديقتيك.

- هل ستستطيع فعل ذلك أم لا؟ عليك تنفيذ طلبي هذا دون إبطاء ..لو سمحت..

- سأحاول... في كل الأحوال... ينبغي أن نستعجل الرحيل ...

دخل العم سمير بإبريق الشاي ليمسك رضا يد دنيا ويزف الخبر فرحا.

- لقد قررت نيفين الرحيل معي يا عم يوسف... وأخيرا سأعود بالحلم الذي انتظرته إلى القصر...

ابتسم العم سمير في ألم ثم قال سائلا.

- وماذا عن أحمد... هل أخبرته بقرارك؟

سحبت دنيا يدها من يد رضا وأخذت تداعب خنصر يدها اليسرى مرتبكة ثم قالت.

- نعم... كان يجب علي فعل ذلك...

أخذ العم سمير يقلب فنجان القهوة مستوقفا دنيا التي همت بالخروج.

- ألن تحتسي معنا القهوة يا ابنتي ...؟

- لدي عمل مهم...

خرجت وقد بنت لروحها شرنقة من الخطط التي لا يعلم أحد خباياها، لا أحد يعلم أيضا مصير القصة التي جاء بها رضا من على مقربة من الأراضي المحتلة، رغم ذلك كانت تتمنى لو أن ما رأته من قبل مجرد كابوس، كانت موقنة أشد اليقين أن هذه الأمنيات ليست إلا خدعا تحفر عميقا حيث الأمل... أمل رفعت شعاره أمام الجميع والآن عرفت بأنها استنزفت أحرف تلك الكلمة من أجل الآخرين ودفنت ما بقي منها في مكان مجهول، فهل ستأخذها الأحداث التي رواها رضا إلى مكان القبر فتنتشل روحها المتمسكة بذلك الأمل وتحررها أم أنه سيأخذها بيديه ليملأ بجسدها جوفه؟

نظرت دنيا إلى ساعة يدها فتنهدت لمّا كان من المفترض أن تكون في انتظار وصول رهف للانطلاق إلى الثانوية، كانت إحدى الحصص يومها ستكون مع الأستاذ منير داخل الملعب، نظرت إلى زاوية الحي بيأس ثم تداركت عواطفها واتجهت إلى المنزل، وبمجرد دخولها مرت سيارة عمر، أخذت رهف تتأمل علها ترى طيفا ضمد جراحها، وها هو الزمان يجعل منه حامل السكين، غضبها لا زال ملتهبا، اعتقدت أن دنيا داست على التضحية التي حملها صمت اعتادته السنوات، وفي المستشفى ضمت أمل ركبتيها إلى صدرها تفكر، حملت هاتفها محاولة الاتصال بدنيا لكنها ولأول مرة في حياتها تراجعت، لم يسبق لها أن ترددت عند الاتصال بصديقتيها، كانت تتحمس وتخترع أتفه الأسباب حتى تتصل بهما، وتسمع صوتيهما، فماذا حل بذلك الاندفاع الجنوني؟

خرج الطلاب لاستنشاق الهواء أثناء وقت الاستراحة، عندما قعدت رهف عند ذات الزاوية التي جمعت أسرارها مع صديقاتها، راحت تسحب دموعا كانت تنزل في نفس الوقت من خلف أسوار الثانوية حيث كانت دنيا تراقبها دون ملل، وقد خاطبها رضا بحزن.

- ألن تظهري نفسك لها؟

تجاهلت دنيا الرد عليه وعادت بها الذاكرة حين اتصل بها بعدما تمكن من حجز مكانين ضمن رحلة ستنتهي على المطار

الدولي بالعاصمة الأردنية عمان، تمكن من ذلك بمساعدة صديق أمن له المرور بجواز سفر لا يحمل اسمه الحقيقي، هي لم تناقشه وطلبت منه مرافقتها إلى الثانوية بعدما كانت تمقت لحاقه بها، ربما استسلمت للحقيقة، أو رضخت لواقع تحتم عليها مواجهته، أصبحت بحاجة إلى شجاعة أضعاف التي عرفت بها حتى تتجاوز ألم كدمات خلّفها القرار الذي اتخذته، بقيت تمتع أنظارها ببعض من ملامح رهف، أو ربما بالمكان الذي جمعهن، نظرت إلى الأستاذة سليمة توجه بعض الملاحظات إلى أحد التلاميذ ثم لفتها خروج الأستاذ منير من مكتبه حاملا شبكة ملئت بكرات السلة، تبعت خطواته حتى دخل الملعب لتستعيد أجمل لحظاتها أثناء حصة الرياضة ثم قالت بحنق سمعه رضا.

- إنه يستعد لبدء الحصة التي عشقت... يفترض أن نكون الآن متجهات إلى غرفة تبديل الملابس... ثم ننتظر أمل تغير ملابسها وترتدي بدلتها الرياضية.

غالبت دنيا مشاعرها وداست على قلبها، أنفاس تتابعت بحرقة لتقترب من بوابة الثانوية بمجرد أن رنّ الجرس منهيا فترة الراحة، لم تشعر بخطواتها التي تسللت لتقتادها داخل الساحة، اتجهت الأصابع إليها، مما جعل رهف تنتبه لحركاتهم فالتفتت، بقيت تنظر من بعيد إلى الأستاذة سليمة قد أيقظت دنيا من سباتها بصراخها المعتاد.

- إلى أين يا بن زيان؟ لن تعتبي هذه المؤسسة من دون حضور ولي أمرك...

نقلت رهف بصرها إلى الجهة المعاكسة فرأت رضا ولم تنتظر ما سيحدث بل انسحبت إلى قاعة تبديل الملابس بسرعة، في حين ركض الأخير نحو دنيا وقد آلمها رحيل رهف بتلك الطريقة، عادت بخطواتها إلى الخلف لتصطدم بيده على كتفها، وإذ بصراخ الأستاذة سليمة يملأ زوايا المؤسسة مهددة غاضبة.

- لن أفوت هذا الانفلات... وسأتصل الآن بولي أمرك وأخبره بكل التجاوزات التي طرأت منك ...

ابتسم رضا ساخرا ورد عليها محيطا أخته بذراعه.

- إن أردت الاتصال بوليها... فلا تتعبي نفسك الآن... سيكون داخل الاجتماع في مثل هذا الوقت.

ثم سحب دنيا إلى الخارج راحلا... يبدو أنه قصد برده حسن أبوغزالة مخرجا سي أحمد من دائرة الولاية التي حملها على أكتافه سنوات طوال، هل بدأ رضا يبسط يده على ممتلكات عائلته التي كان حقا له ولوالده فقط التصرف فيها؟

بشوق بدأ قبل حينه سحبت دنيا جرأتها من وكر حالك السواد، لطالما روضت جرأتها لتدافع عن من هم حولها ولكنها اليوم بحاجة إليها كي تقتلع روحهم بيديها، هي مرغمة على قلب

القواعد للتضحية برهف، بل للرحيل عن أمل دون رؤيتها، ستُخرج التوحش الذي رأته المراقبة سليمة فيها وتسحب معه أسواط الشر التي حاربت بها نور منذ مدة طويلة، كيف لا والقرار الصعب الذي هي على عتبة تنفيذه أكثر وحشة ورعبا من أي قرار؟ رغم الموقف الذي اتخذته رهف، أو الغضب الذي سيعتري أمل عندما تعرف أن كلام والدها حميد صحيح، إلا أنها موقنة بأن الوداع سيفتك بصديقتيها منذ لحظة معرفتهما به، أسئلة كثيرة طرحتها على مشاعرها قبل أن تسأل رضا بأحرف ضائعة.

- ... كم بقي لي من الوقت؟

صمت رضا كأنه شعر بما اختلج في قلب أخته، ثم رد مرخيا فكيه وقد انخفض صوته وضعفت ثقته بنبرته الحازمة.

- أقل من ساعتيْن وإذا لم نستغل هذه الرحلة... سننتظر أسبوعا آخر...
- لي وجهة لا بد من الوقوف عندها ...

نعم، إنها المقبرة أين دفنت صديقتها رنا، وقفت قرب القبر بصمت لتلتفت في أحيان عدة يمينا أو يسارا كأنها تبحث عن شخص ما، ظلّ رضا يراقبها وملامحه بين التردد والخوف، انحنت تداعب حبات التراب الباردة وتنتقي بعض الحصى لتلقيه بعيدا ثم قالت باسمة...

- أما زلت مصرة على موقفك... مرّت أشهر وأنا أعيش على أمل لقاءك... أنظري، إنني راحلة... لا أدري ما الذي ينتظرني خلف رحلتي هذه... ولكنني حقا أريد رؤيتك... أن أسمع صوتك فقط... ارحمي النار المتقدة بقلبي وأظهري نفسك... أرجوك... أرجوك يا رنوش... لقد اشتقت إلى أحرف اسمك... أريد أن أصرخ بها علك تصغين إلى حرقتي وتلتفتين حيث الركن المظلم الذي اتخذته سكنا بعد رحيلك ...

فجأة راحت تنبش تراب القبر صارخة تبكي مما جعل رضا يركض إليها.

- أنا لا أستحق كل هذا... أرجوك ارحميني... فلم أعد أصبر على فراقك... لقد حفر لي قبر فارغ قبل سنوات... فلماذا سيكون جسدك داخل قبرك هذا؟... حتى وإن استطعت الرحيل عن رهف وأمل من دون أن أخبرهما ...فجرأتي خانتني لأفعل ذلك معك... أريني نفسك وسأترك كل شيء وأبقى إلى جانبك ...

استطاع رضا إبعادها إلى أحضانه بصعوبة لتنهار مخاطبة هذا الأخ بصوت ضعف حد الاستسلام.

- لماذا لم تعد رنوش حتى اليوم؟... أخبروها أنني راحلة... أرجوكم افعلوا... لتقل لي سامحتك فقط... أنا حقا لم أقصد دفعها... ليتني أموت لأتأكد من وجودها في العالم

الآخر... لنستعجل الرحيل يا رضا... فلعلي أموت على يد عدوكم وألقاها... خذني إليهم... أرجوك.

دمعت عين رضا فقبّل جبينها وحضنها قائلا.

- لا تقولي هذا... واستغفري ربك... فكلنا راحلون... يكفي يا أختاه... يكفي ...
- ليست رنا التي تذهب وتتركني... لقد سئمت الألم يا رضا... سئمته ...

ثم أدخلت يدها المرتعشة داخل جيب معطفها وحملت سوارا من القماش طرز عليه اسم رنا وقربه حرف **D** ثم ردمته بحفنة تراب من قبر رنا واستدارت باكية حيث مصيرها المجهول، انسكبت الدموع دونما توقف لتخاطب نفسها.

- إذا قدمت من بعدي... خذيه... فلربما تسامحيني يومها... لن أملّ انتظارك يا صديقتي.

انتقلت لحظات الوداع إلى منزل سي أحمد حين كانت بطلتنا تودع أهلها على أمل لقائهم ثانية، ولمّا قدّمت رسالة إلى أمها طالبة منها إعطاءها رهف عند قدومها خاطبتها فاطمة بألم.

- لماذا تحرميهما هذه اللحظة؟ ففي الأخير قد اتخذتِ قرارك ومهما حزنتا فلن تعارضاك... أنظري إلينا يا دنيا... فنحن لم نستطع فعل شيء رغم علمنا بثناياه.

- أمّاه لقد انتهت مهمّتي عندما رفعت الظلم عن رهف أما أمل فلن يضايقها والدها بعد ابتعادي عنها... وغلّ نور سيختفي باختفائي... آمل ذلك.

حضنت دنيا أسماء ثم هيثم متذكرة كل الأوقات التي دافع فيها عنها في صغرهما، ليخاطبها رضا وقد بدأ يدقق في عقارب ساعته.

- لقد تأخرنا... تعلمين الإجراءات التي تسبق انطلاق الطائرة...

نظرت دنيا بألم كبير إلى حيها الذي أفنت فيه دهرا طيّبا من أجمل أيام حياتها، أخذت تتأمل كل زواياه مبعدة أبصارها عن منزل رنا القديم قدر المستطاع، ثم نظرت إلى العم سمير وابتسمت قائلة.

- ألن تأتي معنا؟ أظن أن مهمّتك انتهت أيضا.

نظر العم سمير إلى سي أحمد وقال مبتسما.

- لا يا ابنتي فذهابي سيعرضك للخطر وسيؤكد الشكوك... ثم لا تقلقي فأنا صرت بين أهلي... وقد اعتدت حياتي هنا.

ركبت دنيا السيارة بألم، أما رضا فخاطبهم مطمئنا بعدما تأثر بدموعهم.

- لا تقلقوا... فلن يصيبها شيء بإذن الله... أما عنك يا عم يوسف... فعائلتنا ستبقى ممتنة لكل ما فعلته من

أجلها... اعتني بنفسك... رغم استعادتنا لنيفين إلا أن تواصلك معنا مهم أيضا فلا تقطع عنا صوتك أيها الوفي... وأنا آسف لأي كلمة سوء قلتها في حقك بسبب غضبي.

حضن رضا العم سمير بكل احترام، ليخاطبه هيثم مستوقفا .

- أرجوك يا أخي... مهما يكن فأنا أرى فيك الرجل الشريف... أحضنها بعينيك لأنها تستحق ذلك.

رغم كل الذي حصل نادى هيثم رضا بأخي وأوصاه بدنيا خيرا، رحلت ملاك عائلة بن زيان دون أن تبعد نظرها عن والدها وقد غرقت لحيته بدموعه البكماء عند باب منزله، تمنت لو أن الزمن يتوقف بها في ذلك الحي، أثناء رحيلها إلى المطار ألقت آخر نظرة على ثانويتها وشوارع حفظت ممراتها وألوان أبوابها وحتى أسماء أغلب ساكنيها.

خيم الهدوء على كل أركان منزل سي أحمد حين انتبهت أسماء للرسالة موضوعة قرب أمها، فقالت مكشرة.

- أمي ...عندما تعود ...رهف سأعطيها الرسالة... وأهرب... لأنني أعرف ...أنها ستغضب... كثيرا.
- لقد أخطأت أختك عندما رفضت توديعهما وجها لوجه... ربما هي قوية لكن رهف وأمل نقطة ضعفها.

فجأة وقف سي أحمد واتجه إلى الهاتف الثابت وخاطب فاطمة بحزم.

- أتملكين رقم رهف أو أمل؟
- لا يا أحمد، لقد أخذت دنيا هاتفها... لكن لماذا؟

تذمر سي أحمد وأخذ يلبس معطفه وهو يقول.

- من الخطأ أن نخفي عنهما هذا القرار... وسأعلمهما بالحقيقة... يجب أن يودّعاها بأي طريقة كانت.

وقف هيثم وقد شاطره قراره، وتوجه إلى غرفة دنيا باحثا عن استعمال الزمن الذي اعتادت تعليقه خلف الباب مع أسماءِ الأساتذة ولكن قبل وصوله ردت أسماء.

- لا بد أنها حصة الرياضة... متأكدة يا أخي.

لم تحفظ أسماء مواعيد حصصها فقط، بل كانت على علم بما ستدرس أُختها ومواعيد عودتها أيضا، في الثانوية وبالتحديد في الملعب قعدت رهف تراقب اللاعبات أحيانا وتشرد في حين آخر، إلى أن فوجئت بهرولة سي أحمد وهيثم نحو الأستاذ منير، توجهت إليهم مستعجلة الخطى، لتسأل بحيرة...

- خيرا يا عم أحمد؟... لماذا كل هذا الاستعجال؟ دنيا بخير أليس كذلك؟

تبادل سي أحمد نظراته مع هيثم أمام حيرة الأستاذ منير ورهف ثم قال.

- ستغادر دنيا الجزائر خلال أقل من نصف ساعة يا رهف... وعلينا اللحاق بها.

انهز جسد رهف صارخة فيما اتسعت ضحكة نور من الخلف.

- مستحيل... ليست دنيا من تفعل ذلك بنا... كيف تذهب دون إخبارنا؟

نظر هيثم إلى ساعته وأضاف.

- ولكنها فعلتها... لا داعي لنضيع المزيد من الوقت... سنشرح لك فيما بعد... أنا سأتجه إلى المستشفى حيث أمل وأنت انطلقي مع أبي... كل ما أرجوه هو اللحاق بها...

استدار الثلاثة للرحيل ليوقفهم الأستاذ منير بعد تردد علا قسماته، وقد كان من بين الأساتذة الذين وصلتهم مقتطفات من حكاية دنيا بعد الإشاعات التي روّجت لها نور.

- هل تسمح لي بالقدوم معكم يا عم؟ لا تهمني التفاصيل لكن... وفي كل الأحوال بن زيان تلميذة تستحق أن نودعها بكل احترام.
- بكل تأكيد... يمكنك ذلك.

أنهى الأستاذ منير الحصة وانطلق برفقتهم، أما في المطار الدولي الجزائري وقفت دنيا تقرأ تذاكر الرحلة لتخاطب رضا متسائلة.

- أنت متأكد أنك ستمر باستخدام هذا الاسم المزور دون اكتشافك؟

ابتسم رضا مرتاحا وقال.

- من المفترض أن صديقي قد أتم كل الإجراءات دون أي مشكلة... كما أنني مررت قبل اليوم بهذا الجواز... لذا لا تقلقي...

- لكن رجال الأمن منتشرون و...

بتر رضا تخوفها ورد هامسا.

- إلا إذا كنت مصرّة على الحديث عن هذا الموضوع... سيسمعنا أحد ما ونكون عندها أمام مشكلة لا حل لها... انسي الأمر ...

مطت دنيا شفتيها وقالت بصوت مسموع يدل على الانزعاج.

- بدأنا بالكذب والتلاعب من الآن ...

دفع رضا سلة الحقائب مخاطبا نفسه.

- أعتذر منك يا نيفين، لكن المستقبل الذي أنت ذاهبة إليه شبيه ببحر من الأكاذيب التي لا ينضب منبعها ولا يعرف مصدرها... فهل أنت قادرة على التحمل؟ هذا هو السؤال الأنسب للمغامرة التي أنت مقبلة على دخولها ...

وقفت دنيا تستنشق نسمات الجزائر بكل ما أوتيت من قوة، تمنت لو تتشبث تلك النسمة برئتيها طوال مدة غيابها عن بلد المليون ونصف المليون شهيد، كانت تتلذذ باللهجة الجزائرية تتردد من الجزائريين هناك، لتداعب أذنها بكل وطنية وعزة واستثنائية، فمن يتذوق الحياة الجزائرية ويتعايش مع أهلها لن يستطيع مفارقتها بسهولة نعم، هذا ما اختلج في صدرها وبكل تأكيد اختلج في قلب كل مغترب عن وطنه، ولكنها راحلة إلى أصلها وبين أهلها، فإلى أي مدى ستتأقلم معهم؟ هذا هو السؤال الذي راود تفكيرها لكن الجواب سيكون بعد خوض المعركة.

كانت بين هذه الصراعات النفسية متوجهة إلى الطائرة، وهاهي خطوات الجميع تتلاحق بسرعة داخل المطار، بعد محاولات عديدة أثناء مواجهة رجال الأمن انفلتت رهف وأمل مع الأستاذ منير، فيما مكث هيثم وسي أحمد والسيدة سامية التي رافقت ابنتها عند البوابة، كان رجال الأمن خلفهم لكنهم استطاعوا المرور إلى ساحة انتشر فيها عدد من الطائرات.

أخذت دنيا تصعد سلالم الطائرة متأكدة أن الخطوة التي قامت بها ستحد من الشك الذي هجم عليها، ثم وضعت يدها على خريطة الجزائر التي نقشت على سوارها، لتلتفت لما سمعت صرخة رهف وأمل وقد قطع رجال الأمن طريقهما مع الأستاذ منير بعد دخولهم الساحة بأمتار.

- دنيا... أرجوك لا تفعليها يا صديقتي ...لا ترحلي...

جثمت تتأمل مشهد إلتواء صديقتيها بين قبضة رجال الأمن دامعة، ولما أرادت التقدم منهم أمسك رضا يدها وقال مبتلعا ريقه بخوف من أن تتراجع عن قرارها.

- لا تفعلي ذلك... الوقت ليس مناسبا لضعفك... أرجوك يا صغيرتي.

ارتبكت دنيا بين كلامه المرتعش ونداءات صديقتيها الموجوعة لتستدير عائدة إلى الطائرة بأوجاع تضاعفت ولولاتها، لم تهدأ مخاوف رضا إلا عندما سمع صوت محركات الطائرة لترتفع عن الأرض بعد دقائق، بل لم تستطع دنيا حينها النظر عبر النافذة، أغلقت أذنيها محاولة تجاهل صدى نداء صديقتيها الذي التصق بطبلة أذنها رافضا السكوت، أحست أمل ورهف كأن أنفاسهما تضيق أكثر وأكثر مع كل متر تبتعده الطائرة عنهما آخذة معها فتاة ملأت الجميع أملا وحبا، الفتاة التي بايعوها ملكة للوفاء في قلوب الأعداء قبل الأحباب والأصدقاء.

مع هذه الأحداث الظالمة والدموع القاسية،

ستبدأ دنيا رحلتها مع عالم جديد

فهل ستنتصر عند مواجهة الصعاب

أم أنها ستكون هدفا سهلا بين أيدي المنتقمين؟

أحداث كثيرة تنتظركم أحبتي

وتستمر المغامرة بين صفحات الجزء الثاني

"المتمرّدة"